

المقتطف

الجزء الخامس من المجلد التسعين

٢٠ صفر سنة ١٣٥٦

١ مايو سنة ١٩٣٧

العلم في ضربة الانسانية

الفيثامينات واثرها

في الصحة والمرصه والنمو

يقال — والعهد على الراوي — ان ادمند كين الممثل الانكليزي المشهور كان يتناول طعاماً خاصاً لكل دورٍ يمثله ، فكان يتناول لحم الخنزير قبلما يمثل دور طاغٍ ولحم البقر قبل تمثيله دور سفاك ولحم الضأن قبل تمثيله دور عاشق ولهان . ومن الاقوال الماثورة في هذا الصدد : قل لي ما تأكل انبئك من انت

فما الصلة بين خمسين طنّاً من الطعام يتناولها المرء خلال حياته ، وبين صحته من ناحية وطباعه وخلقه من ناحية اخرى ؟ لقد كشف العلم عن بعض الحقائق المتصلة بهذا الموضوع في حياة الحيوان وحياة الانسان حتى ان الاستاذ هنري شرمن احد علماء جامعة كولومبيا صرح بعد تجارب دقيقة جربها في هذا الصدد في الجرذان انه في استطاعة الباحث ان يطيل متوسط عمرها ويجعلها اكبر واغوى بالاشراف على تغذيتها على نحو معين

فكيف وصل العلم الى هذه النتائج ؟

في سنة ١٨٩٧ نقشى في جزائر الهند الشرقية التابعة لهولندة مرضٌ قديمٌ عرف في الشرق الاقصى من نحو النفي سنة ويدعى برييري او « كاك — كي » وهو مرضٌ غريبٌ تتأثر في المصاب

به اعصاب الحركة والحس تأثراً عظيماً . فيصاب صاحبه بأعياء عام وانحطاط في قواه العقلية ، وبالاستسقاء وفقر في الدم يصحبه شلل زاحف ، يبدأ عادة في الساقين وينتشر صعوداً حتى يصل الى القلب فتحدث الوفاة .
فعميت حكومة هولندية لجنة لبحث الموضوع عسى ان توفق الى معرفة سببه واستنباط علاج شافٍ له

الرز المقشور وغير المقشور

وكان بين الرجال الذين عهد اليهم في مكافحة هذا المرض رجل يدعى كرسنيان Aikman . كانت «البكتيريولوجيا» في اوج شهرتها حينئذ بعد مكتشفات باستور وكوخ وغيرها ، فعمد Aikman منساقاً بروح البحث الطبي السائدة حينئذ الى البحث عن ميكروب يحدث هذا المرض . ولكنه شاهد مشاهدة استرعت عنايته فانصرف بعض الانصراف عن البحث عن الميكروب الى النظر في تحليل مارأي . ذلك انه شاهد طائفة من الدجاج كانت تعيش على مقربة من معمله ، وقد اصببت بشلل يشبه الشلل الذي يحسب من اعراض البريري . فلم يستغرب ذلك لانه كان يعلم ان بعض الحيوانات معرض للاصابة باعراض يصاب بها الناس . فقال لعل هذا الدجاج عدى بالمرض من اتصاله بمن يراعه . واذ هو ماض في البحث عن الميكروب ، كان يقضي بعض الوقت في مراقبة الدجاج ليعلم كيف اتصلت به العدوى

فلاحظ بعد قليل ان الدجاجات التي يسمح لها بأن تسرح في الحقل ، تنكث منه بمنقارها ما تتغذى به ، وتقبل في الشمس ، لا تصاب بالبريري (يعرف الضرب الخاص من البريري الذي يصاب به الدجاج باسم «بولينيوريتس») . أما الدجاجات او أفرأخها التي اصببت بأعراض هذا المرض فكانت قد حفظت في حظائرهما وغذيت ببقايا الرز الذي كان السجناء يتغذون به . فبحث في الغذاء الذي يغذى به السجناء فلم يجد فيه ما يسترعي الانتباه الا أن الرز وهو عماد غذائهم ، كان قد قشر بالآلات الحديثة لازالة قشرته الصفراء . وكانت القشور تطرح جانباً لاعتقادهم أنها لا تصلح للغذاء . فخطر لأيكمان ان يقابل بين انتشار مرض البريري في السجون المختلفة بالمقابلة بين أنواع الرز الذي يغذى به السجناء . فتمجلت له حقائق غريبة

وجد ان ١٥٠ ألفاً من السجناء كانوا يتغذون بالرز المقشر وان واحداً في كل ٣٩ منهم يصاب بالبريري . وان ٣٥ ألف مسجون غيرهم كانوا يتغذون برز غير تام التقشير وان واحداً منهم في كل ٤٠٠ كان يصاب بهذا المرض . وان مائة ألف كانوا يتغذون بالرز غير المقشور فلم يصب منهم بالبريري الا واحد في كل ١٠٧٢٥ مسجوناً . فحدث الاصابة بالبريري بين

الذين يتغذون بالرز المقشور ٣٠٠ ضعف حدودها بين الذين يتغذون بالرز الكامل اي غير المقشور فلما تبين له ذلك اتضحت امامه الخطوة التالية في البحث : اخذ طائفة من الافراخ (جمع فرخ وهو صغير الطير) وغذاها بالرز المقشور دون اي شيء آخر. فأصبحت جميعها «بالبولينيوريتس» (بريري الدجاج) وماتت . واخذ طائفة اخرى وغذاها بالرز غير المقشور دون اي شيء آخر فلم يصب احدها بالمرض . ثم اخذ طائفة من الافراخ المصابة ، وازاد الى رزها المقشور قشور الرز التي كانت تطرح جانبا فلم تلبث حتى شفيت مما ألم بها . وكذلك تمكن أيكمان من اكتشاف سبب «بريري الدجاج» في غذاء ناقص لا في ميكروب . واثبت بتجاربه انه يستطيع ان يحدث المرض بازالة العناصر اللازمة من الغذاء ثم يستطيع شفاؤه باعادة هذه العناصر الى الغذاء الناقص . وبعد ذلك دعي الى هولندية وتقلد منصب استاذ في جامعة اوترخت

الا ان شيئاً من الخطأ كان قد تطرق الى تعليل أيكمان لما رأى وكشف . كان قد اشار بوجوب اكل الرز كاملاً ولكنه لم يستطع ان يعلم سر الفائدة المنطوية في قشرة الرز الخارجية . ولم توجه عناية ما الى بحثه ، فظل مرض البريري متفشياً وظل آلاف من الناس يموتون به . فلما نشبت الحرب الروسية اليابانية في مطلع هذا القرن عطل سدس القوات اليابانية عن العمل لتفشي البريري فيها

وبعد انقضاء ثلاث عشرة سنة على تجاربه ، ذهب شاب بولوني يدعى كازيمير فونك Funk الى معهد إستر بلندن فكشف عن رسالة الطبيب الهولندي وبعد ما طالعها وتلى معانيها قال ان قشور الرز تحتوي على مادة كيميائية لاندحة عنها للصحة ، وحاول ان يستخلص تلك المادة مستعملاً الحمام لامتحان فعل ما يستخلص . وبعد عمليات لا عدادها من الحل والترسيب والتصفية فاز بمقدار يسير من مسحوق ابيض وزنه ١/١٠ من الاوقية كان قد استخلصه من رطل من قشور الرز . ولما امتحنه وجد انه اذا اضيفت بضعة مايغرامات منه الى غذاء حمام مصاب اصابة قوية «بالبولينيوريتس» شفاها منها فتشدد سيقانه وتستقيم عنقه الذابلة ويتحول حماماً سوياً

اسم الفيتامين

ولما كان هذا المركب لازماً للحياة (Vita) ويحتوي على طائفة المركبات الامينية (Amine) دعا فونك هذه المادة المقاومة لمرض البريري فيتامين Vit-amine الا ان فونك كان على خطأ في ظنه انه استخلص الفيتامين النقي من كل شائبة . والاسم الذي اطلقه عليه كان في غير محله لانه ثبت بعد ذلك ان هذه المادة الحيوية لا تحتوي على المركبات الامينية . ولكن الاسم الذي اختاره استهوى الناس ، فذاع في الخافقين وابقى عليه في الكتب العلمية بعد حذف الحرف

الآخر منه سنة ١٩٣٠ فصار Vitamin . غير ان فونك كان اكثر توفيقاً في قوله ان المستقبل سيكشف عن امراض اخرى ترجع الى نقص هذه المواد الحيوية في الطعام او خلوه منها وكان العلماء في ذلك العهد شغفين بدراسة ما تحتوي عليه الاطعمة المختلفة من مقادير الحرارة وقياس ما يحتاج اليه الرجل والمرأة والطفل والحيوان من الحرارة في حالي اليقظة والنمام . واستنبطوا لذلك اساليب متنوعة واجهزة بسيطة ومعقدة . لكن الكيمياء كانت قد اصابته من الارتقاء ما مكن اصحابها من تحضير المواد المغذية في الاطعمة نقية من الشوائب ، فعمد اليها الباحثون في الطعام والحرارة عسائهم يستطيعون ان يتوصلوا عن طريق تجاربهم الى تركيب الغذاء الامثل لختلف انواع الاحياء . ذلك ان جسم الانسان كان في نظرهم اكثر من اتون جل ما يحتاج اليه مواد تكون بمثابة الوقود . فقالوا : لعل في مواد الطعام اشياء يحتاج اليها الجسم ولا يستغني عنها بصرف النظر عما تولده من الحرارة

وكان قد سبق الى هذا الضرب من البحث رجل يدعى لونين Lunin بدأ يجرب تجاربه في مدينة بال السويسرية سنة ١٨٨١ بسمة فتران . فوجد انه اذا غذاها بالبن عاشت وهي على اتم ما يكون صحة ونشاطاً . ولكنه اذا احل محل اللبن سائلاً يحتوي على جميع مركبات اللبن المنقاة اي بروتين اللبن (كاسيين) ودهنه وسكره (لاكتوس) واملاح المعدنية محمولة في الماء ماتت بعد انقضاء شهر عليها وهي تتناول هذا الغذاء . فخلص لونين الى النتيجة التالية وهي ان اللبن يحتوي على مادة او مواد غير البروتين والدهن والسكر والاملاح وان هذه المادة لا غنى عنها للصحة . وانقضى عقد من السنين فاذا استاذ لونين يسأل نفسه : افي اللبن حقيقة مواد اخرى غير البروتين والدهن والسكر والاملاح المعدنية لاندحة عنها للحياة . ام اخطأ لونين في تجاربه؟ وعلى كل حال قرّر الاستاذ بكهارج Pekelharing في جامعة اوترخت ان يمضي في المباحث التي بدأها لونين فاعاد تجاربه فخلص الى نفس نتيجته وهي ان في اللبن مقادير يسيرة من مادة غير معروفة لها ا كبر الشأن في التغذية

تجربة هيكنز الحاسمة

وفي سنة ١٩٠٦ شرع هيكنز (فردريك جولند هيكنز وهو رئيس الجمعية الملكية الان) احد علماء جامعة لندن وهو لايدري شيئاً عن مباحث لونين وبكهارج وأيكمان في مباحث كانت حاسمة في هذا الموضوع . اخذ طائفتين من صغار ذكور الفئران كل منهما ثمانون فاراً وغذى احداها بغذاء مؤلف من كاسين ونشاء وسكر القصب وشحم واملاح معدنية وكانت جميعها نقية من الناحية الكيميائية . وغذى الطائفة الاخرى بالغذاء نفسه ولكنه اضاف اليه مقدار ملعقة شاي

من اللبن الطازج كل يوم . فكانت النتيجة ان فتران الطائفة الاولى لم تنم . وان فتران الثانية نمت
مما سوياً . ثم قلب الغذاء . فأضاف اللبن الى غذاء الطائفة الاولى وحرم الثانية منه فانعسكت
آية النمو . اذ اخذت الاولى في النماء وتوقفت الثانية عنه . وفي سنة ١٩١٢ اذاع رأيهُ النهائي
اذ قال ، ليس في وسع اي حيوان ان يبقى حياً وهو يتغذى بمركب من بروتينات وادهان
وكربوهدرات نقية من الناحية الكيماوية . وقد منح هبكنز بالاشتراك مع أيكمان جائزة نوبل
الطبية سنة ١٩٢٩ جزاءً لهما على مباحثهما

في صيف السنة التي شرع فيها هبكنز يجرب تجاربه المشهورة ، كان شاب اميركي يدعى
المرثرز ما كولم McCollum قد اتمّ بحثاً معيناً في الكيمياء العضوية بجامعة ياييل . كان قبل عشر
سنوات قد غادر حقول كنساس متلصكاً ليومّ جامعة طالباً للعلم . ولولا حث امه له لكان
على الاكثر فلاحاً الآن يغالب الرياح والسيول والآفات

كان في حدائمه فتى خجولاً ضعيف البنية يكره دراسة القواعد اللغوية ويمقت الحساب
وأخفق في اجتياز الامتحان لدخول المدرسة العالية ولكن سمح له بدخولها تحت التجربة .
هنا فقد ما كولم شيئاً من خجله فنبغ في دروسه وكان يكسب ما يوفي به نفقات المدرسة
بإضاعة مصاييح الغاز في شوارع البلدة التي كان فيها وينقل رزم الصحف من مكان الى مكان
وبمساعدة مدرس الكيمياء التجريبية في معمل الكيمياء

وفاز بجائزة مكنته من متابعة دروسه في جامعة ياييل . ولم يكد يمضي فيها حتى أدرك ان
البحث الكيماوي يستهويه دون الطب وكان قد وطن النفس عليه . قال : « ولو عرض
عليّ سنة ١٩٠٦ أن أكون مدرّساً للكيمياء لقبلت » ولكن أحد لم يعرض عليه ذلك فقصي
سنة أخرى يشغل باشراف باحث يدعى مندل في الكيمياء الفسيولوجية والفسيولوجيا التجريبية
وهو ينتظر ان يتاح له عمل يرتزق منه

وفي نهاية السنة وجهت اليه دعوة من ثلاث محطات للتجارب الزراعية ، فأشار عليه مندل بالذهاب الى
محطة التجارب الزراعية التابعة لجامعة وسكنصن حيث كانوا يجربون تجربة كبيرة الشأن في تغذية الحيوانات
وكانت المسألة التي تدور عليها التجربة هي هي ، تلك المسألة التي بحثها لونين وبكلهم رنج
وهبكنز — : هل ثمة فرق بين قيمة غذاء عند ما يعطى كما هو في الطبيعة وعند ما تعطى المركبات
التي يحتوي عليها وقد جعلت نقية كل النقاء بأساليب الكيمياء ؟

من المجهول الى المُسّرر

ولذلك قرّر الباحث بابكوك Babcock ان يجرب عدّة تجارب ليمتحن النظريات المختلفة فقد
كان يرى أن مقدار الحرارة في الطعام ليس كل شيء فيه . والمسألة لم تكن علمية مجردة في

نظر بابكوك، لأن جامعة وسكنصن في بلاد تكثر فيها المراعي والقطعان، وأصحاب القطعان كثيراً ما يلجأون الى الجامعة يسألون أساطين العلم فيها عما يجب ان يغذوا به قطعانهم. وفي أول مايو سنة ١٩٠٧ بدىء في هذه التجربة العظيمة الشأن، وعهد الى رجل يدعى هارت Hart في الاشراف عليها

أخذت أربع طوائف من العجول وغذيت أغذية مختلفة. فواحدة منها غذيت بالحنطة، وأخرى بالذرة، وثالثة بالشوفان (الزيمير)، والرابعة بغذاء خليط من الحنطة والذرة والشوفان. وكان الباحثون يقيسون ما تأكله العجول وما تنغوطه ويحللون هذا وذلك وكان من عمل ما كולם ان يحلل البراز. ولكنه كان غير راض عن أسلوب التجربة لأنه رأى انها لا يمكن ان تخضع لقواعد البحث العلمي الدقيقة، وان الذين يجربون تجاربهم في الحيوانات الصغيرة كالفران والحمام والارانب الرومية على الطريق القويم. فزم ان يعيد تجربة هبكنز على ان يحدث فيها تعديلاً واحداً وهو ان لا يدخل في غذاء الحيوانات التي يجرب التجارب فيها اي مركب كيميائي الا اذا كان نقياً كل النقاء وتركيبه معروفاً حق معرفة

وبدلاً من ان يغذي الحيوانات بحنطة، كما فعل الباحثون في تجربة وسكنصن، وهي محبوب فيها مركبات معقدة التركيب، عزم ان يغذيها بنشأ تقي اي مركب من (١٦٦ يد ١٠ او ٥ — C16 H10 O5) وبديل اللبن يستعمل بروتين اللبن بعد تنقيته، وسكر اللبن بعد تنقيته وهكذا ولم تنقص عليه بضعة اشهر في وسكنصن حتى شرع في جمع الفران ليحرب تجاربه فيها. فلقى معارضة من مدير المحطة وعميد الكلية ومنع عنه المال لشراء غذاء للجرذان. اما غذاء العجول فقد كانت الجامعة مثلاً للسخاء في شرائه

ولكن بابكوك ذهب الى معمل ما كולם وجلس على كرسي فيه يبحث في الحطة التي ينوي الشاب ان يسير عليها، وما خرج من هناك الا وهو يؤيدها. وكذلك استطاع ما كולם ان يمضي فيها

كان يعرف الفران والجرذان من حدائيه وكثيراً ما نصب الشراك لها مع شقيقه في الحقول. ثم تعلم انها من خير الحيوانات لتجربة التجارب. فهدى حياتها نحو ثلاث سنوات ومدة حملها ثلاثة اسابيع. والانثى تستطيع ان تلد «بطنها الاول» وهي في نهاية الشهر الثالث من عمرها. ولا تبلغ الشهر الرابع عشر حتى تكون قد ولدت ستة بطون. ونفقات طائفة كبيرة من الجرذان يسيرة جداً

اكباً ما كולם على تجربته الخاصة في اويقات فراغه من تجربة العجول ومن التدريس في الجامعة فاقام الفران في صناديق صنعها يديه من خشب وكانت نشأته في مزرعة قد عودته

الصبر على العمل الشاق ، فكان يشتغل ثماني عشرة ساعة كل يوم ولا يمل . وكان يحيد تفسير النتائج التي يصل اليها ، وفرض الفروض التي يقتضيها البحث ثم امتحانها . وتملكه من البدء طموح عجيب ، واقتناع بأنه على الطريق الصواب . وراجع في ذهنه التجارب التي اشترك فيها في بايل ، لمعرفة ما في بعض الاغذية من القيمة والطاقة فضحك في نفسه ، لأنه أدرك أنها كانت بعيدة كل البعد عن قواعد التدقيق العلمي . اما هنا فتجارب دقيقة . وكل عامل فيها خاضع للقياس . فالجرذ في الصندوق هو انبوب اختبار ، والاغذية التي يغذي بها هي مواد كيميائية معروفة مركباتها ومقاديرها

الفأر النسيج

كان ما كولم يغذي جرذانه بالمقادير الصحيحة من مركب فصقات الكليسيوم غير العضوي وبروتينين نقيين احدهما مستخلص من بزر القنب والاخر من الذرة وبنشائين احدهما من القمح والاخر من الذرة وبسكرين سكر اللبن وسكر القصب وبمقدار كاف من الادهان وجميعها نقية من الناحية الكيميائية . ولكن ظهر له أن الجرذان لا تستطيع أن تحتفظ بصحتها وحيويتها معتمدة على هذا الغذاء فقط فكانت تموت قبل اوان موتها . فظن أولاً أن هذا الغذاء يعوزه شيء ليصبح سائفاً لا تنقز منه الشهية فحكم بان ما يجعل الطعام سائفاً عاملاً لا يستغنى عنه في أي غذاء . ولكنه كان على خطأ في هذا الرأي إلا أنه لم يدرك ذلك حينئذ . فاضاف الى طعام الجرذان ما جعله مقبولا ومضى يبذل في مقادير العناصر المختلفة الداخلة فيه فلما ثبت له أن بعض الجرذان عاش وبلغ الوزن السوي حسب أنه اتم اولى التجارب في التغذية بمواد نقية من الناحية الكيميائية وأنه أدرك النجاح المرتقب

وفي خلال ذلك كان هناك باحثان آخران احدهما يدعى اوسبورن Osborne والاخر مندل Mendel يجربان التجارب بقصد معرفة القيمة الغذائية والفسيولوجية في اصناف مختلفة من البروتين التي . وكانا يعلمان ان في البروتينات المختلفة احماضاً « أمينية » مختلفة Amino-acids وكان هما ان يعلم اي هذه الاحماض يجب ان يكون في البروتين الصالح للتغذية . وكانا يستعملان في تجاربهما مواد غذائية نقية كالمواد التي استعملها ما كولم إلا أنها لم تقض الى النتائج التي افضت اليها تجاربه من حيث الجرذان التي نمت وبلغت الوزن السوي . ولكنها وجد أنها اذا اضافا الى هذه المواد لبناً خالياً من البروتين — وهو عادة في شكل مسحوق اصفر يحضر باستخراج البروتين والدهن من اللبن ثم يجفف — كانت الجرذان تنمو نمواً طبيعياً . فحكم مندل بان الباعث على النمو ما بقي في اللبن من المواد المعدنية . وكان ايضاً على خطأ

وكذلك يتبين القارىء التيه الذي يسير فيه العلماء وهم يحاولون فهم سر من الاسرار، ولولا الشغف والمثابرة وغيرها من الصفات التي يتصفون بها، لما قادهم الخطأ الى الصواب
قرأ ما كولم ما كتبه مندل فكان باعثاً له على المبالغة في التدقيق، فوالى التجارب واضطر ان يتوقف عنها سنة كاملة لان وبأ اكتسح جردانه فاماتها جميعاً، وفي سنة ١٩١٤ نشر في مجلة الكيمياء البيولوجية رسالة فتحت عهداً جديداً في بحث الغذاء. وكان موضوع الرسالة،
« استفراة مادة في الزبدة تؤثر تأثيراً قوياً في النمو »

كشف فيتامين A

احتوت هذه الرسالة وصف تجربة كان موضوعها الجرد رقم ١٤١ ومدتها ثمانون يوماً. ففي خلال هذه الايام الثمانين كان هذا الجرد يغذى بطعام مؤلف من كاسين (بروتين اللبن) ونشاء وسكر اللبن (لاكتوس) وأجار اجار (وهو المادة التي تستنبت فيها الميكروبات احياناً) ومزيج ملح وشحم. وكانت جميعها نقية من الناحية الكيميائية. فلما الجرد نمواً طبيعياً ثم اخذ يهزل. فاضيف الى غذائه مقدار يسير من خلاصة الزبدة، فاخذ وزنه يزيد زيادة سريعة. وبلغت الزيادة ٥٠ غراماً في ٣٥ يوماً. ثم ابدل ما كولم خلاصة الزبدة بخلاصة مح (صفار) البيض فظلت الزيادة مستمرة. فلما استعمل زيت الزيتون محل الزبدة وصفار البيض توقف النمو. فخلص ما كولم من ذلك الى النتيجة التالية، وهي ان الادهان (fats) والزيوت (oils) تختلف في قدرتها على الإثماء مع انها لا تختلف الا يسيراً في تركيبها الكيميائي وذلك لان في الادهان عاملاً غذائياً لم يعرف بعد يذوب في الدهن ودعاهُ فيتامين A وكذلك توصل ما كولم الى معرفة ذلك العامل الغذائي الذي ظن بكله ارنج وهيكزانه في اللبن واعاد مندل تجارب ما كولم مستوفياً في كل مرحلة منها اشد قواعده التحري، فاسفرت عما يؤيد ما كولم كل التأييد

ولكن مندل ظل لا يفهم السبب في ان اللبن الحالي من البروتين يؤاتي النمو. ولا استطاع ان يحكم هل النقص في الغذاء الذي ركبهُ من مواد كيميائية يعود الى خطأ في مقادير عناصره المختلفة بقياس بعضها الى بعض او الى نقص عنصر اساسي غير معروف. ثم إن ما كولم نفسه كان محيراً. فخلاصة الزبدة او مح البيض، تجعل بعض الاغذية مؤاتية للنمو، ولا تجعل اغذية اخرى كذلك. وقرأ فونك ما كتب ما كولم ومندل فقال ان العنصر الفعّال في خلاصة الزبدة التي استعملها الاول. انما هو هو الفيتامين الذي يمنع البريري ومن الواضح ان جميع الباحثين كانوا لا يزالون حتى تلك الساعة يتلمسون الطريق في التيه

كشف فيتامين B

عاد ما كولم الى جردانه عازماً على ان يحجب تجربة واسعة النطاق ، مع انه كان عيلاً توالى عليه الاصابة بالزكام والصداع والتهاب الحلق والشعب وهبط وزنه الى ١٢٢ رطلاً . ولكن هذا البحث كان قد استهواه وملك عليه لُبته . فحرب سلسلة من التجارب منوعاً فيها مواد الغذاء ومراقباً نتيجة ذلك في نمو الجرذان فخلص الى ان الحنطة كغذاء يعوزها الاملاح وفيتامين A وبعض البروتين . والى ان الغذاء الوافي يجب ان يحتوي مقادير كافية من البروتين والسكر بوهدرات والاملاح وفيتامين A . وكان الرز من الحبوب التي استعملها في تجاربه فوجد ان الرز غير المقشور يؤاى النمو . ولكن اذا كان الرز مقشوراً واذيف اليه قليل من الزبدة اي فيتامين A والاملاح لم يسد النقص فيه اي لم تعوضه الزبدة مما فقد بفقد قشوره . فاضاف الى الرز المقشور قليلاً من سكر اللبن (لاكتوس) علاوة على المواد الاخرى فكان نمو الجرذان طبيعياً . فقال ان في سكر اللبن عاملاً آخر خفياً من عوامل النمو لا غنى عنه . فخطر له ان يمتحن نقاء السكر الذي استعمله فوجد انه لم يكن نقياً كل النقاء وان في السائل الذي يستخرج السكر منه مادة خفية تؤثر في النمو . ذلك انه عندما اضاف هذا المحلول الى غذاء حمام مصاب بمرض (البولينوريتس) شفي من المرض فشأنه في ذلك نفس شأنه لو تغذى بالرز غير المقشور . فقال ما كولم ان هذا العامل الحيوي يدعى فيتامين B وانه يختلف عن فيتامين A في ان فيتامين A يذوب في الدهن وأما فيتامين B فيذوب في الماء وان كليهما لا غنى عنه للغذاء الكامل

وكان هذا الفيتامين اي فيتامين B هو هو فيتامين فونك الذي يشفي من مرض البريري أفضى اعلان ما كولم اكتشافه فيتامين B الذي بقي من «البولينوريتس» الى فهم كثير من الالغاز . فكل الفيتامينين لازم للنمو السوي . وهذا يفسر عدم نمو الجرذان التي اضيف الى غذائها النقي الزبدة النقية دون سكر اللبن . ذلك ان سكر اللبن كان يحتوي على فيتامين B . وهو يفسر كذلك لماذا نمت الجرذان نمواً طبيعياً في تجارب اوسبرن ومندل عند ما اضافا الى الغذاء لبناً اخرجت منه مادته البروتينية . لان هذا اللبن يحتوي على فيتامين B . وهو يفسر تجارب هيكز الانكليزي وما اصابه من نمو في الجرذان عند ما اضاف الى غذائها قليلاً من اللبن الكامل

لقد اتضحت مشكلة الفيتامين وقاعدتها الاساسية ان هناك وادلا غنى عنها للصحة والنمو توجد منها مقادير يسيرة جداً في بعض الاطعمة ، وقد كشف ما كولم مادتين منها ، فهل ثمة اخرى؟ (وهذا موضوع البحث القادم)

الجباية في الاسلام^(١)

لقارسي بك الحوري
رئيس مجلس النواب السوري

في عصر الامويين

كانت دولة العرب على عهد بني أمية في أوج عزها وعنفوان مجدها فكان العرب يمتنون الشعوب الاخرى ويستضعفونهم ويسمون غيرهم « الموالي » او « العلوج » ويحسبون ديارهم بستان قريش « ما شئنا اخذنا منه وما شئنا تركنا » فخرية الدولة العربية هي جيوب الرعية يتناولون منها ما شاؤا فكان العمال يقولون للناس « انما انتم خزنة لنا ان كثر غلينا كثر عليكم وان خفف عنا خففنا عنكم » وبهذه العقيدة ابتزوا اموال الناس بحق وبغير حق وكان الخراج مفروضاً على الاراضي بمقدار ما يزيد من غلتها عن حاجة الزراع فقط بحيث لا يترك للعامل الا ما يسد به عوزه الضروري ومع ذلك فان بعض العمال سولت لهم نفوسهم ان يستولوا على الغلة برمتها فكانت الشكاوى ترفع الى الخلفاء من جور العمال ونهمهم في الجباية فاذا كان الخليفة منصفاً انصفهم والا بقي الظلم سائداً والعسف مستفيضاً. من ذلك ما كتبه عبد الملك بن مروان الى الحجاج في امر اهل العراق ان « لا تكن على درهمك المأخوذ أحرص منك على درهمك المتروك وابق لهم لحوماً يعقدون بها شحوماً »

وكان للحجاج امثال كثيرون بين عمال الامويين في الظلم والجور وابتزاز الاموال بغير حق فزادوا في الجزية عن الحد الذي اقره الخلفاء الراشدون وخرجوا في الخراج عن النصاب المشروع وفرضوا على الناس الهدايا في الاعياد والافراح وتناولوا النقود بأقل من سعرها الراج وكانوا يخرصون الحاصلات اي يحزرون مقدارها ويخمنونها باكثر مما هي ويقومونها بالسعر الذي ينالون به ربحاً جزيلاً. وكثيراً ما كان الخلفاء يغمضون العين عن امثال هذه الافاعيل لحاجتهم الى المال ليلذلوه في كم الافواه وغل الايدي وارضاء الناقين والاتفاق في وجوه التبذير والبذخ

(١) من فصل في كتاب « علم المالية » يقوم بطبعه ونشره « مكتب النشر العربي بدمشق »

وأتصلت هذه الاعمال بالدور العباسي ايضاً حتى كتب ابو يوسف الى الرشيد يستنفره على العمال والحياة ويحرضه على الاقتصاص منهم لانهم « لا يحفظون ما يوكلون بحفظه ولا ينصفون من يعاملونه وانما مذهبهم اخذ شيء من الخراج او من اموال الرعية. ثم انهم يأخذون ذلك كله بالعرف والظلم والتعدي . ويقيمون اهل الخراج في الشمس ويضربونهم الضرب الشديد ويلقون عليهم الجرار ويقيدونهم بما يمنعهم من الصلاة وهذا عظيم عند الله شنيع في الاسلام » . كان من اسلم توضع عنه الجزية وينضم الى فريق المجاهدين يتناول الاعطية والافياء فيتحول ما في يده من الارض الى الباقيين من اهل قريته يحرثونه ويؤدون خراجهم فرغب الناس في الاسلام ليخلصوا من عسف العمال والحياة حتى قلّ مكافؤ الضرائب ولم يعد في حولهم تأدية الاموال المضروبة على قراهم فصار العمال يجبرون من اسلم ايضاً على العمل في الارض وتأدية خراجها ولم يعد الاسلام يعصم احداً فقلب الرغبة فيه وشكا الناس اعرهم الى عمر بن عبد العزيز الذي استن بسنة عمر بن الخطاب فكتب الى عماله « ان الله بعث محمداً هادياً ولم يبعثه جانياً » وأعاد الامور الى مجراها السابق من جهة اعفاء المسلمين

ليس لدينا ارقام يوثق بها عما كان يرد الى خزينة الخلافة في عصر الامويين وانما يؤخذ من اقوال المؤرخين ان متوسط ارتفاع جباية الشام نحو مليوني دينار وجباية مصر ثلاثة ملايين وجباية العراق عشرة ملايين وجباية البلاد الاخرى اكثر من خمسة ملايين فيكون المجموع اكثر من عشرين مليون دينار اي نحو عشرة ملايين جنيه انكليزي وهو المبلغ الذي يدخل في خزينة الخلافة فقط ما عدا الاموال التي تحتفظ بها العمال والحياة لانفسهم او ينفقونها في الامور المحلية وهي اضعاف مضاعفة عن الارتفاع الذي يبعثون به الى مقر الخلافة. وقد كان اكثر العمال يحشدون للملايين من الدراهم والدنانير بعد ما يبذخون به ويبذرونه من الاموال الطائلة حتى يهبجوا بسعة ثروتهم حسد الخلفاء ويغروهم بمحاسبتهم واستخراج المال المسكنوز منهم جرياً على سنة عمر بن الخطاب الذي كان يمنع عماله من الحشد والتوفير واذا وجد عند أحدهم مالا قاسمه اياه او استخلصه منه وشاعت هذه الطريقة في عهد الأمويين والعباسيين شيوعاً عظيماً

في العصر العباسي

ازدادت الجباية في عصر العباسيين بتوسع الفتوح وانتظام حال الدولة واشتراك الموالي في الحكم والادارة فان العرب لم يكونوا اهل جباية ودراية في الاصول المالية وتنظيم التكاليف والتنفقات وانما كان الموالي من الفرس والروم أعرق منهم وأطول باعاً في هذه الامور فعند ما بلغ بنو العباس مبلغهم من تفويض الدولة الأموية وولاية الأمر بنجدة الاماجم من اهل خراسان

امتدت أيدي هؤلاء الاعاجم الى السلطة والاشراك في الاعمال العامة حتى كادت تقضي على سيادة العرب وكانت أمور المال في جملة ما عني به هؤلاء الموالي لتكثير موارد الخزنة وتشديد شكة الدولة على النحو الذي كان جارياً في عهد كسرى

الخليفة العباسي الاول لم يتيسر له جمع كثير من المال لقصر مدته وجدة دولته ولكن المنصور بعده ضاقت خزائنه بالأموال الوافرة التي كانت تتسرب اليه من الأدنى والأقصى فأفق منها ما أنفق في سبل الصلاح والحاجة وترك بعد موته خزينة احتياطية فيها ما يربي على خمسين مليون دينار وأوصى ابنه قائلاً « قد جمعت لك من الاموال ما أن كسر عليك الخراج عشر سنين يكفيك لأرزاق الجنود وعطاء الذرية ومصلحة الثغور فاحتفظ بها فانك لا تزال عزيزاً مادام بيت مالك عامراً ». غير ان ابنه المهدي لم يأتمر بهذا الامر بل أسرف وبذخ فبدد ما جباه في زمانه وما خزنته له أبوه ولم يخلف شيئاً للهادي الذي تولى الأمر بعده كما ان هذا أيضاً لم يخلف شيئاً للرشيد الذي بذل المال بسخاء عظيم وفضل عنه عند موته أكثر مما فضل عن المنصور وقد جرى ملوك الاسلام على احتزان الاموال خلافاً للسنة التي استنها عمر بن الخطاب وبالغ المؤرخون في تعداد ما اجتمع في خزائن الخلفاء والملوك في الشرق والغرب فقل انه وجد في خزانة عبد الرحمن الناصر خليفة الاندلس المتوفى سنة ٣٥٠ هـ نحو عشرين مليون دينار مع ان جبايته السنوية لم تتجاوز ستة ملايين

منابع الحياة في العصر العباسي لم تختلف كثيراً عن منابها في العصر الأموي وسندكر شيئاً عن تفصيلها عند البحث في كتاب الخراج لأبي يوسف . اما مقاديرها فقد حفظ التاريخ ثلاث قوائم في تواريخ مختلفة جاء فيها مقدار الحياة في كل اقليم من أقاليم الدولة العباسية بحسب الارتفاع الذي كان يقدم لخزينة الخلافة

القائمة الأولى نقلها ابن خلدون في تاريخه وزعم انه استحوذ على أوراق رسمية من أيام المأمون اعتمد عليها في تدوين الدخل والخرج في عهد المأمون وليس ثمة مرجع رسمي لما قبل ذلك لاحتراق الديوان في عهد الأمين وضياح الوثائق وهذه القائمة تتضمن جباية احدى السنين بين سنة ٢٠٤ وسنة ٢١٠

والثانية قائمة قدامة بن جعفر المتوفى سنة ٣٣٧ للهجرة ويظهر انه كتب هذه القائمة في كتابه (الخراج) معتمداً فيها على ما وصلت يده اليه من الوثائق الرسمية عن جباية سنة ٢٢٥ في أيام المعتصم والثالثة قائمة ابن خرداذبه صاحب كتاب المسالك والممالك الذي أدخل فيه هذه القائمة حوالى سنة ٢٥٠ ولا يخفى ان الدولة العباسية اشتملت على جزيرة العرب بكاملها وبلاد الشام ومصر وأفريقيا الشمالية كلها الى بحر الاتلانتيك والعراق وبلاد فارس وما وراءها الى حدود الهند وأواسط آسيا الى الحدود الروسية وقسم كبيراً من بلاد آسيا الصغرى فكانت الحياة في عهد المأمون من

هذه الدولة الواسعة على رواية ابن خلدون تناهز أربعائة مليون درهم سنوياً وذلك يقارب ثلاثين مليون دينار ما عدا الحيوانات والعروض والسلع التي كانت تستوفى عيناً من الحلل النجراية والسكر وماء الورد والزيت والعود الهندى والبراذين والارقاء والاهليلج والعسل والبزاة والمناديل والاكسية والفرش وغيرها. اما مجموع الحياة في عهد المعتمد حوالي سنة ٢٢٥ بحسب قائمة قدامة بن جعفر فلم ينقص كثيراً عما كان في عهد المأمون وانما القائمة الثالثة التي احصت الارتفاعات حوالي سنة ٢٤٠ فقد نقص منها نحو ربعها ولم تبلغ ثلثائة مليون درهم . وليس لدينا بعد هذا التاريخ احصاء موثوق به عن ارتفاعات الحياة في الدولة العباسية وانما جرت على هبوط مستمر مع ضعف الدولة وافتساح بلادها بين امراء التتروالديلم والتركوسا والمغليين من الغزاة اذا قابلنا هذه الارقام بمعظم الحياة عند الدول الاخرى القديمة وجدنا ان خزان الخلفاء من العباسيين بلغت شأواً من الثروة تحسدها عليه اعظم الدول قدراً وأوسعها جاهاً فان ارتفاعات الدولة الرومية في عنفوان مجدها لم تتجاوز أربعائة مليون درهم . ومجموع حياة الفرس في ايام كسرى روز مجاوزت سبعائة مليون درهم غير ان هذا الرقم يشمل ما كان يحببه الحال وينفقونه في اعمالهم مع ما يرفعونه لخزينة الملك على قاعدة شمول الموازنة ولو تيسر لنا احصاء ذلك عند العرب لبلغت حياتهم اضعاف حياة الفرس

في عهد الراشدين لم تكن قاعدة تقبيل الحياة (تلزيمها) جارية في دولة العرب بل كان العامل يحجي الخراج والحزبة وينفق من حصائنها ما يلزم لادارة عمله ويرفع الفضلة الى خزينة الخليفة واذا لم تكفه حياته طلب ما يلزمه من الخليفة . ثم بدأ التقبيل في عهد بنى امية وازداد انتشاراً فكان وسيلة لاطلاق ايدي العمال بالعسف والارهاق وزادهم انبعاثاً في هذا الجور فقدان القوانين المالية الواجبة الاتباع في اصول الحياة فكان كل منهم مختاراً في استنباط الطرق ووضع التعاليم التي تضمن له حياة اوفر وحصيلة اكثر . ولم يكن هذا العنف والظلم الا معجلاً في تخريب البلاد وتقليل خراجها . خذ مثلاً على ذلك خراج مصر الذي جباه عمرو بن العاص على عهد ابن الخطاب اثني عشر مليون دينار وجاه عبد الله بن سعد في زمن عثمان اربعة عشر مليوناً فتدنى حتى وصل الى مليونين ونصف مليون في عهد المعتمد العباسي

ان اسماء الولايات التي اوردها قدامة بن جعفر في تقويمه لا تتفق تماماً مع الاسماء التي جاءت في تقويم ابن خلدون وتقوم ابن خرداذبه وذلك لانه لم يكن للولايات حدود ثابتة وعواصم مقرر بل كان يكثر اندماج عمليين او اكثر لعامل واحد وانتقال العاصمة من مدينة الى اخرى فيسمى العمل باسم عاصمته ويتبدل اسمه بتبدلها فيبينما نرى في التقويم الاول اسمين لعمليين مختلفين نراهما في التقويم الثاني اندمجا في عمل واحد وظهر باسم مدينة اخرى اتخذت

قاعدة للعمل الموحد . ومما يجدر بالذكر ان جدول قدامة خلا من ذكر برقة وافريقية مع ان ارتفاعهما في جدول ابن خلدون ورد باربعة عشر مليون درهم وكانت في عصر المعتصم باقية في طاعة العباسيين فاذا اضعنا هذا الرقم الى جدول قدامة تجاوز اربعمائة مليون درهم . وهذا يعدل بنقود هذه الايام ما يقرب من ثلثه عشر مليون جنيه انكليزي . واذا اخذنا قوة النقود الاشتراكية مقياساً لقيمتها وعلمنا ان اجور العمال واسعار الغذاء كانت في عهد المنصور نحو ثلث ما وصلت اليه قبل الحرب العامة تكون هذه الواردات معادلة لـ ٣٩ مليون جنيه انكليزي . اما وقد تضاعفت ايضاً هذه الاسعار منذ قبل الحرب الى الزمن الحاضر فتكون واردات خزينة المأمون او المعتصم معادلة لمبلغ ٧٨ مليون جنيه انكليزي في هذا الزمان وهي جباية عظيمة جداً كانت ترد الى الخزينة العامة من صوافي الخراج والجزية والعشور على انها في هذا الزمان قد تناولت مطارح لا تحصى وصارت التكاليف الاميرية تنحى عن عروض وسلع واعمال مثل رسوم المسكرات والتمتع والطوايع على امور كثيرة مما لم يكن له اثر في عهد العباسيين . كما ان واردات الدول الحاضرة تنفق جميعها في مصالح الدولة العامة فلا يبقى شيء منها والواردات المذكورة في زمن العباسيين هي فضلات الحياة المرفوعة لخزينة الخليفة الخاصة

وجوه الانفاق

بقي علينا ان ننظر في وجوه الانفاق هذه الاموال والاساليب التي يخرج فيها المال من بيت المال بعد دخوله اليه . في الدول الحاضرة لا ينفق قليل او كثير من الاموال العامة من دون معاملة قانونية تقي امر الاعطاء من التبعة . اما عند العرب وغيرهم من دول الاقدمين فلم يكن شيء من ذلك بل كان امر الاعطاء منحصراً بالخليفة في اموال خزينة الخلافة وبالعامل في اموال ولايته بغير ان يكون هذا الامر مقيداً بقانون او موازنة . فيبذل ويمنح ويكافىء ويحجز ويشترى ويبيع بحسب ما يحل عليه عقله وتقتضيه احواله ورغائبه . اللهم الا ما كان من قبيل الرواتب المقررة لاعوانه وحاشيته والنفقات المقدرة لجنده والاعطيات المعينة لسكره . وهذا الشطر من النفقات لم يكن في ايام السلم يستغرق الا جانباً من الواردات . ولدينا جدول عن الرواتب والاعطية اليومية عن سنة ٢٧٩ في خلافة المعتضد العباسي عندما تولى الاتفاق احمد ابن محمد الطائي فبلغ الخرج اليومي نحو سبعة آلاف دينار يدخل فيها ارزاق القواد وعلوفة الجند واجور الخدم والحشم ورواتب موظفي الدواوين وغيرها من النفقات المقررة فيكون الاتفاق السنوي في هذا الباب نحو مليونين ونصف مليون دينار وتبقى اموال الحياة الاخرى مرصدة في بيت المال على اجتهاد الخليفة ورأيه . ولم تكن هذه الارقام والوظائف جارية على شيء مما

نعرفه في العصر الحاضر تابعة لموازنة ثابتة وتشكيلات راسخة وانما كانت تتبدل بين سنة وسنة وبين خليفة وآخر بالغاء الوظائف واحداث غيرها وتخصيص رواتب وإبطال غيرها بلا قيد ولا شرط . فبينما نرى واحداً ينفق في هذه الوجوه عشرة ملايين دينار في السنة يجيء من بعده فلا ينفق مليوناً واحداً . وقد تدهورت الحياة مع تدهور الدولة العباسية فلم يعد الخلفاء يتمكنون من الاتفاق بالسخاء الكثير . ولدينا قائمة علي بن عيسى وزير المقتدر العباسي وضعها عن حياة الدولة ونفقاتها سنة ٣٠٦ ولم يكن وضعه اياها لاجل انشاء موازنة مالية للدولة وانما جاء بها ليدفع عن نفسه التهمة التي ألصقها به مزاحمه ابن الفرات بسبب العجز الذي ألم بيت المال في وزارته فبلغ الدخل في السنة المذكورة ١٢٩٠٤٠١٦٥٠ دينار

ومن ذلك ترى ان الحياة تزلت في هذا العصر الى اقل من نصف ما كانت عليه في عصر المأمون والمعتمد وظهرت ابواب جديدة للاتفاق وردت في جدول النفقات الذي اثبتته علي بن عيسى مثل نفقات الحرمين وطريقهما ورواتب القضاة في الممالك ورواتب ولاية الحسبة والمظالم ورواتب اصحاب البريد وزيادة رواتب الجند وعدده بحيث بلغ العجز في ميزانية تلك السنة اكثر من مليوني دينار . ومن جملة اسباب هذا العجز ترقى الرواتب من عصر الى عصر . فالخلفاء وأهل بيوتهم والعمال والوزراء والقضاة والقواد والجنود كانوا في بادىء الامر يتناولون رواتب صغيرة جداً فازدادت مع الايام حتى صارت أرقاماً عالية . من ذلك رواتب الخلفاء التي بدأ أبو بكر بفرضها على مقدار الكفاية مع الاقتصاد التام وبلغ جميع ما تناوله عمر في مدة خلافته كلها لنفقات بيته ونفسه الضرورية ثمانين ألف درهم حسبها سلفة وأوصى بوفائها من أموال آل الخطاب . ثم صارت هذه الرواتب تنمو حتى بلغت حداً فاحشاً وصار الخلفاء يقتنون الأموال والضياع لانفسهم ولاعضاء أسرهم واقربائهم من الرجال والنساء من الاسرة المالكة التي بلغت في عهد المأمون نحو ثلاثة وثلاثين ألف نفس يملكون الضياع والساكن والاقطاعات والنقود والرياش وتجري عليهم الارزاق من بيت المال بسخاء لا مزيد عليه . ومن ذلك رواتب القضاة فقد كان راتب القاضي في عهد الراشدين مائة درهم في الشهر ثم ارتقى حتى صار راتب قاضي مصر في عهد الامويين ألفاً ومائتي درهم . وجاء في جريدة المعتمد العباسي ان راتب القاضي خمسمائة دينار في الشهر ، وكانت دخول جبريل بن بختيشوع رئيس الاطباء في عهد الرشيد تناهز خمسة ملايين درهم في السنة يتناول منها من بيت مال العامة (١٨٠٦٠٠٠) ومن جيب الرشيد الخاصة (٤٢٠٦٠٠٠) ومن اصحاب الرشيد واهل بيته (٤٠٠٠٠٠) ومن البرامكة (٢٠٠٠٠٠٠) ومن غلة ضياعه (١٠٠٠٠٠٠٠) وعلى هذا المنوال ازدادت الرواتب والمخصصات وثقل عبؤها على بيت المال

الجغرافيا الحديثة

رسالتها وأغراضها

لمصطفى عامر

استاذ الجغرافيا في الجامعة المصرية



﴿رسالة الجغرافية الحديثة وأغراضها﴾ للجغرافيا كما لكل علم من العلوم رسالة تؤديها، وربما كانت رسالتها هذه أكثر اتصالاً بالإنسان من رسالة أي علم آخر. فهي لا تدرس، كما يحسب الكثيرون، الظواهر الطبيعية على سطح الأرض فحسب، بل هي تتناول كذلك دراسة الإنسان ومظاهر نشاطه، وتبحث في أثر البيئة في حياته، وأثره هو في البيئة التي ينشأ فيها. ومن هاتين الناحيتين، الناحية الطبيعية والناحية البشرية، أي دراسة المكان ودراسة الإنسان، يتكوّن علم الجغرافيا الحديث ولا يقتصر شأن دراسة الظواهر الطبيعية على تفسير بعض أسرار هذا الكوكب الذي نعيش فيه، بل هي تتعدّى ذلك إلى شرح طرق المعيشة وأساليب الحياة عند شعوب الأرض وجماعاتها، كل منها في بيئته الخاصة، وتوضح لنا كيف أن المسائل التي تواجه كلا منها، سواء اقتصادية كانت أم سياسية، هي إلى حد كبير متصلة بالاحوال الطبيعية المحيطة بها. فإذا عرفت الأمم المختلفة كل هذا، أمكنها أن تنظر بعين العطف إلى مشكلات جيرانها، وأن تتفاهم وتتعاون معهم على حل تلك المشكلات بما يلائم مصلحة الجميع. فيقل الاحتكاك بين الشعوب ويحل التفاهم محل الخصام، وتغلب المصلحة المشتركة على المصلحة الخاصة، وتصبح الحياة على سطح الأرض أسعد حالاً مما هي عليه الآن.

هذه هي الروح التي تبعثها الجغرافيا الحديثة في نفس كل من يتعلمها. فهي تؤمن بالوطنية المعتدلة لا بالوطنية الطائشة، وتدعو إلى التعاون بين شعوب الأرض لأنها أجزاء من الوحدة الأرضية الكبرى التي لا تقبل تجزئة، إذ لا يمكن لجزء منها أن يعيش عيشة مستقلة عن بقية أجزائها. وقد ساعد تطور وسائل النقل في العهد الأخير، كما ساعد التقدم الاقتصادي، على توثيق الرابطة بين الأمم، وأصبح كل ما يمس عضواً من أعضاء الجماعة البشرية يمس العضو الآخر، كما صار لكل حادث يحدث في ركن من أركان المعمورة صدّى في بقية أركانها. فمسائل الاتساج والاستقلال، ومسائل الاسواق والتوزيع ومسائل الهجرة والاستعمار،

كلها أصبحت مسائل عالمية، ولا يمكن حلها إلا بتفاهم أم الأرض اجمع والتوفيق بين مصالحها المشتبكة من أجل هذا كانت دراسة الجغرافيا ضرورية لكل شخص مثقف يرغب في فهم ما يجري حوله من حوادث ووزن الأمور بميزانها الصحيح، ولا سيما من يتصدى لمعالجة المسائل القومية والدولية. فالتجاهات الجغرافيا الحديثة، كما يرى القارىء، تختلف تماماً عن روح الجغرافيا القديمة بياناتها المطوّلة عن الرؤوس والخلجان، والبحار والأنهار، والسهول والوديان، والمسافات والأبعاد. على أنه من الغريب أن تبقى تلك الصورة البالية لعلم الجغرافيا شائعة بين أغلب المثقفين، ومنهم من يُعَدُّ من قادة الرأي وأساطين المعرفة. ولطالما سألني كثيرون، ومنهم بعض الزملاء الأفاضل في الجامعة نفسها، هل للجغرافيا شخصية مستقلة، تسوّغ وجودها كعلم خاص. فالجغرافيا عندهم مزيج من علوم مختلفة، إذ هي كما يقولون، تستمد بعض الحقائق من علوم الجيولوجيا والنتيورولوجيا والنبات والحيوان، كما أنها تتصل اتصالاً وثيقاً بعلمي الأنتروبولوجيا والاجتماع. وليس هناك زعم أبعد عن الحقيقة من تلك الآراء. أولاً لأن اتصال العلوم بعضها ببعض واعتماد كل منها على الآخر هو من الأمور المعترف بها في كل عصر وفي كل دراسة، وثانياً لأن الجغرافيا الحديثة وإن كانت تعتمد على بعض النتائج التي وصل إليها الباحثون في شتى العلوم، فإن اعتمادها هذا لا يتعدى الاستعانة بتلك النتائج في شرح وجهات النظر الجغرافية

ولقد سبق أن حدّدنا أغراض الجغرافيا في أنها تدرس الظواهر المختلفة المتصلة بالبيئة التي يعيش فيها الإنسان، كما أنها تدرس مظاهر نشاط الإنسان كنتيجة لتلك الظواهر. وهذا البحث لا يُعْنَى به علم آخر غير علم الجغرافيا. فالإنسان في هذا الكوكب يعيش في أقاليم متباينة أو متشابهة، يتميز بعضها عن بعض في أحوال سطحها ومناخها ونباتها، وهو موزع على سطح الأرض توزيعاً يتبع قواعد خاصة، وهو في بعض الجهات يزرع الأرض ويعيش على نتاجها، وفي جهات أخرى يعيش على الصيد أو الرعي، أو يشتغل بالصناعة أو التجارة. والإنسان عامل على تغيير وجه المعمورة بشتى الوسائل فهو يقطع الأحجار من محاجرها ويستخرج المعادن من باطنها، وهو يحفر الترع والآبار ويسوق ماء الري إلى جهات لم تكن تعرف غير الجفاف والجذب، وهو يشق الطرق ويحرق الجبال، ويقطع الأشجار من الغابات، ويردم البرك والمستنقعات، وهو يقوم بإنشاء المدن والموانئ، وإيجاد المواصلات السهلة السريعة بين بلاد الأرض وساكنيها. كل هذا يمثل بعض نواحي نشاط الإنسان على سطح الأرض، والجغرافيا تدرس كل تلك النواحي وتبحث في أسبابها ونتائجها، وجميعها يدخل في ميدانها وضمن دائرة نفوذها، ويسوّغ قيامها كعلم مستقل عن بقية العلوم

﴿ الدراسات الجغرافية في الجامعة المصرية ﴾ : أما وقد حددنا أغراض الجغرافيا وبيّنا رسالتها ، فيجب علينا ان ننقل الى بحث مقام هذا العلم بين الدراسات المختلفة في الجامعة المصرية . نشأت الجغرافيا نشأة محدودة ، فكانت عند قيام الجامعة في عام ١٩٢٥ تكون هي والتاريخ قسمًا واحدًا من أقسام كلية الآداب . وكانت الدراسة في هذا القسم واحدة في السنتين الاوليين ، ثم تفرع بعد ذلك الى فرعين ، أحدهما للتخصص في الجغرافيا والآخر في التاريخ . ولم يكن للجغرافيا في ذلك الوقت مكان خاص بها ، كما لم تكن لديها الادوات المختلفة التي يستعان بها عادة في تدريسها . وكانت الدروس تلقن باللغة الفرنسية ، مما حوّل جهود الطلبة من التحصيل العلمي الى العناية باللغة . غير أن هذه الحال لم تدم طويلاً ، ففي سنة ١٩٢٧ صارت اللغة العربية لغة التدريس ، وان كان قد بقي النظام السابق دون أن يلحقه تغيير أو تبديل . وفي سنة ١٩٣٠ نال قسم الجغرافيا استقلاله ، وأصبح قسمًا قائمًا بذاته ، وأخذ ينمو نموًا سريعاً ويزداد نشاطه وتتسع دائرة اعماله ، واتخذ له مكاناً فسيحاً يسمح بانشاء مكتبة جغرافية تحوي عدداً كبيراً من الكتب والمراجع الحديثة ، كما يسمح بانشاء متحف دراسي صغير ، وأبهاء للمحاضرات والدراسة العملية . ويدرس الآن في هذا القسم سبعون طالباً ، منهم طالب يستعد لدرجة دكتور في الآداب ، وستة ينتسبون الى قسم «الماجستير» والباقيون في دراسة «الليسانس» . وقد زاد عدد اعضاء هيئة التدريس فأصبح ستة اساتذة ومدرسين ، ثم مساعد يقوم بالاشراف على الناحية العملية من الدراسة كالمساحة والخرائط . اما التدريس فيتناول جميع فروع الجغرافيا الطبيعية والبشرية (وتشمل الناحية البشرية ، الجغرافيا الجنسية والاجتماعية والتاريخية والاقتصادية والسياسية والاقليمية) ، ويعنى القسم عناية خاصة بالدراسات الجغرافية الخاصة بمصر وحوض النيل ، وذلك من جميع النواحي التي ذكرناها . ويقوم القسم بتعويد طلابه البحث والدراسة الشخصية ، فهو يختار في بدء كل عام موضوعاً جغرافياً ، توزع اجزائه على الطلبة ، وهم يحاضرون فيه زملاءهم واساتذتهم بعد اعداده ، ويناقشون فيه بعد الانتهاء من القائه . ودروس البحث هذه ولو أنها مقتصرة على طلبة الليسانس الممتازين ، الا أن الكثيرين من الطلبة العاديين يأتون اليها بمحض رغبهم مستمعين ، وهي ظاهرة تدل على ميل واضح للتحصيل دون نظر الى اي اعتبار آخر . هذه كلمة موجزة عن النظام الحالي لقسم الجغرافيا ، وهو نظام لا نعتقد انه يقل شأنًا عن نظم اقسام الجغرافيا ومعاهدها التي نعرفها في الكثير من الجامعات الاجنبية ، وانه ليحقق لنا فعلاً ان نفخر بذلك كل الفخر . وللقسم صلات طيبة ببعض الجامعات الاوربية ، وقد نشأت تلك الصلات من العلاقات الشخصية بين الاساتذة المصريين واساتذة الجغرافية بتلك الجامعات . وقد ساعد هذا الجو في كثير من الاحيان على تسهيل مهمة بعثتنا الجغرافية الى الخارج

وعلى الخصوص الى بريطانيا العظمى وفرنسا . وقد سمحت جامعة لقربول كما سمحت جامعة مانشستر لخريجي قسم الجغرافيا بالتحضير للدرجات العالية مباشرة ، وذلك بعد أن تحققوا من أن المستوى الذي بلغته دراسة الجغرافيا في الجامعة المصرية لا يقل عن المستوى المعترف به في معاهدهم . وقد كانت الفية عند ما نبئت فكرة ارسال بعثة جغرافية الى بلاد اليمن ان تشترك جامعة مانشستر مع الجامعة المصرية في هذا العمل العلمي الجليل ، ولكن حال دون تنفيذ هذا المشروع على الوجه السابق قيام ظروف سياسية خاصة نشأت عن الحرب الايطالية الحبشية . على انما قد ذكرنا هذا المثل ليكون دليلاً آخر على ثقة الجامعات الاوربية بمعهدنا ورجاله

﴿ دائرة نشاط قسم الجغرافيا ﴾ : أما دائرة قسم الجغرافيا فتظهر في نواح شتى . فهناك أولاً ناحية تعريف النشء ببلادهم ، وهي تتمثل في الرحلات التي ينظمها القسم بين حين وآخر لأغراض جغرافية بحثية . وقد قام الطلبة والاساتذة برحلات مختلفة الى منخفض الفيوم وخليج السويس وشبه جزيرة سيناء والواحات الخارجية ، وهذا فضلاً عن الزيارات القصيرة لبعض الجهات في منطقة القاهرة وهي زيارات لا تستغرق في العادة أكثر من يوم واحد . ويكاد يكون من المسلم به أن من لا يعرف جغرافية بلاده ولا يعي تاريخها ، لا يمكن ان يكون وطنياً نافعاً لوطنه مفيداً لقومه ، كما أن من يجهل الحقائق الاولية لجغرافية العالم يكون محدود المعرفة والثقافة . ويكون حكمه على الحوادث والشؤون العالمية حكماً ناقصاً

ثم هناك ناحية النشاط التي تظهر في المحاضرات العامة ونشر المقالات العلمية والكتب الجغرافية ، ومحصول القسم من تلك الناحية محصول طيب اذا قيس بمحصول غيره من الاقسام . وقد ظهرت بعض ابحاث اساتذة القسم في المجلات المصرية كمجلة الجمعية الجغرافية الملكية ومجلة كلية الآداب ، وفي بعض المجلات الانجليزية والفرنسية كمجلة « الجغرافيا » التي تصدر بمانشستر ومجلة المعهد الانثروبولوجي الملكي بلوندره ، ومجلة « الانثروبولوجيا » الفرنسية . وقد طبعت الجامعة المصرية على نفقتهما مجلدين هامين يحويان نتائج البحث عن آثار عصر ما قبل التاريخ وهو البحث الذي يقوم به قسم الجغرافيا في جهة المعادي

كذلك اشترك القسم في المؤتمرات الجغرافية الدولية المختلفة منذ عام ١٩٢٨ ، وقد ألقى ممثلوه في كل مؤتمر من تلك المؤتمرات ابحاثاً جغرافية عن مصر . وقد اشترك القسم كذلك في عدة مؤتمرات اخرى منها المؤتمر الدولي للسكان والمؤتمر الدولي لعلوم ما قبل التاريخ والمؤتمر الدولي للعلوم الانثروبولوجية . ونجح قسم الجغرافيا في العام الماضي في تنظيم بعثة جغرافية لارتداد بلاد اليمن وحضرموت ودراسة احوالها الفيزيوجرافية والبحث عن ادلة تثبت سكنى الانسان فيها في عصر ما قبل التاريخ . وقد اشترك في تلك البعثة قسم اللغة العربية لدراسة اللهجات والنقوش القديمة ،

وقسمها الجيولوجية والحشرات بكلية العلوم ، وكان المشرف على البعثة أحد أعضاء هيئة التدريس بقسم الجغرافية ممن عرفوا بالجد والنشاط ، وقوة الملاحظة والولع بالبحث والدرس . وقد قضت البعثة في تلك البلاد زهاء ثمانية شهور ، جمعت في خلالها كثيراً من المعلومات القيمة ، وهي تشغل الآن بدرسها وفحصها تمهيداً لنشر نتائج بحوثها في الاوساط العلمية . هذا ولا يخفى ما لموقع إقليم اليمن من شأن كبير في دراسة الكثير من مسائل الجغرافيا الطبيعية والبشرية ، ولا سيما هجرات الشعوب القديمة واتقائها ، إذ اليمن حلقة اتصال هامة بين شرق افريقية وشبه جزيرة العرب وفي الناحية التعليمية ، يعنى قسم الجغرافيا عناية كبيرة بالسعي لتحسين تعليم الجغرافيا في المدارس المصرية . وقد اشركت وزارة المعارف بعض رجاله في وضع مناهج الجغرافيا الجديدة في مراحل التعليم المختلفة ، واتصل القسم في السنتين الاخيرتين بمدرسي الجغرافيا في مدارس القاهرة الثانوية ، ونظم لهم محاضرات خاصة في تلك المادة يحضرونها في اوقات فراغهم . والقسم على اتصال دائم بخريجيه الذين يشتغلون بالتدريس والذين أصبحوا منتشرين في كل ناحية من نواحي القطر المصري حتى الجهات النائية أمثال مرسى مطروح والواحات الخارجية . ونحن نرجو من وراء هذا الاتصال أن نصل بتدريس الجغرافيا إلى المستوى اللائق به ، وإن نشجع بعض المدرسين الممتازين على مواصلة أبحاثهم الشخصية في الجهات التي يقومون فيها بأعمالهم الرسمية .

﴿ حفاير قسم الجغرافيا في المعادي ﴾ : أما الحفاير التي يقوم بها قسم الجغرافيا للبحث عن آثار عصر ما قبل التاريخ في المعادي فيرجع عهدها الى عام ١٩٣٠ حينما بدأ أول موسم للحفر وأسفر عن نتائج علمية خطيرة لم تكن في الحسبان . ولربما كان من الجدير بنا هنا ان نشرح الظروف التي حدت بالقسم الى القيام بتلك الابحاث علاوة على ما لديه من اعمال . فمن الدراسات الجغرافية التي نغني بها دراسة الجغرافيا التاريخية ، وهي دراسة جديدة لم تكن معروفة عندنا من قبل ، والغرض منها تتبع الادوار المختلفة التي مرت فيها الحضارة المصرية منذ أن ظهر الانسان اول مرة في مصر ، وبحث الجنس او الاجناس البشرية التي تنتمي اليها ، والاحوال الجغرافية التي سادت في خلال كل دور من تلك الأدوار . فكما اننا ندرس الجغرافيا البشرية لمعرفة مظاهر نشاط الانسان الحالي وعلاقة ذلك بالبيئة الطبيعية التي يسكن فيها ، فالتا ندرس الجغرافيا التاريخية لمعرفة حياة الانسان واعماله منذ العصور الحجرية . وعلاقة ذلك بالظروف الفيزيوغرافية والمناخية والنباتية والحيوانية في تلك العصور . من أجل هذا كانت دراسة عصر ما قبل التاريخ ، وإن كانت متصلة بالناحية الاركيولوجية ، الا انها متصلة كذلك ، والى حد بعيد ، بالناحية الجغرافية . ومن هنا نشأ اهتمام الجغرافيين في كلية الآداب بدراسة عصر ما قبل التاريخ ، وبدأت رغبتهم تنجس الى فحص الجهات الأثرية القريبة من القاهرة والتي يرجع عهدها الى ذلك العصر حتى تسير الدراسة النظرية جنباً الى جنب مع التطبيق العملي

وقد وقع الاختيار فعلاً على الأكوام القائمة في الصحراء شرقي المعادي ، وحفرت الجامعة في تلك الجهة في خلال المواسم الستة السابقة (سنة ١٩٣٠ — سنة ١٩٣٦) ، وبلغت المساحة التي تم حفرها حوالي ثمانية أفدنة . وقد أدى هذا البحث الى الكشف عن حضارة جديدة من حضارات مصر في العصر السابق للتاريخ ، وهي حضارة لم يكن يعرف عنها شيء من قبل ، سكن أصحابها اقليم المعادي قبل قيام الأسرات ببضعة قرون ، وعاشوا بالزراعة وتربية الحيوان . وقد حذقوا صناعة الاسلحة الصوانية والآنية الفخارية والحجرية ، وعرفوا النحاس وصناعة الغزل والنساج ، وشيدوا أغلب مساكنهم من أغصان الاشجار والطين . وان كان البعض قد حفر كهوفاً عميقة في التربة الرملية ، واستخدم البعض الآخر الحجر والطوب في البناء ، وربما كان ذلك لأول مرة في شمال مصر . وقد جلبوا معدن النحاس والمالنجيز من سيناء ومادة القار (الاسفلت) وبعض السلع من فلسطين ، واتصلوا بالصعيد بوساطة النيل كما يتبين ذلك من دراسة بعض آثارهم

هذه هي اهم مظاهر الحضارة الجديدة التي كشف عنها قسم الجغرافيا في المعادي ، والتي أدّى كشفها الى القاء ضوء كثير على حياة الانسان في الدلتا في عصر ما قبل التاريخ ، وعلى علاقته بجيرانه سواء أكان ذلك في مصر أم في خارجها . وقد كانت كل معلوماتنا عن ذلك العصر تأتي من الصعيد ، ونسب الكثير من العلماء نشأة الحضارة المصرية الى الوجه القبلي . والمباحث الجديدة في المعادي وفي غرب الدلتا (حيث تعمل بعثة نمسوية) أظهرت ان الدلتا كانت دون شك أعرق حضارة وأعظم تقدماً وأكثر عمراناً من الصعيد . وقد ساعد على تقدمها هذا ثروتها الزراعية ومراعيها الغنية وموقعها الجغرافي الذي سهل اتصالها بالاقاليم المحيطة بها . ونحن اليوم نؤمن بان الحضارة المصرية هي وليدة البيئة المصرية وليست حضارة غريبة وصلت مصر من الخارج ، كما نؤمن ان تطور تلك الحضارة استمر منذ العصور الحجرية الى اليوم ، وقد حافظت تلك الحضارة على صبغتها المصرية على الرغم من الغزوات التي انتابت هذا البلد في اوقات مختلفة وقد كان من نتائج تلك الاعمال الموفقة في المعادي ان اخذت تتصل بقسم الجغرافيا بعض الهيئات الاوربية التي تعنى بدراسة عصر ما قبل التاريخ في مصر ، وتستعين به في بحوثها . فقد قام احد اعضاء هيئة التدريس فيها بدراسة مجموعة الآلات الصوانية التي جمعها البعثة البريطانية التي تقوم بالحفر في جهة أرمنت ، وكان له شرف كتابة جزء كبير من تقرير هذه البعثة ، كما اشترك في الابحاث التي تقوم بها بعثة بريطانية اخرى في اقليم الفيوم . وقد قدمت تلك البعثات الى متحف القسم بعض ما وجدته من آثار ، وفي هذا مكسب كبير للمجموعة الدراسية النفسية لعصر ما قبل التاريخ في مصر ، وهي المجموعة التي يعمل القسم على إعدادها وتنظيمها لتضاف الى متحف كلية الاداب في المستقبل

هذا دم بشري

الاسلوب برربع في تفريق دم عن دم
يعتمد عليه في المحاكم

ذهب رجلان الى الصيد معا ثم عاد احدهما ولقي الآخر حثفه في اثناء الصيد . فلما سئل رفيق الصيد في ذلك قال انه لقي جثة صديقه في حالة تدل على انه اصاب خطأ بقذف ناري . ودلت حوادث الفاجعة على ان روايته صحيحة . ولكن ارملة القتيل لم تقتنع بما قيل فطلبت اجراء البحث . وفي اثناء التحقيق سئل الرجل المشبوه ، عن بقع قاتمة على السترة التي كان يرتديها وهو في الصيد ، فقال انها بقع من دم إيئل اصطاده وجره الى المضرب الذي اقامه . فدعا وكيل النيابة كيميائياً حيوياً وطلب اليه ان يفحص هذه البقع وهل هي حقيقة بقايا من دم الايل

اخذ الكيميائي السترة وعاد بها الى المعمل واقتطع منها القطع التي عليها بقع الدم وغسها في محلول مالخ . ذلك ان التحقيق المطلوب منه كان يقتضي منه معرفة امرين : اولهما هل هذه البقع بقع دم وثانياً هل هي بقع دم ايل ؟

فللاجابة عن السؤال الاول ، اي لمعرفة هل هذه البقع بقع دم اطلاقاً ، عمد الباحث الى المجهر باحثاً في النقيع عن كريات الدم الحمر ، ولكن البقع كانت قديمة ، فالتحت الكريات وتلاشت ، اذا كانت كريات . ثم نظر في المحلول بوساطة المطياف فتبين الخطوط السود التي يمتاز بها طيف الدم فاستوثق من ان هذه البقع بقع دم حقيقة

بعد ذلك تقدم الى البحث في هل هذا الدم دم ايل كما يقول صاحب السترة ام هو دم آخر . فكيف يفعل ذلك ؟

يعرف قراء المقتطف ما يراد بلفظي « الاجسام المضادة » فهي اجسام دقيقة يولدها الجسم عندما تدخله مادة غريبة نستطيع انساجه فتفرز مواد كيميائية اطلق عليها اسم « اجسام مضادة » . فيصبح الجسم منيعاً لا تؤثر فيه تلك المادة زمناً يطول او يقصر . فالطبيب اذا شاء ان يحصن رجلاً ضد مرض الجدري حقنه بميكروبات المرض بعد اضعافها

فيثير وجودها انساجه فتنشط الى افراز المواد الكيميائية المعروفة باسم الاجسام المضادة وبذلك يصبح هذا الرجل منيعاً او محصناً ضد هذا المرض

وعمد الباحث في دم هذا المشبوه ، أجسام مضادة كذلك ، بل أنواع مختلفة منها . ولكنها يجب ان تكون رهن اشارته في القناني والانابيب ليتمكن من تجربة التجارب بها . فعليه ان يصنعها أولاً في دم بعض الحيوانات ، ثم يستخلصها منها ويعدّها للتجريب بها متى شاء وهو يتوسل الى غرضه هذا بالارانب فيأخذ منها طائفة مؤلفة من ٢٥ الى خمسين أرنباً ويقيم كلاً منها في قفص ويرقم كل قفص برقم ، ثم يحقن كلاً منها بقدر يسير من دم حيوان آخر ، فيثير وجود هذا الدم في دم الارنب انساج الجسم فتفرز المواد الكيميائية المعروفة باسم « أجسام مضادة » . فيحقن الارنب الاول بدم الفرس والثاني بدم الغزال والثالث بدم الحمار والرابع بدم الدجاج والخامس بدم الهر وهكذا

ثم عليه ان يستخرج هذه الاجسام المضادة المنوعة من دم الارنب ليحفظها في أنابيب خاصة فيستعملها حين شاء . فيحز شرياناً في أذن كل أرنب عولج بالطريقة المتقدمة ، ويجمع مقداراً من الدم السائل منه ، فيتركه في وعاء نظيف حتى يتخثر ، فينفصل مصبل الدم عن المواد الجامدة التي كانت معلقة فيه ، وتكون الاجسام المضادة في هذا المصل ، فيوضع كل مصبل في زجاجة وترقم الزجاجة برقم الارنب الذي استخرج المصل من دمه . فاذا كان الارنب رقم ١ هو الارنب المحصن ضد دم الفرس كانت الاجسام المضادة التي في زجاجة رقم ١ هي الاجسام التي تستعمل في امتتحان بقعة دم قيل فيها انها بقعة دم فرس وعلى ذلك تكون هذه المصبل المعدة للعمل ، ولكن قبل استعمالها يجب ان يستوثق من انها تحتوي على الاجسام المضادة . وليس ثمة عارق ظاهر بين مصبل يحتوي على أجسام مضادة وآخر لا يحتوي عليها . والاستيثاق من ذلك أسلوب بديع

تؤخذ عشرة حمالات للانابيب وتوضع متوازية ويوضع في كل حمالة منها عشرة أنابيب ويوضع في أنابيب الحمالة الاول مصبل دم أرنب محصن ضد دم الكلب . وفي أنابيب الثانية مصبل دم أرنب محصن ضد دم الدجاج وهكذا . والغرض ان نعرف هل كل مصبل من هذه المصبل العشرة يحتوي على الاجسام المضادة الخاصة

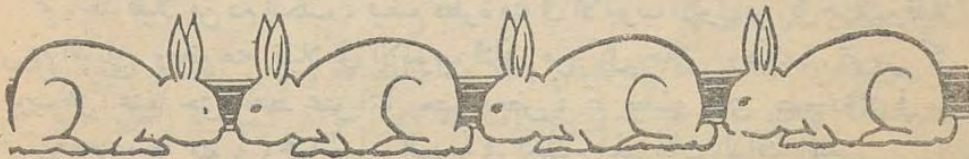
ثم يأخذ قليلاً من دم الكلب ، فيضع قطرة منه في الانبوب الاول من كل حمالة . وقليلاً من دم الدجاج ويضع منه قليلاً في الانبوب الثاني من كل حمالة . وهكذا . ثم يهز كل انبوب هزاً عنيفاً حتى تختلط محتوياتها بعضها ببعض ، ثم يغطسه مدى بضع دقائق في ماء حرارته ٣٧ درجة مئوية وهي الحرارة السوية في اجسام الحيوانات الدافئة الدم وبعد ذلك يشرع الباحث في فحص هذه الانابيب . والفحص غاية في الدقة ، لان اقل

خطأ يرتكبه قد يفضي الى اعدام برىء . ولكن الكيمياءيين المدربين لا يخطئون ، ولذلك لا تعتمد المحاكم في مثل هذه الشؤون الا على من استوثقت من كمال دربته ودقته فعندما يخرج الانايب من المغطس الساخن ، يرى في بعضها تغيراً اذ يشاهد راسب ابيض في الانبوب الاول من الصف الاول والثاني والثالث من الثالث

فعلى ما يدل ذلك ؟ قلنا ان المصل في الصف الاول كان مصل دم ارنب محصن ضد دم الكلب . وقلنا اننا اضفنا الى الانايب الاولى من الصفوف العشرة قطرات من دم الكلب . فلم يحدث الراسب الا في الانبوب الاول من الصف الاول

اي ان في مصل دم ارنب محصن ضد دم الكلب مواداً اذا اجتمعت بدم الكلب احدث راسباً . وهذه المواد هي الاجسام المضادة . فاذا لم يحدث ترسيب دل ذلك على ان الاجسام المضادة التي تحدث ترسيب مادة معينة غير موجودة . وهذا يعني ان مصل دم ارنب محصن ضد دم الكلب لا يحدث راسباً الا اذا اجتمع بدم الكلب . وان مصل دم ارنب محصن ضد دم بشري لا يحدث راسباً الا اذا اجتمع بدم بشري . وجميع هذه المعدات تعد مقدماً وليس على الكيمياءوي الا القيام بمراتب الامتحان الاخيرة عندما تطلب اليه المحكمة ذلك

لنعد الآن الى قصتنا وقصيتنا . عاد الكيمياءوي الى معمله وقطع قطع النسيج الملطخة ببقع الدم وأثبت انها دم اولاً ثم حاول ان يعرف هل هي دم ايل كما يدعي صاحب السترة او لا . فأعد انوباً وضع فيه مصل دم ارنب محصن ضد دم الايل واطاف اليه قليلاً من المحلول المالح الذي يحتوي على تقييع الدم الذي على السترة ، فلم يحدث اي ترسيب فكان ذلك قطعاً بان الدم الذي على السترة ليس دم ايل . ولعله دم ديك . فأخذ انوباً ووضع فيه مصل دم ارنب محصن ضد دم الديك واطاف اليه قليلاً من المحلول المالح المحتوي على تقييع الدم فلم يحدث ترسيب فكان ذلك قطعاً بان الدم على السترة ليس دم ديك . فلما وضع في انوبه قليلاً من مصل دم ارنب محصن ضد دم بشري واطاف اليه قليلاً من المحلول المالح المحتوي على تقييع الدم الذي على السترة حصل الترسيب فثبت ان الدم على السترة كان دماً بشرياً



الزهاوي

في ديوانه الاخير — تحية ذكراه الاولى

لا صحر محمد عبسي^(١)

— ١ —

« الأوشال » هو أحدث دواوين الزهاوي وأوضحها مقصداً وأصدقها اتجاهات وأقننها وأكثرها معنى وأظهرها على الاطلاق . أبان عن شخصيته أيما ابانة وكشف ما استتر منها بوضوح وجللاء ، تغلب عليه لغة العلم الجافة التي لا تصالح كثيراً للشعر والتي فيها من التداني والتدلي ما يسقربها من الارض — ووالله ما عرفت الشعر يوماً إلا في السماء !!

وهو — الأوشال — كأخوته دواوين الزهاوي فيه من الايمان آيات بينات ومن التحرر ضلالات وترهات ومن اليقين حسنات طيبات ومن الشك شبهات وزغات ومن الفرح نعمات وصدحات ومن البكاء عبرات وزفرات ومن الربيع ورود وبقايات ومن الحريف زوابع ونسمات ومن المنطق غدوات وأمسيات ومن التمرد صرخات ووثبات . فيه من البحر أواذي مصططحات ومن الأوشال حفات قليلات ومن اللذة سرور ونشوات ومن الألم إغوال وحسرات . فيه من الشباب صبوات وجهالات ومن الشيخوخة كبوات وشهقات ، فيه من الفجر أنوار وانبلاجات ومن الليل غشيات وظلمات . فيه ما يمتع الفنان وما يتعشقه من سحر وروعة وما ينشده العالم من قياس ومنطق وما يتطلبه الفيلسوف من استشفاف للغيب وارتياذ للمجاهل قضايا الكون المجهول منها والمعلوم

— ٢ —

ليس لك يا صاحبي أن تقرأ ديواناً من دواوين الزهاوي إلا بعد أن تقرأ رسائله العلمية التي أودعها خلاصة آرائه ومذاهبه في الكون والحياة . ذلك لأنها بمنزلة الشرح والتفسير لشعره في مختلف أطواره وجدير بك أن تتحرر كثيراً وتتحصن وراء ثقافة علمية ومعلومات رياضية عالية قبل البدء في قراءة ذلك الرجل ومذهبه في الشعر ذلك المذهب العجيب ، حتى

(١) — أحد فصول كتابنا « جميل صدقي الزهاوي » الذي لم يطبع بعد

لا تغرنك سهولة ذلك الشعر وسذاجة ألفاظه ووداعها فان وراء الأكمة ما وراءها ووراء تلك الالفاظ السهلة معانٍ بعيدة الغور وفلسفة للكون من العجب بمكان مبنية على استنتاجات منطقية وقوانين رياضية محتومة لا مفر منها ، حتى لا تظلم ولا تظلم وتكون في حكمك على هذا الرجل من الصائين

افتتح الديوان بمقدمة أجمل فيها رأيها في الشعر وأبان عن وجهة نظره وأنه ذلك الطائر الغرد الذي يستوحى الطبيعة وجمالها ويفرد غير آبه بالقيود والاصفاد حاملاً رسالة التجديد والانشاء لآبناء الراقيين . ولا يعترف في مقدمته بالعاطفة التي هي قوام الشعر الصحيح ، وقد جرّه ذلك الى مشا كل حجة مع نقاده — وسننبه كنهه في موضعه من الكتاب — ولا يحسب الشعر شعراً الا اذا كان لحنه وسداه مسائل العلم كشعراء الغرب في هذه الايام على حد قوله ، واروع الشعر عنده ما كان علمياً فلسفياً « ولم يشتهر الخيام والمتنبي والمعري الا بشعرهم الفلسفي وهو الذي يجري على اللسان كالامثال » . ولنا رد على ذلك في حينه لاننا من مخالفي هذا المذهب ، وقد عرف الشاعر وقال انه لا يكون شاعراً الا اذا توفرت فيه ثلاث « الاول ان يكون له استعداد ذاتي للشعر والثاني ان تغزر مادته في اللغة والعلم والثالث ان يكون قد مارسه طويلاً » الخ

وهذا كلام لا غبار عليه غير انه ينقصه شيء من التحديد والتعريف . فكل شعور يقسم لك اغلظ الايمان انه اوتي ملكة الشعر وانه يرى في نفسه القدرة على صوغ قلائده الجميلة بله على ارتجال عيونه ! ! ولكن العبرة بروح الشعر روح الجمال والحب والحقيقة ذلك الروح المنطلق في الآفاق العالية والاغوار البعيدة النائية والاجواء العاطرة الساحرة المجهولة البقاع لنترك هذا التعريف — تعريف الشعر والشاعر — فله مكانه من الكتاب ، ونعود الى المقدمة هذه فنجد انها لا تقع غلة ولا تشفي غلة وياليتها شرحت لنا معميات شعره وأبانت عن مذاهبه الفلسفية بعض الشيء ووضحتها كبلج الصبح ، كما يجب ان يكون الوضوح والبيان

— ٣ —

شعر هذا الديوان من الشعر الجديد لا مشاحة غير انه يشوبه بعض قصائد من المديح والثناء ولولا انها بريئة ولشخصيات تستحق التقدير لشنت الغارة عليه وعلى ذكر هذا الشعر شعر المناسبات — نذكر حسناته — ان كانت له حسنات — احقاقاً للحق رغم تحاملنا عليه وازدراءنا له ، فنحن حسناته عند القدامى تلك الحكم العائرة والواصف الباهرة التي زفها أمثال المتنبي والنواصي والبحري بين ثنايا قصائدهم الى ممدوحهم ووالله لا أدري متى تجرؤ مدارسنا الشعرية الحديثة على حذف المدح من تلك القصائد وهاته

المقطوعات كي نُقبل على هذا الشعر بشغف لا يقل عن أقبالنا وشغفنا بالشعر الغربي أو الشعر الحديث في العالم العربي

ومن حسنات شعر الزهاوي — رثاء ومدحاً في ذلك الديوان وفي غيره ، رسمه صوراً مختلفة لصورته وشخصيته ونفسيته وأمانيه وآماله بجانب شخصياته ، وانها لحسنة فضلى نسطرها له بمداد الإعجاب. وحسنة أخرى كبرى نسطرها له بمداد الفخر والاشادة بذلك الشاعر الفحل ، الذي لم يمتن كرامة الشعر والشاعر ويتجر بشعره ويتزلف به الى اولى الامر او الملوك والامراء على الاقل ، الذي حقق ان الشاعر بمثابة ملك غير متوج وحقق أيضاً — عملياً — نظريتنا المتضمنة عدم الاعتراف بشعر الرثاء والمدح لعدم صدقه وروعته وانسانيته في معظم الاحايين. فقد أثر المغفور له الملك فيصل عقب تويجه ان يجعل من المرحوم الزهاوي شاعره الخاص مقابل مكافآت مالية لامقطوعة ولا ممنوعة لفقره وعوزة يومئذ. فرفض بأباء وشتم ان يكون — طيلة حياته — «العصفور السجين الذي تلقى اليه الحبات في قفصه الصغير ليعيش ويغرد مكرهاً وبنوح مكرهاً» فألح عليه المغفور له الملك فيصل ان لا يخالفه في مسألة كهذه — وما اراد جلالته بهذا غير سد عوزة وفقره يومئذ لما يعلمه عن صلابته ومبلغ اعتداده بنفسه — فلم يترشح عن رايه قيد أنملة قائلاً له « ان مدحك يا مولاي فرض علي اذا ما ومضت بارقة امل للوطن العزيز في عهدك السعيد . اما الذهب يا مولاي فلا حاجة للشعر به لانه ان يجمد تاجه الجميل » . . .

— ٤ —

يطالعك هذا الديوان بقصيدة فلسفية عنوانها « منك انا » ومطلعها

يا روح هذه الدنيا شرادة منك أنا

قد استطارت تبغني لنفسها ان تعلقنا

ان بصيصي كله من بعض ذلك السنا

انك انت الكون والذي له قد كوّننا

فيغرنك هذا المطلع وتحسب ان ذلك كلام لا شية فيه واذا بك تنحدر الى فلسفة غريبة فيها منطق واضطراب وشك وايمان وتحرر من الايمان — الايمان الذي لا يسلم به العقل ويقف حجر عثرة في سبيل تحقيقه — وفيها تراءى فلسفة الرجل وعقيدته ، فهو هنا يؤمن بمذهب الدور — التغيير — ذلك المذهب القديم الذي انفرد به هو في العصر الحديث وكاد يضع اصوله والذي يقول فيه انا سنموت هنا ونحيا هناك ، نموت هنا بصورة ونحيا هناك بصورة اخرى فلا فناء ولا عدم ونظل هكذا دواليك الى ما شاء الله ابد الابدين . وهذا المذهب لا يقرب من

مذهب الحلول كما يفهم بعضهم اذ الاول مبني على قوانين علمية اما الثاني فمسائله افتراضية محضة قاله بعض المتصوفين في حالات غيبية بحتة شاهدوا في خلالها بصفاء ارواحهم كثيراً من غوامض الكون واسرارهِ العجيبة فانطلقوا غير واعين لما يقولون . وقد فصل الزهاوي مذهب « الدور » هذا في رسالته العلمية الصغيرة « المجمل مما أرى » وسنفضلهُ وزد عليه بدورنا في مكانه من الكتاب . انظر اليه يخاطب هذه الروح التي تمثلها في قصيدته مسيطرة امرأة

منك انبثقت بعدما	فيك كمنت ازمنة
فكنت طوراً خافياً	وكنت طوراً يتنا
وسوف ابقى بك من	بعد الردى مرتهنا
وليس موّتي غير تغيير	يَ فيك السكنا
وليس في انتقالتي	منك اليك من عنا
فلا انفصال عنك لي	هناك كنت ام هنا

يقول ذلك في الوقت الذي لا يصدق فيه الاساطير والمعتقدات بأسلوب تهكمي لاذع وبهقل متشكك حبار متحرر لا يعبأ الا بالمنطق والمادة وما يتبعهما من قوانين واحكام فهو لا يؤمن الا بتلك الومضات الكهربائية التي تنبثق من تفاعل المادة تلك التي يعزو اليها تنسيق الكون بما بعثته من حياة في هذه الاحياء وانها ذلك الينبوع الذي يثرُ عليه السحاب ماء فلا ينضب وسيظل باقياً ما بقي ذلك السحاب عند قوله

الى ان يقول	الكون قد بنيت	وانت خير من بنا	ان الحياة ومضة	منك ابت ان تكفنا
بك الوجود واجب	فليس يقبل الفنا	وليس كون ماله	من اول مكوّنا	

وهو هنا على ما يلوح لي يخاطب المادة او بعبارة اخرى يخاطب الاثير وهذا هو الصحيح . فالاثير عنده هو كل شيء ، وهو هنا يفترض الاثير كأداة خالقة مسيطرة وان كان الاثير كما نعتقد ليست له تلك القوة الفعالة القادرة التي ينسب اليها الزهاوي كل شيء في حين انها هي بعض الشيء وعلى حد قول العلماء المعاصرين « ليس الاثير غير افتراض علمي لتفسير بعض مظاهر الكون العجيبة » وانه — اي الاثير — بعد تجربة ميكلسن — مورلي وأضرابهما من العلماء المعاصرين فقد سحره القديم ومكانته التي كان عليها ولنا كلام طويل عن الاثير للحين الكبير الذي شغله في حياة الزهاوي العلمية سنثبتهُ في مكانه من الكتاب . ونعود نحدثك عن ذلك الروح الذي عناء في ذلك القصيد فما هو الا الاثير وما الاثير عنده غير ما اثبتتهُ

أحدى مقطوعات ملامحته الخالدة « ثورة في الجحيم » التي سيأتيك ذكرها في هذه الايات الاربعة عندما سأله الملاك عن الذات الانسية

ما لكل الاكوان الا الله واحد لا يزول وهو (الاثير)
منه هذا الوجود فاض عمماً واليه بعد البوار يصير
ليس بين « الاثير » والله فرق في سوى اللفظ ان هداك الشعور
وبحسبي اني صدعت بما ادري على علمي انه سيضير

ومن تحقيقاتي العلمية مع المرحوم الزهاوي تجد انه في تحليلاته لمظاهر الكون لا يخرج عن دائرة المذهب المادي الذي يؤمن به ويتعصب له ولا ضير عليه في ذلك لولا انه تبعاً لذلك يثير في هذا الموضوع وفي غيره قضية من اكبر القضايا الفلسفية « اصل الحياة » و « غاية الحياة » ويعزو الى المادة كل شيء في حين ان الماديين انفسهم بعد النشاط العجيب الذي ابدوه طوال قرون عديدة قد تقهقر دعائهم في مستهل هذا القرن واعترفوا بعجزهم المطلق عن تفسير بعض عجائب الكون ومظاهره وفي هذا ما يخذله — ان لم يهدمه — غير أنهم لم ينسحبوا من الميدان بعد ولم يكفوا ايديهم الا ان دعواهم اصابها الفتور والعياء الى حد كبير . .

وسنرد عليهم ونبين هذا المذهب ومدى تأثيره عند الزهاوي فيما سأطالعك به من فصول اثبتها في كتابي عنه ولا استطيع قولاً في هذا المجال اليوم، الا ان الفلاسفة والعلماء طوال هاته القرون من عهد الانسانية الى اليوم سعاة في اماطة اللثام عن هاته الحقيقة الكبرى ولم تعلن الفاصلة بعد كنا نريد ان نمر كراماً على هذه القصيدة وما يشابهها فان للرجل تفكيره ومنطقه الخاص وقد أودع خلاصة آرائه في رسائله العلمية وناقشنا فيها وفي معتقداته وانتهينا من ذلك كله الا ان للحقيقة حرمة وللتاريخ حكماً، ونرى ان تلك الآراء رغم طابعها العلمي لم تحقق علمياً ولذا تناقشنا في مكانها وزد عليها رداً هادئاً يدحضها — في رأينا — من أساسها ويجب ان لا يختلط عليك الأمر يا صاحبي فتعتقد أننا نرفض الشعر الفلسفي او الشعر العلمي كلا بل بالعكس نعتقد أننا في حاجة ماسة الى شعراء علماء فلاسفة ! ! علماء يسبحون في أجواء الكون ويقصون علينا رحلاتهم ويخلقون لنا جوّاً عطراً عبق الشذى فواح العبير لا يقصون مشاهد العلم فحسب ، بل يقصون مشاهد الطبيعة ومشاهد الجمال ومشاهد الحب بعاطفة من الشعر الجميل ويفوصون الى الاعماق باحثين عن الدر والذهب غير متناسين جمال البحر وسحره الرائع العجيب ، ثم يعرجون الى معارج الافلاك المتناثرة فيضعوا اصابعهم فوق الحقيقة المطلقة ويعلموا الناس معنى الحياة ومعنى الخلود . . . وعندي أن الشاعر الفحل هو الذي لا ينسى الحب والجمال والعاطفة في قصائده العلمية والفلسفية ، حتى اذا فقد العلم أو أغفلته الفلاسفة يوماً ما لا يضع

هباء ، وكذلك الشاعر الناشد الحب والخير والجمال يعوزه العلم الغزير والمعرفة الشاملة والثقافة
الدسمة حتى لا تقف أفكاره وأخيلته بجانب أفكار السوق وخيالهم
أما الشاعر الفرد فهو ذلك العالم الفيلسوف المتعني دائماً بأناشيد الحب وأهازيج الجمال

— ٥ —

إيمان الرجل بالمذهب المادي مما لا ريب فيه ، وهذا المذهب من أعرق المذاهب الفلسفية
القديمة - وسند عليه في حينه كما أسلفنا - غير أننا لا نرى مندوحة عن مناقشة بعض قصائده التي أودعها
ناحية من إيمانه ونكتفي بمناقشة القصائد وتحليلها تاركين نقد معظم التراكيب والألفاظ لفرصة
أخرى . ففي قصيدته (الشاكية) التي مطلعها

بعد أن اردى فأهبط رمسي يتساوى غدي ويومي وأمسي
جدث فيه كل دهري ليل ما لاضواء فخره من بحس
ظلمة فوق ظلمة أنا فيها ابدأ مصبح كما أنا ممسي

تشم رائحة إيمان الرجل وسخره بالمعتقدات الفاشية في منطق عجيب ينكر ما اجتمع عليه الناس
ويهدم آمال العامة جمعاء - ولا غرو فهذا هو لباب المذهب المادي - داعياً في الوقت نفسه الى
الاستمتاع بطايب الحياة ومباهجها قبل أن تأزف ساعة الرحيل الذي ليس له من بعده من نشور

أما الدنيا جنة لسعيد وجحيم لذي شقاء وبؤس
لك فيها الحياة ما طبت عيشاً كل شيء فلا تبعها ببخس
وكلها على هذا النسق الايقوري وليس فيها من جديد غير قوله

ما نظمت القريض الا بالله ما جديد من السماء لنفسي
قبسوه من قول من سبقوهم ومن الشمس والكواكب قبسي
وقصيدته (نظرات ونزغات) التي مطلعها

نأى بي عن الاصحاب في سيره العمر ويرجع أحياناً اليهم بي الذكر
كشقيقتها - الشاكية - تبين ما استر من عقيدة الرجل

ألا إنما الأرض التي نحن فوقها هي المهد للابناء ثم هي القبر
وإن شئت فأحمد هاوان شئت فأهجا فليس بذي بال عقوفك والبر
إلى أن يقول : يقولون في الإيمان كل نجاة ويارب إيمان قوي هو الكفر
وينتظرون الفجر في ليل قبرهم ولكن ليال القبر ليس لها فجر

وثالثة الأثافي قصيدته (الموت) التي لولا الاستشهاد بها لما ذكرتها ذلك لأنها فوق حملها
الموت في طياتها مهلهلة الأسلوب مفككة الاوصال سقيمة المعنى ومطلعها

زأغت زول الحياة فتنتهي الحركات

اهوى الحياة ولكن ما للحياة ثبات

وانها حقاً زأغت منها الحياة فقضت نجحها من غير دمة رثاء او كلمة عزاء ، انظر اليها في الديوان تجد فيها قد وصف الموت والاموات وخاف الموت خوف الشاة الذئب وقطع اتنا بالموت نودع الآمال وننتهي وينتهي معنا كل شيء وفي القبور يتساوى الجميع لافرق بين احد وهذا كلام لا غبار عليه ... ولكن ... وما اقسى ولكن هذه ... تلك الكلمة التي يرد بها

الناقد الزبده الحق الى نصابه ... اين منه قول المعري « غير مجد في ملتي واعدادي »

فلمعري قد تصوّف وتأمّل وفكر .. ونظر الى الكون نظرة الفيلسوف الشاعر فأبدع في تصوير الحقائق الشعرية وفي تصوير الحقائق المادية وكانت قصيدته فتحة جديدة في الشعر الفلسفي المزوج بالعاطفة ذلك الذي تتوق اليه ونشده وكأنا ننشد العنقاء واخويها

اما (الموت) عند الرجل نخال من كل شيء خال من العاطفة التي حيكت حوله من ملايين السنين اي من مهد الانسانية الى اليوم ، خال من الروح التي ليس لنا ان نتخلى عنها قيد شعرة مها تخلت عنا ، خال من الحلم الجميل الحلم الذي يجب لنا الحياة

ولا هم له غير تمجيد الحياة تمجيد عبادة في الوقت الذي ينكر فيه البقاء بعد الموت — الخلود — والبقاء بعد الموت حلم من احلام الانسانية العذاب ، ونحن نتشبث به لان الانسانية لواقفتها لشقيت طويلاً واخذل التوازن الاجتماعي وعمت الفوضى ارجاء الارض قاطبة وما اغنت القوانين الوضعية قليلاً في كبح جماح الغرائز البشرية التي تعتمد — في جميع اطوارها — على الهدم قبل البناء . وهذه في الواقع — انكار البقاء بعد الموت — اهم شعب المذهب المادي ، ولنا كلام طويل للرد عليها سنثبت في حينه وليس لنا في هذا المقام من عزاء تنعزى به غير قول الشاعر « ما ضيق العيش لولا فسحة الامل »

— ٦ —

أهم ظاهرة في شعر الرجل وفلسفته — بل خير ظاهرة في فلسفته وشعره — التمرد والثورة ، التمرد على الطغاة والظالمين والمنافقين والمتسفين والجهلاء والمتكبرين ، الثورة على الجمود والجهل ، والضعف ، ضعف الشرق واستكانته لما تحيّفه من ظلم وينزل به من بلاء ، الثورة التي تنشلنا من وهدتنا هذه الى الحق والحرية والنور . وخير شيء عند الرجل يمثل فلسفته ويظهرها بطابعها الخاص « القوة » التي لا تعباً بالسدود ولا بالقوى مجتمعة ، القوة التي تريد التحرر والانطلاق الى رحاب الارض بما وسعت وآفاق السماء بما اتسعت ، فيقدر بساطة أسلوبه ووداعته تجد قوته في معانيه هذه المعتدة بنفسها الشاحخة بأنفها تروعك بكبريائها وتحملك على أجنحتها الى طريق المجد الذي عبّده لنا الاجداد

« البقية في مكتبة المقتطف »

أتدري ؟ !

أتدري الطير هَيْمانا ؟ أتدري القلبَ وَلهَمانا ؟
 أتدري الفصن دَاعِبَةً نَسِمْ عابِثُ آنا ؟
 أتدري الورد مَحْالاً وبين الزهر نشوانا ؟
 أتدري الحُسْن مؤْتَلِفاً بِثوب السَّحَرُ مزداناً ؟
 أتدري البدر غفلاًنا ؟ أتدري البدر يقظاناً ؟
 وعين النجم سَاهِرَةٌ لتشكو منه هجراناً !
 أتدري الكون في ليلٍ عليه الصَّمْتُ قد رانا ؟
 وتهمس فيه ارواحٌ فَا تَسْطِيعُ تِبياناً
 أتدري الفجر اذ يسري بجَفَنِ الرّوضِ وسنانا ؟
 أتدري الفجر بَسَّاماً ؟ أتدري الفجر فنانا ؟
 أتدري ؟ كيف لم تدر ؟ ! وصفتُ الآنَ... «فَناناً»...

محمد فرهمي

القاهرة

أين تبدأ الحياة ؟

سر « الفيروس »

وصلته بسر الحياة

تطلق كلمة « الفيروس » Virus في اللغات الالمانية على كائن خفيّ تسند اليه بعض الامراض ولكن لا يعرف له قوام معين لانه من المواد الراشحة التي تجتاز أدق المرشحات مسام ، وقد انقضت أربعون سنة منذ عرف ، فاتجه النظر اليه لانه في رأي بعضهم من أبسط المواد الحية تركيباً الدكتور وندل ستانلي ، كيميائي حيوي . تخرج من جامعة ايلينوي وندب من قبل مجلس البحث القومي لدراسة المركبات الجذامية في المانيا . ثم عاد الى معهد ركفلر سنة ١٩٣١ وفي السنة التي تليها أنشأ المعهد فرعاً في نيوجرسي فذهب اليه ستانلي وجلّهم متجه إلى «الفيروس» وطبيعة الفيروس من المشكلات الاساسية في علم الباتولوجية . فشال الاطفال والانفلونزا وحُمى البقان والسعار والحُمى الصفراء وبعض النواحي الخبيثة تحدثها على ما يظهر مواد ليست بالجراثيم اي الميكروبات هي ما يطلق عليه اسم فيروس . فالبحث في طبيعة هذه المواد ، ناحية كبيرة الشأن من نواحي البحث الطبي . وقد عني الباتولوجيون والبيولوجيون بدراسة الفيروس من وجوه الباتولوجية والبيولوجية . ولكن عهد الى ستانلي في دراسته من الناحية الكيميائية ، اي عهد اليه في استطلاع طلع الفيروس وما هو بالقياس الى الجزيئات العضوية ، وما هي هذه الجزيئات وما خواصها وما الذرات التي تتألف منها .

وقد اختار لبحثه اقدم المواد الفيروسية المعروفة وهي فيروس آفة تصيب ورق التبغ وتعرف باسم «آفة الفسيفساء» . ان زراع التبغ يخشون هذه الآفة ، لانه اذا اصبحت نبتة واحدة بها ، امتدت العدوى على الغالب الى جميع النباتات في الارض المزروعة ، فتذويها وتضعفها وتجعد اوراقها بعد ان تتبقع الاوراق تبعاً يشبه الفسيفساء ومن هنا اسم الآفة

لما وصفت هذه الآفة اولاً في سنة ١٨٥٧ خلط بينها وبين آفة اخرى تشبهها في بعض مظاهرها بعض الشبه ، ولم يفرق النباتيون بين الآفتين الا سنة ١٨٩٢ ، ويمرّز هذا التفريق

الى باحث روسي يدعى ايثانوفسكي ، ادهش بكتريولوجي ذلك العهد بقوله ان العصارة المستخلصة من نبات التبغ المصاب بآفة الفسيفساء تبقى قادرة على احداث المرض حتى بعد ترشيحها بمرشح تشمبرلند ، وهو جهاز من خزف دقيق المسام جداً ، بحيث اذا وضعت فيه كوبتين من الماء المقطر ، يستغرق مرور هذا الماء من مسام المرشح اياماً . ولم يكن ثمة ميكروب واحد معروف للعلماء يستطيع ان يجتاز هذه المسام . ومع ذلك فالمادة الفعالة التي تحدث « آفة الفسيفساء » تجتازها . فوالى العلماء التجارب فأسفرت عن تأييد النتائج التي خلص اليها ايثانوفسكي . وفي سنة ١٨٩٩ اكتشفت اولى المواد الفعالة الراشحة التي تحدث مرضاً في الحيوان ، وكان ذلك المرض الحمى القلاعية وقد تبين حتى الآن ان عشرات من الامراض التي تصيب الحيوان والنبات ترد في نشأتها وسببها الى مواد (فيروسية) راشحة وفيروس آفة الفسيفساء التي تصيب التبغ هو من خيرها للبحث علاوة على انه يمثل هذه الطائفة من المواد خير تمثيل

فزرع الدكتور وندل ستانلي ، التبغ في مساحات واسعة قرب برنستن ، ونقت فيها المرض ثم جمع النبات المصاب ومراثه حتى صار بمثابة الرُبِّ ، ثم استخلص منه عصارتة . ان الفيروس في هذه العصارة ، ليس في وسعك ان رآه ، ولا ان تفصله عن سائر العصارة بمرشح ، لانه يُخترق مسام المرشح ، ولا ان تستنبته في المستنبتات المألوفة التي تستنبت فيها الميكروبات ، ولا سبيل الى معرفة وجوده هناك الا باثره في احداث آفة الفسيفساء في تبغ سليم منها . خذ قطرة واحدة من هذه العصارة ومُسس بها ورقة نبتة من نبات التبغ ، تبدُ خلال بضعة ايام اعراض الآفة عليها لا غش فيها ولا ريب . ان الفيروس هنا فما السبيل الى دراسته من الناحية الكيميائية

تقسم المواد التي تدخل في تركيب الحيلة الحية (البروتوبلازمة) الى خمسة أقسام هي الاملاح المعدنية ، والكربوهيدرات ، والهيدروكربونات ، والادهان ، والبروتينات . والبروتينات هي أعقد هذه المواد تركيباً . وثمة مواد يطلق عليها اسم اتريمات وهي نوع من خماثر تحلل المواد البروتينية ، فتوصف بأنها هاضمة البروتينات . والبيسين يفعل ذلك في المعدة في اثناء عملية الهضم . فاذا وضع البيسين في انبوب من انايب التجارب ، ومعه مادة بروتينية ، حلها او هضمها

فسأل ستانلي نفسه : وما يفعل البيسين بمادة الفيروس هذه ؟ اخذ قليلاً من العصير المستخرج من نبات التبغ المصاب بالآفة المذكورة ، ووضع في انبوب التجارب وصب عليه البيسين ، وحفظ الخليط على درجة من الحرارة توائي عمل البيسين الهاضم . ثم بعد مدة معينة امتحن العصارة ، فلم يجد فيها اثرأ للمادة المرضية . فمسح بقطرات منها اوراق التبغ السليم فلم تصب بالآفة . اذن يمكن القول ان البيسين قد اتي على فيروس الفسيفساء . ولكن البيسين لا يهضم الا المواد البروتينية ، وليس يؤثر تأثيراً ما في الادهان او النشويات او الاملاح فيصح القول بان الفيروس مادة بروتينية

في الكيمياء الحيوية تعرف مواد معينة ، ترسب البروتينات . فلتجرب على عصارة نبات التبغ المصاب بآفة الفسيفساء . فما كادت تضاف هذه المواد المرسبة الى العصارة حتى بدأت كتل صغيرة في الرسوب في قعر الاناء . فأخرجت منه وأمتحن الباقي من العصارة فظهر انه لا يحوي المادة التي تحدث المرض . فلما اضيف قليل من الكتل الراسبة الى العصارة السليمة ، عادت اليها قدرتها على احداث العدوى . واذن يمكن القول ان عامل الآفة مستقر في هذا الراسب البروتيني

هنا توقف ستانلي قليلاً ، واعدّ عدته لتعقب عامل الداء الى مقر داره حل الراسب البروتيني في سائل متعادل واطاف احد مركبات النشادر — ومن خواصه ترسيب مادة بروتينية من دون تغيير تركيبها — فتكوّنت بلورات دقيقة في قعر الانبوب . الا ان ستانلي خشي ان لا تكون هذه البلورات تلك المادة البروتينية نقية من الشوائب ، فاخذ يكررها ، باذابتها ثانية وثالثة الى العاشرة في مقدار كبير جداً من المحلول المتعادل وكان في كل مرة يبلورها باضافة مركب الامونيا الى المحلول ففاز في آخرها ببلورات يمكن ان يقال فيها انها خالية من اي الشوائب النباتية او الحيوانية . بعد ذلك أخذ ستانلي حفنة صغيرة من هذه البلورات بعد تنقيتها وحلّها في مقدار كبير جداً من سائل متعادل يبلغ مائة مليون مرة حجم البلورة نفسها ، ثم اخذ قطرات منه ومسح بها ورق تبغ سليم ، ولبت ينتظر النتيجة ، وفي الميعاد المتوقع ظهرت على النبات اعراض اصابة حادة بآفة الفسيفساء . اذن يمكن القول بأن هذه البلورات تحتوي على الفيروس . ولما كانت البلورات قد نقيت من كل شائبة على قدر ما يستطيع علم الكيمياء ان ينقيها ، فمن المعقول ان يقال ان هذه البلورات هي الفيروس نفسه

ان بلورة السكر مؤلفة من عدة جزيئات من السكر . وكذلك يظن ان هذه البلورات الدقيقة كالابر مؤلفة من عدة جزيئات من البروتين وان كل جزيء « فيروس » واحد ويؤخذ من تحليل ستانلي الكيمياوي ان جزيء هذا الفيروس مؤلف من كربون وايدروجين وتروجين وكلور . وهو يختلف عن البروتينات الفعالة من الناحية الفسيولوجية في انه لا يحتوي على الكبريت ولا الفسفور . أما عدد الذرات في الجزيء ، وطريقة ترتيبها فيه ، فلا يزالان من الأغراض التي يتجه اليها البحث . وأما هناك ما يدل على ان الجزيئات ضخمة جداً فقد عني حديثاً العلامة سقذرج بجامعة أيسالا السويدية والدكتور ويكوف أحد علماء معهد ركفلر الطبي ، باستعمال طراز جديد من الآلات الطاردة عن المركز . وقد بلغ من قوة هذه الآلات وسرعتها ، انه اذا وضع داخلها قطعة نقد من ذوات القرشين ودارت الآلة بسرعة عظيمة ليست بأقصى سرعتها ، بلغ ضغط قطعة النقد على جدار الآلة الداخلي نصف طن .

ولكن الغرض من هذه الآلة ليس تجربة التجارب المستوقفة للأفكار وإنما فصل الدقائق الجامدة التي تكون في المحلولات الغروية (Colloidal). وقد بلغ من دقة سقذرج وسيطرته على جهازه أنه يستطيع أن يضع فيه محلولاً غروبياً يفصل منه الدقائق المختلفة المعلقة فيه عند حدود معينة من سرعة دوران الآلة، وبحسبان السرعة والوقت الذي ينقضي قبل انفصال الدقائق يتمكن من تعيين أوزانها الجزيئية.

وقد بعث الدكتور ستانلي إلى سقذرج وويكوف بنماذج من بلوراته ليمتحنها بالآلة. هذه لم تنشر تفصيلات التجارب التي قام بها سقذرج وويكوف، ولكن يمكن أن يقال أن أكبر الجزيئات البروتينية المعروفة هو جزيء «هيموسيانين» (المادة الملونة في دم الخراطين أي دود الأرض) ووزنه الجزيئي خمسة ملايين. ولكن ظهر أن جزيء البروتين الذي يحسبه ستانلي فيروس الفسيفساء أكبر من ذلك.

هل هذا الجزيء حي؟ يقول ستانلي أنه يمكن بلورته. وهذه صفة كيميائية بحتة. ثم أنه زرع في مستنبت بكتيريولوجي كما تزرع البكتيريا فلم ينم ولم يتكاثر. ولكن العجيب ما يقع له عندما يتصل بنبات التبغ. فإنه لا يكاد يتصل به حتى يبدأ جزيئه يتكاثر. إن كسرة صغيرة جداً تكاد لا ترى لصغرها من بلورات هذه المادة كافية لبث العدوى في حقل خلال أيام معدودة، أي أنها تتصف في هذه الأحوال بقدرة عجيبة على التكاثر والانتشار. وأليست هذه الصفة من أخص صفات الأجسام الحية؟ أو لعل الفيروس، كبعض الناس، مزدوج الشخصية، حي أحياناً وغير حي أحياناً أخرى فهو حي في نوع معين من الوسط، وغير حي في سائر الأوساط.

بين جزيء بروتين الفسيفساء وجريثية^(١) (gene) الخلية وجوه شبه كثيرة. فأنهما يكادان يكونان من رتبة واحدة في الحجم. وكلاهما يتوقف مدداً متفاوتة عن التكاثر من دون أن يخسر القدرة عليه. فالجريثيات تكمن في البويضات غير الملقحة أو في البزور الخزونة، وفيروس الفسيفساء يكمن كذلك في أنبوب الباحث، ثم يفنى كلاهما عندما تواتبهما الأحوال فيأخذان في التكاثر. ثم هناك وجه شبه آخر بينهما وهو أنهما كلاهما غير مستقر التركيب. وقد اثبتنا ذلك في ما يخص الجريثية، في مقتطف إبريل الماضي وبيننا أن التغيير في تركيب الجريثية، يحدث التحولات الفجائية mutations. وقد لاحظ ستانلي أن فيروس الفسيفساء يصيبه التغيير كذلك فيحدث ضروباً من آفة الفسيفساء تختلف في بعض مظاهرها وخواصها عن الآفة الأصلية ويذهب الدكتور أوسكار ردل رئيس قسم الوراثة في معهد كارنيجي بوشنطن أن الجريثية أعلى مرتبة في عالم التنظيم العضوي من فيروس الفسيفساء. ويلاحظ بعين الاهتمام أن الجريثية

(١) راجع مقال «ابن تبدأ الحياة» في مقتطف إبريل الماضي (١٩٣٧)

يجب ان تكون مقترنة بجزئيات أخرى لتقوم بعملها ويرتاب اشد الريب في قدرة الجريثمة ان تقوم بعملها وهي وحدها . بل يشك في امكان اطلاق صفة « الحي » على الجريثمة الفردية وهو ما يقوله ستانلي في صدد جزئى الفيروس الذي يسبب آفة الفسيفساء

من البكتيريا ما يعرف باسم « ازوتوباكتري » *azotobacter* وهو كائن في حجم خلية الخميرة تقريباً . يعيش في التربة ويتنفس ويتناول الطعام من وسطه وينمو ويتكاثر — اي ان هذا الكائن حي في نظر جميع الفئات . بل انه يتصف بصفة يندر ما يتصف بها من الاحياء وهي صفة تثبيت النتروجين . فهو يتناول النتروجين الصرف من الهواء ويركّب منه ومن بعض المواد التي يأخذها من الارض الامونيا ومن الامونيا يصنع الاحماض الامينية ، ومن الاحماض يصنع بروتينات . وهذه القدرة لا ندحة عنها للحياة كما نعرفها لان الجيلة (البروتوبلازمة) مستحيلة من دون بروتين . حتى لنكاد نغرى بالقول بان القدرة على صنع البروتين مقياس من اهم مقاييس الحياة . ومن عهد قريب جرّبت طائفة من علماء الروس تجارب طريفة « بالازوتوباكتري » فانهم زرعوا طائفة نقيّة منه في وعاء زجاجي ، وغذوها بالسكر فتولد قليل من الامونيا . ثم اخذوا البكتيريا ومرثوها مرثاً واستخلصوا عصارتها منها . ثم رشحوا هذه العصاره حتى لا يبقى فيها بقية من مادة الخلايا وامرّوا في هذه العصاره المرشحة فقاعات من غاز الاكسجين وغاز النتروجين فتولد غاز الامونيا . اي انهم وجدوا في هذه العصاره ما يصنع الامونيا كما كانت تصنع البكتيريا الحية ويفسر هؤلاء العلماء ما شاهدوه بان تثبيت النتروجين في هذه البكتيريا يتم بواسطة « انزيم » (نوع من الحماز) وان مرث خلايا البكتيريا يطلق هذا الانزيم او يحرّره ، فيبقى في العصاره يقوم بعمله ، بل هو في رأيهم يقوم بعمله في انبوب التجارب على وجه اتم من قيامه به في جسم البكتيريا ، ولهم في ذلك جداول واحصاءات . ويعللون هذا الفرق بأن الاجسام الحية تستهلك جانباً كبيراً من السكر الذي تتناوله في أفعالها لا في توليد الامونيا فقط وقد زار دين برك احد علماء وزارة الزراعة الاميركية روسيا في الشتاء الماضي وقضى ثلاثة اسابيع يحدث هؤلاء العلماء وهو الآن يعيد تجاربهم ليرى هل تسفر عن النتيجة نفسها

ولعل النتيجة التي يخرج بها الباحث من هذه التجارب هي ان الحياة مرتبة من مراتب تنسيق المادة ، فالكمارب والبروتونات تنتظم ذرات والذرات تنتظم جزئيات ومن الجزئيات ما هو كبير معقد التركيب ، وفي كل مرتبة من مراتب الانتظام والتنسيق تبزغ صفة جديدة ، فالكمارب والبروتونات اذا انتظمت على نحو معين كانت حديداً وعلى نحو آخر كانت ذهباً والذرات تنتظم فتكون ماء او ملحاً او بروتيناً من نوع معين يدب فيه ديب الحياة

تبادل الاحساس

Reciprocal Feeling

لدبرهيم مطر

ورث الانسان المتمدن عن الجماعة الانسانية الاولى احساساً نبيلاً وشعوراً سامياً هله قديماً على مشاطرة الانسان في شتى مناحي الحياة فشعر بشعور غيره واشترك معه في احساسه سواء في الالم والفرح في الشدة والرخاء ، فساهمه افعابه ومصاعبه وافراحه ومسرته . وقد بما هذا الاحساس في الاسرة الانسانية تمامه تمشى مع سنن التطور والارتقاء حتى تشبعت به النفس البشرية فأهابت بصاحبها لزيادة افراح الحياة وجلب الهناء للبائس ، وتخفيف آلام المنكوب وتكاد تنحصر هذه الحالة في الانسان فهي تقوى فيه على مقياس رقي دماغه وانتظامه وهي من اسمى خصائص الدماغ واشرفها تزيد في صاحبها روح الشفقة والرحمة وتملأه بعناصر العدل والتعاون

وقد نشأ هذا الاحساس في احضان المجتمع ودرج في مهاد الحياة الاليفة الوداعة في حين انه تلالشى وانعدم عند الانسان المتوحش الذي آثر العزلة ولازم الانفراد واستسلم لغرائزه الحيوانية الاصلية . وظل هذا الاحساس في قرارة المجتمع البشري طيلة الاجيال الغابرة يعمل عمله الصامت المستمر في صقل شخصيات جبارة هدفها الاعلى توثيق عرى المحبة وتوطيد اركان السلام وتمهيد سبل الخير والسعادة لآبناء هذا العالم

والثابت ان هذا الاحساس مغروس في النفوس ، وهو من اقوى ما فطر عليه الانسان الاجتماعي ، واكثره تلويناً لسلوك الافراد والجماعات لانه يولد فينا انخيازاً في الشعور ورغبة في ادغام ذواتنا في الاشياء والاشخاص ، غير شاعرين بهذا الاشتراك حتى يفيق شعورنا من غفوته وخيالنا من سباته ، فنذكر معنى ذلك الاندفاع الشديد وتركز ذواتنا بعد ذلك الانخياز الجلي . ومصدق قولي ارتياحنا الى الخطيب الذي يندفع في كلامه ، واندماج نفوسنا في سحر يانه وعذوبة الفاظه . ولن نصحو من سحرنا واندفاعنا الا عندما تعثر الخطيب عقبة

لفظية او معنوية تقف سيل اندفاعه الخطابي عندئذ نشعر بالاخفاق ونفبض العين حياء وخجلاً ونخفض الرأس حزناً وغماً مشاطرينه حيرته وارتيابه ، ومبادلينه عوامل الحياة . وكذلك تظل نفوسنا تلون شعورها بحسب اندفاعه متشعبة بحالاته النفسانية قسمو معه ساعات توهج بحالات من التجلي والوحي ، وتنخفض عند ما توقفه عقبات الحصر والارتباك

والظاهر ان هذا الاساس نوعان واقعي وتصوري وينشأ النوع الاول عن مشاهدة الحوادث والاحساس بالوقائع وهو اكثر شيوعاً بين طبقات البشر المؤتلفة في حين ان النوع الثاني ينشأ عن تصور الحالات التي لا تقع تحت الاحساس المباشر بل تقتصر على قوة التبصر وامتداد الخيلة الى الامور غير المنظورة ، كأن تهب الجماعات الى جمع الاعانات لقوم اصابوا بقمحط او مدينة دسرت بزلزال او مؤسسة التهمها النيران . وقد تجلست نتائج هذا الاحساس المتبادل في أعمال الرسل السكرام والانباء العظام الذين أناروا سبيل البشرية بنورهم الساطع وأقواهم الصائبة وأقالوها من كبوتها بتعاليمهم وبذلهم وشرائعهم المقدسة

نقف في حلبة السباق أو أمام فرقتين متباريتين فينحاز شعورنا تجاه فريق دون الآخر ونمضي في مشاطرة ذلك الفريق الاحساس عن طريق التشجيع والهناف والاستفزاز كأننا مأجورون لذلك ونشعر عند انتصاره بالغبطة والارتياح ، وتنكمش عند الانكسار وتبقى نفوسنا تلون تبعاً لدرجات الانتصار والانكسار حتى ينتهي اللعب ، فنشعر ان لا علاقة لنا بالمتنصر سوى هذا الاحساس المتبادل الذي أشرك نفوسنا قهراً وقسراً في اللعب

واذا أشحن بنظرنا الى العلاء وشاهدنا الطيور تسبح في الفضاء بعضها ينشد والآخر يشقشق ، وفريق يطارد فرائسه وآخر يعتني بصغاره نشعر في جميع هذه الحالات مع ساجحات الجو ، فنفرح لدى سماعنا الأغايد الجميلة ، ويتجرك فينا العطف وتمثل أمامنا غرائز الأمومة لدى رؤيتنا الطير يعتني بصغاره ، وتنفر من ذلك الجارح الذي يطارد العصفور الصغير ، ونشعر مع ذلك المخلوق الذي يطلب النجاة وينشدها بكل ما أوتي من قوة اشتقتها من حبه للبقاء والحياة . لست أشك يا صاح أنك تُحمل الى الفضاء وتشاطر العصفور الشفقة والرحمة وتتمنى لو أوتيت أجنحة توصلك اليه لتخاطبه من محالب عقاب الجو الفتاك . ولم يحرك مجال العطف في عروقك سوى هذا الاحساس المتبادل الذي استفرك لحماية صغير الطير وحقير الحيوان

وتندلع نيران في بلدتك تحرق الاخضر واليابس وتروع الكهل واليافع فتدفع من تلقاء نفسك الى تبادل الاحساس والتضحية السامية في تخفيف نتائج تلك الكوارث والمصائب والمآسي ويصيب فيضان احدي القرى المجاورة لمدينتك قهرح بدافع الانسانية النبيل لتبادل الاحساس فوماً اكتسح السيل ما واهم وهدم مساكنهم وجرف ماشيتهم . وفي الاعياد العامة والمهرجانات

الشعبية تأخذك نشوة الفرح فتشاطر أبناء قومك مسرات العيد وافراح الوطن . ولا تعرف لهذا تعليلاً سوى هذا الاحساس المشترك للجماعة البشرية تعكسه في شتى ضروب الحياة وقد يتعدى هذا الاحساس عالم الحياة الى الشعور مع الجماد وسرعان ما فطن لذلك رواد الفن وكبار الادباء فأودعوه قطعهم الخالدة اذ اشركوا الطبيعة حوادث قصصهم وتأليفهم فسموها مشرقة زاهية عندما يجلي البطل ظافراً منصوراً وقرنوها بالاضطراب والظلمة ساعات الشدة والعنف . فالقمر يتلأل بأشعثه الفضية ساعة يناجي الحبيب معبودته ، والرعد يقصف والعاصفة تهب ساعة يتوقع البطل المغوار فاجعة أليمة او مأساة مفزعة

وقابلية تبادل الاحساس والاحياز بالشعور لا تقف عند حد العلائق الانسانية بل تتعداها الى الجماد ، وها نفوسنا تتكش لدى مشاهدة صخرة شاهقة تتهدر على حصة صغيرة او لدى رؤية عمود صغير يحمل عمارة كبيرة وقد نعجب بالبحر الواسع الذي يوحى لنا الاتساع والجبل العالي الذي يلهمنا العظمة والنهر الجاري الذي يدعونا الى الحركة فنحن في كل هذه الحالات تبادل الجماد الاحساس فنثري للحصة المتفتحة ونشفق على العمود الرزاح تحت ثقل البناية وندهش لسعة البحر ونعجب بعظمة الجبل ونظفر مع حركة النهر وانسيابه البديع وتكون الطبيعة قد أنستنا ذواتنا فتقربنا من مظاهرها وارتبطناً بأوصافها ودغمنا نفوسنا فيها

ويختلف هذا الاحساس في الناس قوة وضعفاً فهو أظهر في الانبياء والمشرعين منه في السوق العامة وهو عامل اساسي في بناء الشخصية وعنصر فعال في نمائها . فهذه شخصية عاجزة لا تتين احساسها وتلك اخرى تشع نبلاً وتشيع عاطفة بدفعها الى المثال الاعلى والكمال المنشود اما الاحساس التصوري فقد شاع في نفوس هداة البشرية ومصلحيها فاستقروا آلامها في الماضي السحيق وتصوروا مصاعبها في المستقبل الغامض فعملوا على اصلاح اوضاعها واسكان اوجاعها وتجديد نظمها وسرعان ما سنوا الشرائع الحكيمة ليحولوا دون عسف الجماعات القوية وثرأ اقلية معدودة . ومن ثمار هذا الاحساس ما نراه بين الآونة والاخرى من تحفز الجماعات النائية لطلب المساعدة وجمع التبرعات لقوم نكبوا في زلزال مدمر او فيض عيم او حريق شامل . وقد تبين ان لارابطة تربطهم باولئك الاقوام عبر البحار الشاسعة والصحاري الواسعة سوى رباط الاحساس المشترك والشعور المتبادل الذي وقع على اوتار قلوبهم نغمات العطف والحنان وهز اغشية نفوسهم بقدس المحبة والاخاء . وانا على مثل اليقين ان البشرية تصل مصاف الانبياء الاطهار وان ارضنا تصبح فردوس النعيم وجنة عدن ، حالما تنظم البشرية علاقاتها وتسوي مشكلاتها على ضوء هذا الاحساس المتبادل السامي وذلك الشعور المشترك الرفيع فنشعر اننا نعمل كافراد وجماعات خير بلادنا واقوامنا ولاعادة اجماد اسلافنا ومرسلينا



جزء من طبق من الخزف الفاطمي ذي البريق المعدني عليه
زخرفة من رسم فارس يقصد الصيد كما يظن من صورة البازي
الجامع على يده اليسرى وعلى الفارس رداء من نسج مزين
بدوائر فيها صور طيور . وما تجدر ملاحظته شكل العمامة التي
يلبسها والدوائر التي تزين التديان على خديه



جزء من طبق من الخزف الفاطمي ذي البريق المعدني عليه
زخرفة من نباتات وأوراق شجر ورسم انسان وفي الجزء
الأسفل كله قد تكون (جعفر) وما يستوقف النظر ان غطاء
الرأس يشبه ما كان معروفًا عند بعض الفرسان الأوربيين
في القرون الوسطى

الخزف الفاطمي

للدكتور كارل جوهان لام
استاذ الفنون الإسلامية بمعهد الآثار

ترجمة وتعليق عبد الرحمن زكي

وجدت نماذج مختلفة من الخزف الفاطمي في القسطنطينية معظمها قطع مكسورة . والظاهر أنه ليس في الاستطاعة ان نصل الى معلومات أثرية تاريخية تعين على دراستها وتحديد تاريخها . أما الخزف الذي وجد في حفريات قلعة بني حماد فيمكن ان ينسب الى القرن الحادي عشر . ولم يعرف غير القليل عن الخزف السوري لذلك العصر وسنقصر دراستنا هنا على أهم أنواع الخزف المصري

١ — الفخار غير المطلي (Unglazed Pottery)

تتألف أهم مجموعات الفخار غير اللامع من شبائيك القليل المصنوعة من الصلصال (الطين) ذي المسام . وأقدمها على ما يظهر من صناعة العصر الطولوني . وأما القطع المصنوعة منها في العصر الفاطمي فكثير عددها . وأهم النماذج الخزفية تلك القطعة المحفوظة بدار الآثار العربية والمغطى سطحها الخارجي بطبقة مزخرفة ذات بريق معدني على أرض بيضاء من طراز القرن الحادي عشر . أما شبائك القطعة فغير لامع

٢ — الفخار المطلي (Glazed Pottery)

١ — القسم الاول من هذا النوع عبارة عن فخار لامع عليه خطوط ظاهرة مفضولة بعضها عن بعض بمسافات من الطين المحروق

الطريقة الفنية لهذا الفخار على مثال الصناعة المرآكشية المتأخرة Cuerda seca وفكرة الألوان التي تتألف من الأبيض والأخضر والبنفسجي ذات شبه قريب بصناعة بعض القطع الخزفية الملونة البيزنطية التي عثر عليها في استانبول وباتلينا في بلغاريا . ويمكن مقابلتها بآنية من

صناعة القرن الثامن او التاسع وجدت في سوس (١) . وبالخزف الذي يطلق عليه اسم (خزف جاري) (٢) . وبعض الخزف المصنوع في الغرب الاسلامي . وعلى الرغم من ان هذا الفخار المطلي لا نعرفه الا بواسطة قطع وجدت في مصر فليس من المؤكد انه صنع على صفات النيل . ويمكن ان ينسب هذا الفخار المطلي الى القرن العاشر الذي يشمل العصر الاخشيدي . وفي دار الآثار العربية نموذج رائع يتكون موضوعه الزخرفي من طيور على حافتي شجرة الحياة (٣)

ب — القسم الثاني : فخار مطلي في بعض أجزائه

أكثر هذا النوع من الفخار مستمد من الصناعة العراقية التي سارت على منوال النماذج الصينية وقد وجدت نماذج منه في سامرا (٤) . ومن هذا الفخار المصري لم نكن نعرف حتى الايام الاخيرة سوى أمثلة غير متقنة الصنع ولا عناية كبيرة بألوانها تم اكتشاف حديثاً نماذج أدق صنعةً معظمها الآن معروض في دار الآثار العربية وفي متحف بنا كي باثينا . وأغلب النماذج المذكورة من صناعة القرن الحادي عشر والنصف الثاني من القرن العاشر وفي هذه المجموعة نجد من الصعب التمييز بين قطع العصرين الفاطمي والسابق له

ج — القسم الثالث : فخار ذو زخارف محزوزة أو محفورة (Champlevé) تحت طلاء ذي لون واحد

هذا النوع من الفخار المطلي مع النوع الآخر من الفخار ذي البريق المعدني يؤلفان أهم أمثلة صناعة الخزف الفاطمي . ومعظم تلك المجموعة ان لم يكن كلها من عمل فخاري الفسقاط . وقد عثر في سوريا على بعض نماذج من هذا الفخار قد تكون من أصل مصري

(١) مدينة قديمة في إقليم خوزستان بایران تبعد عن بغداد نحو ٢٥٠ ميلاً الى الجنوب الشرقي . وقد ظلت زمناً طويلاً مقر ملوك الفرس او دولة عيلام . وكان اول خراب اصاب المدينة عند ما قضى آشور بانينال بين عامي ٦٤٢ و ٦٣٩ ق . م على دولة العيلاميين (تراث الاسلام — الجزء الثاني من الترجمة العربية للدكتور زكي محمد حسن . ص ٣٨)

(٢) خزف جاري هو نوع خزفي يظن انه من صنع عبدة الشمس الذين ظلوا في بعض جهات فارس وفي بعض جهات إيران متمسكين تمسكاً شديداً بديانتهم القديمة حتى بعد الفتح العربي بمدة طويلة . وقد وجدت أمثلة من هذا الخزف عليها حروف كوفية من طراز القرنين الحادي عشر والثاني عشر (تراث الاسلام — الجزء الثاني ص ٤٢ و ٤٣)

(٣) شجرة الحياة (Hom) — هذا الموضوع الزخرفي الذي نشاهده كثيراً في آثار الفنون الاشورية والفارسية عبارة عن حيوانين متقابلين او مولد أحدهما ظهره للآخر وقد تطرق من المنسوجات الشرقية الى فن النحت الروماني

(٤) أسست سامرا (سر من رأى) على يد اشناس أحد قواد الأتراك بأمر الخليفة المعتصم سنة ٨٣٦ م . وتقع على الضفة اليمنى لنهر دجلة على بعد مائة كيلو متر شمالي بغداد وترجع شهرتها في تاريخ الفنون الاسلامية الى القصور التي شيدها المعتصم وخلفاؤه قبل ان يهجرها المعتد ويرجع مقر الحكومة الى بغداد سنة ٨٨٣ م

ثم عثر حديثاً في حفريات انطاكية (٥) على نوع من الفخار المحفور من صناعة ذلك العصر ولكن طرازه يختلف جداً عن ذلك . وهناك نماذج بطلاء ذي لون اولوين او ثلاثة من الحزف السوري المنقوش عليه بالحفر بالطريقة المعروفة باسم (graffiato) (٦) . وهذه النماذج تنسب في الغالب الى العصرين الأيوبي ، والمملوكي ، المتقدم . وتتصل تلك الصناعة بطبقات مختلفة من الفخار البيزنطي والقبرصي ونوع من الفخار المملوكي . وكل هذه المجموعات التي ذكرناها أخيراً لها طلاء أصفر خفيف فاتح (buff) أو أخضر وبنفسجي ونلاحظ في الصناعة الفاطمية وفي الاساليب المتأخرة في العصر الايوبي تنوعاً كبيراً في التلوين فان بعض انواع الطلاء ذات ألوان غاية في النقاوة . ونذكر من الالوان التي شاع استعمالها اللون الأخضر البحري (celadon) (٧) ذا الدرجات اللونية المختلفة على منوال الحزف والحجر الصيني . والالوان الخضراء والزرقاء والصفراء والبنفسجية والصفراء الفاتحة والبيضاء (وكان اللون الأبيض مظلماً غير شفاف بينما كانت أ كثرية الالوان الاخرى المستعملة شفافاً الى حد ما) . ونحن نعرف نموذجاً واحداً منها او نموذجين عليهما توقيع . كما ان الكتابات المنقوشة التي تقابلها عليها اما ذات صبغة زخرفية خالصة وإما تشتمل على بعض التمنيات الطيبة

ولكي نصطح على وضع تاريخ نسبي لهذه الصناعة الخزفية والتي يندر ان نجد منها قطعاً كاملة يجب ان تقابل موضوعاتها الزخرفية بقطع من الفخار ذي البريق المعدني . فنجد على قليل من القطع التي تهمننا جداً في هذه المقابلة ان الزخارف المحفورة مختلطة ببريق معدني ذهبي منقوش على الطلاء

ويمكننا القول بطريقة عامة ان الامثلة ذات الزخارف المحفورة أقدم عهداً من تلك الامثلة ذات الموضوعات الزخرفية المكونة من خطوط محفورة حفراً بسيطاً . ونحن نلاحظ ان الاجزاء المحفورة أقدم لونها من السطوح التي تجاوزها ويرجع ذلك الى تجمع الطلاء فيها وتظهر رسوم آدمية محلاة بموضوعات زخرفية نباتية جميلة على قطع كثيرة من الفخار يمكن ان تنسب الى أوائل العصر الفاطمي . ويشاهد على نوع من هذا الحزف اوراق نباتية

(٥) انطاكية احدى مدن سوريا وتقع على الضفة اليسرى من نهر العاصي وعلى بعد ستين ميلاً غربي حلب . وقد أسسها سيلسوس نيقاتور في عام (٣٠٠ ق . م) احد ملوك سوريا لذكرى أبيه أنطيوخوس ولقد ناقست انطاكية مدينة رومة في عظمتها ووصل عدد سكانها في عهد ما الى نصف مليون

(٦) Graffito كلمة ايطالية تستعمل غالباً في صبغة الجمع Graffite والمقصود بها رسوم ترسم باليد على الحجر او الجص ثم تحفر بالحك او المكشط . وكانت هذه الطريقة شائعة في الصين وليس من الضروري ان تكون قد نشأت هناك اذ أنها وجدت في مصر قبل الفتح الاسلامي ثم نتج صناع الحزف الايطاليون ابان القرن الخامس عشر نجاحاً كبيراً في استخدام هذه الطريقة (تراث الاسلام — ج ٢ ص ٤٣ و ٤٤)

(٧) أطلق هذا الاصطلاح celadon في بادىء الامر على اللون الاخضر البحري الذي امتاز به الحزف الشرقي وصارت القطع الملونة بهذا اللون نادرة جداً وذات قيمة أثرية عظيمة ونعم أخيراً استعمل الاصطلاح

تختلط بخطوط مضرسة وعلى فرع آخر نرى أزهاراً صغيرة مخروطية ذات رؤوس مستديرة متجهة في استدارتها الى فوق

وكثيراً ما نرى على بعض نماذج الفخار من صناعة القرن الحادي عشر رسوم الحيوانات والطيور المنقوشة عليها قريبة الشبه جداً ببعض الرسوم التي تصادفنا على الخزف ذي البريق من صناعة الصانع الماهر « سعد ». وفي هذا النوع نشاهد ان الخزاف تكون داخل رسوم هندسية على شكل نجوم تتألف من عصا بمفردة او مزدوجة اما مستقيمة وإما منحنية ويمكن تمييز النماذج المتأخرة من هذا النوع بما نلاحظه في صناعتها من الاهمال أو بمشابهتها القريبة للخزف الصيني الذي كانت له منزلة سامية في الاسلام

د — الخزف ذا البريق المعدني Lustered Pottery (٨)

نرى ان البريق المعدني اختراع صناع الزجاج المصريين . ففي العراق كان هذا البريق المعدني اللامع يوضع على فخار مغطى بطبقة كثيفة من الطلاء الابيض غير الشفاف المحتوي على القصدير وكانت ترد الى مصر اثناء العصر الطولوني نماذج كثيرة من هذا الخزف ذي بريق متعدد الالوان . وأقدم الامثلة التي لا شك انها صنعت في مصر انما ترجع الى القرن العاشر وبعضها ينسب الى العصر الاخشيدى (٩)

وفي مجموعة الدكتور علي باشا ابراهيم بالقاهرة جام عليه رسم فيل وكتابة منقوشة يستدل منها انه من صناعة ابراهيم المصري . ومن المؤكد ان تكون هذه القطعة من صناعة القرن العاشر مع ان هناك صانع آخر يعرف بهذا الاسم ايضاً ترك بعض القطع الخزفية في القرن الحادي عشر . وقد سبقهما صانعان آخران هما طيب علي و « ساجي » شوهدا اسمهما على قطعة من الخزف محفوظة في دار الآثار العربية مشغولة على الطراز القديم العهد الذي يذكر بالفخار العباسي . وهناك قطعة في نفس المجموعة ذات زخرفة نباتية من الطراز الاخشيدى تحمل اسم الحاكم بالله . ويمكن ان تقابل هذه الزخرفة بزميلتها المنقوشة على الباب الخشي الذي امر بصناعته الخليفة الحاكم للجامع الازهر . وقد أشار الرحالة

(٨) يقصد بكلمة Lustre طبقة الميناء الرقيقة اللامعة التي يكسب بها الخزف فتكسبه سطحاً لامعاً براقاً والعلماء غير متفقين في تعيين التاريخ والاطم ان الذين نشأت فيهما صناعة الخزف ذي البريق المعدني في الاسلام وفي هذا الخزف رسم الزخرفة بملح معدني على سطح لامع ثم تثبت بتعرضها للنار بطريقة تكسبها بريقاً معدنياً (تراث الاسلام — الجزء الثاني ص ٤٤)

(٩) لا شك ان الدكتور الفاضل الاستاذ لأم يقصد الفترة القصيرة بين عامي ٩٣٥ و ٩٦٨ التي تتوسط المهديين الطولوني والفاطمي اذ من الصعب ان نوافق استاذنا على انه كانت هناك مميزات او مظاهر فنية لعصر لم يدم اكثر من ٣٣ عاماً . وكل ما يمكن ان ينسب الى هذه الاسرة الاسلامية في الواقع يتصل بالعهد الطولوني او مهدداً للعهد الفاطمي



طبق من الخزف الفاطمي ذي البريق المعدني الذهبي وفي قعره
دائرة رسم عليها طائر في مفقاره تحسن وحول
الدائرة شريط من زخارف نباتية



شباك « مغارة » للماء
عليه زخرفة مثل طاووسا
رافما ذيله

ناصرى خسرو^(١٠) في سفره المشهور عن رحلته الى صناعة الخزف ذي البريق التي شاهدها زاهرة في مصر

كان مسلم وسعد أهم صنّاع الخزف ذي البريق المعدني . وفي متحف بناكي بائنا قطعة زجاجية ملونة بنفس الطريقة من صناعة سعد . ويرى الاستاذ المرحوم علي بك هيجت مدير دار الآثار العربية الاسبق ان « سعد » عاش في عصر سابق لعصر زميله مسلم ولكننا لا نتفق معه في رأيه . ومن المعقول ان نحن بان مسلم اشتغل في عصر الحاكم بينا عم نشاط سعد في عهد الحكم الطويل الذي تمتع به الخليفة المستنصر بالله (أواسط العصر الفاطمي) . ولا نعلم تماماً لماذا كانت بعض قطعهما ممهورة بأسميهما وأغلبها لم تكن ممهورة . ومن هذه الاخيرة أمثلة كثيرة ذات قيمة فنية عالية لا مجال للشك في انها من صناعة الصانعين المجيدين . ومع ذلك يجب ان لا تأخذ بسهولة بكل القطع الخزفية التي يظهر فيها اسلوبهما الصنّاعي على انها من عملهما او من اخراج مصنعيهما . ولكي نأمن الخطأ يجب ان نعتبرهما ممثليين للمدرستين ويجب ان نتكلم عن طراز سعد او مدرسة سعد وعن طراز مسلم او مدرسة مسلم وليس عن صناعة سعد او مسلم نفسيهما

وسنصف الآن بعض الميزات التي اتصفت بها كلتا المدرستين

مدرسة مسلم

في صناعة هذه المدرسة يغطي الطلاء أجزاء الآنية كلها بما فيها قاعدتها المحدودة بحرف قليل الارتفاع ويكون الطلاء دائماً ابيض اللون لكنه يندر ان يكون في نقاوة الطلاء الذي نجده على الخزف الأخضر الشبدي . أما البريق المعدني فذو لون واحد غالباً هو اللون الذهبي الا في احوال نادرة جداً يميل الى الاحمر النحاسي . وفي هذا النوع من الخزف لازي الزخارف محفورة دائماً . أما توقيع مسلم فنجدته منقوشاً بحروف كوفية بسيطة تقرب احياناً من الخط النسخ وتري في الغالب على قاعدة الآنية . وفي بعض الاحيان نرى الامضاء بالقرب من الحافة موضوعاً بطريقة زخرفية بدیعة وكانت معظم الزخارف المفضلة رسوم الحيوانات والطيور المختلفة والموضوعات الزخرفية النباتية والحروف الكوفية كما تظهر ايضاً بعض الصور الآدمية على قطع الخزف من صناعة مسلم (كالتى شاهدها على خزف الصانعين ابراهيم وساجي)

(١٠) ناصرى خسرو هو رحالة وشاعر فارسي ولد في مقاطعة خراسان ببلاد فارس سنة ٣٩٤ هـ وانتظم في شبابه بعمل في الديوان بمدينة مرو ثم تركها وحج الى مكة واخذ يطوف بلاد العالم الاسلامي في منتصف القرن الخامس واعجب بما وجده في مصر من رخاء عظيم واسواق عامرة (١٠٤٧ — ١٠٤٩ م) ووصفه للقاهرة المستنصرية بعد من اهم المراجع التي تساعد على معرفة احوال القاهرة وصناعاتها وفناتها السلطانية والشعبية . وقد ترجم رحلته الى اللغة الفرنسية ونشرها المستشرق شارل ديير في باريس سنة ١٨١١

مدرسة سعد

وفي هذه الصناعة نجد الجزء الاسفل للاواني محتويًا على حلقة للقاعدة تشبه الشريط الا في احوال نادرة جداً عند ما تكون الاواني يغطيها الطلاء . وهذا قلما يكون أبيض اللون فهو اما أزرق وإما أحمر . وفي نوع خاص يصادف الانسان بريقاً أبيضاً ذا لون رمادي لامع محلاة به القاعدة على مثال الخزف الذي تقابله في الخزف القبطي والقاعدة لولبية الشكل أفقية صنعت بالأصابع أثناء عمل الآنية وادارتها على عجلة الخزاف وقد عم استخدام اللون الأزرق في تلك الصناعة كما أننا في كثير من الاحوال نجد البريق المعدني الاكثر استعمالاً هو الزيتوني المائل الى الاصفرار

وفي مجموعة منسوبة الى مدرسة سعد وجدت نماذج ذات ألوان متعددة وريقتها المعدني مطبوع على زخارف بارزة في قوالب مصبوبة . والنقش الداخلي مكون في الغالب بواسطة الحفر في طبقة المادة ذات البريق بدون ان ينفذ الى المادة الطينية . وتقابل مثل هذه «الخزوز» في أعمال الخزف المنسوبة الى «ساجي» . اما توقيع سعد فنجدته منقوشاً بالحروف الكوفية المزخرفة على جزء واضح من الآنية وفي الغالب على الوجه الخارجي للأناء . وهناك قطعة زخرفية في القسم الاسلامي من متحف برلين تحمل توقيع سعد والى جانبه توقيع لمصور (صانع) آخر اسمه (حسن) وهذا مما يدلنا على انه كان لسعد مساعدون في مصنعه . وفي متحف فكتوريا وألبرت بلندن آنية عليها توقيع سعد وعلى سطحها الداخلي نقش يمثل قسيساً في يده مبخرة تترجح . وبين الزخارف التي تملأ ارضية الآنية علامة الحياة المصرية او الصليب القبطي الذي كان يستعمله الاقباط كثيراً في اعمالهم الزخرفية وفي دار الآثار العربية قطعة خزفية ليس عليها توقيع ولكن عليها صورة المسيح منسوبة الى مدرسة سعد . وهذا مما يجعلنا نعتقد انه من المحتمل ان سعد كان من سلالة الاقباط

وقد اقتبس سعد بعض موضوعاته الزخرفية من موضوعات قديمة . وفي كاتدرائية Sens قطعة قماش من الحرر تشبه القطعة التي عثر عليها في انطينو Antinoe^(١١) عليها رسوم طيور متقابلة واشجار وسلال تحتوي على فواكه كثيرة الشبه بالرسوم التي تقابلها ونسبها بدون عناء الى مدرسة سعد . ومن الصعب تفسير وجوه الشبه لاشياء يرجع تاريخها الى عصور متفاوتة

(١١) انطينو بوليس او ادريانوبوليس مدينة مصرية قديمة على الحدود الجنوبية لمصر الوسطى التي عرفت قديماً بأسم هيتونوميد ثم انضمت بعد ذلك الى اقليم طيبة . وكانت على الشاطئ الايمن للنيل على بعد ٩ كيلو مترات من هرمو بوليس — وقد شيدها الامبراطور ادريانوس على انقاض مدينة بيذا القديمة وذلك تخليداً لذكرى صديقه الشاب الجميل انطونيوس الذي مات غرقاً في النيل بالسكن الذي شيده عليه المدينة . وقد اطلق الاقباط على انقاض هذه المدينة الجميلة اسم Ensench وهي اليوم بالقرب من قرية الشيخ عبادة

ومن الرسوم التي نشاهدها على فخار هذه المجموعة الاسماك التي نراها على آنية مشهورة في مجموعة كيليكيان المعروضة في متحف فكتوريا والبرت وكانت فيما قبل للدكتور فوكيه وطلاء هذه الآنية رمادي اللون ومشقق. وإنا لنرى على السطح الداخلي لبعض الاواني الخزفية التي تنسب بسهولة الى صناعة سعد زخرفة لاسماك ثلاثة تماس رؤوسها في هيئة رائعة كما نرى بعض الرسوم الآدمية ايضاً. وليس في طراز صناعة سعد تلك القوة والحرية التي نلاحظها في صناعة مسلم ومدرسته لكنها اكثر رشاقة وانسجاماً

ومن اراد الدرس استطاع ان يقابل اوجه الشبه والخلاف بين النقوش التي على لوح كنيسة سنت بربرا بمصر القديمة والنقوش التي خلفتها قصور الفاطميين الغربية ولاشك ان بعضاً من الامثلة المتأخرة من هذه الطبقة صنع بعد وفاة سعد ونجدها غير متقنة وتندر فيها الرسوم. كما انا نلاحظ ان حروف قاعدة الاواني مثلثة القطاع وليست مستديرة

ومن مجموعات الخزف ذي البريق المعدني الذي ينسب الى العصر الفاطمي الأخير ما نرى زخرفته ذات لون بنفسجي تحت سطح مصقول وشفاف. ولا بد ان تكون هذه الطبقة والسابقة لها من عمل مصنع واحد

ومن بين الموضوعات الزخرفية التي استعملت جامات (medallions) تحتوي على رؤوس من المحتمل انها تمثل الشمس. وموضوعات مثلثة ومستطيلة ذات جوانب منحنية وفروع اشجار مزهرة... الخ ونشاهد امثلة اخرى عليها رسم الصليب ومن المحقق ان تكون من صناعة القبط

وقد وجدت قطع كثيرة من الاواني وترايع الحيطان ذات البريق المعدني في حفريات قلعة بني حماد. ومن المحتمل ان تكون في الاصل ورده من مصر. لكن مما يجعلنا نعارض هذه النظرية اننا لم نعثر على مثل تلك الترايع في حفريات القسطاط. ونعتقد انه كان لخراب القسطاط الشامل عقب حريقها الكبير عام ١٠٦٩ ثم سقوط الدولة الفاطمية بعد ذلك باعوام قلائل — القضاء الاخير على صناعة الخزف ذي البريق في مصر. وفي ذلك العصر نجد ان هذه الصناعة بدأت في الظهور في سوريا واسبانيا (وكان يورد اليهما الخزف ذو البريق في القرن العاشر). ووجود بعض الاواني اللامعة في سوريا التي ترجع الى زمن لا يتجاوز عصر سقوط الدولة الفاطمية لا يمكن ان يتخذ حجة نستعين بها ضد النظرية القائلة بأن صناعة الخزف قد ادخلت الى سوريا على يد الصناع المصريين. والفخار السوري ذو البريق يكون احياناً مطلياً على سطح مصقول وشفاف يحتوي على مادة القصدير. وهذه الطريقة في الطلاء ادخلت الى سوريا عن طريق مصر حيث تقدمت

لقد ذكر لنا المؤرخون في مناسبات شتى اهمال صلاح الدين للفن والترف. وهذا ما

يفسر لنا الى حد ما الانحطاط الوقتي الذي أصاب الفنون المصرية فيما عدا فن صناعة الخشب الذي تبع سقوط الدولة الفاطمية

كلمة عامة في دراسة الحزف الاسلامي

الآن وقد انتهينا من عرض آراء الدكتور لام في الحزف الفاطمي يجمل بسان تلخص بعض الآراء الأخرى. فقد تناول دراسة الحزف الاسلامي كثيرون من مؤرخي الفنون. وما زالت امامهم تقط كثيرة غامضة. وكان من الذين بحثوا موضوع الحزف الاسلامي العالم (Hobson) ^(١٢) فقال ان ليس ثمة اي دليل على وجود خزف ذي بريق معدني في القسطنطينية قبل القرن التاسع ولا سيما قبل العصر الطولوني في نهاية هذا القرن وليست هناك أية قطعة أثرية تثبت يقيناً ان ذلك البريق المعدني كان معروفاً قبل الاسلام وكان من الباحثين الفنيين في الحزف الاسلامي المرحوم العالم علي بك بهجت والاستاذ فليكس ماسول ^(١٣) فقد نسبوا الى العهد الطولوني نوعاً من الحزف ارق طينة من النوع الذي ينسبونه الى ما قبل العصر الطولوني يمتاز بزخارفه ذات البريق المعدني ذي اللون الاصفر او الزيتوني على ارضية بيضاء او عاجية

وبعض العلماء ومنهم ميجو Migeon ومرسيه Marcais وفيت Wiet وغيرهم اتفقوا على ان تلك المميزات نفسها هي مميزات خزف عثر عليه في سامرا وفي الري ^(١٤) وفي سوس وفي قلعة بني حماد وفي مدينة الزهراء (فرساي قرطبة) ولكن الدكتور Dr. Sarre وزميله الدكتور كونيل Dr. Kühnel امين القسم الاسلامي بمتحف برلين يريان ان صناعة الحزف ذي البريق المعدني نشأت في العراق. ويثبت كونيل ذلك بأن المتقنين لم يعثروا في اطلال سامرا على بقايا افران لصناعة الحزف او قطعاً اصحابها التالف في الافران اثناء العمل. ولذلك ذهب الى ان بغداد كانت موطن هذه الصناعة ولا سيما ان المصادر التاريخية كثيراً ما تتحدث عن مدينة المنصور كمرکز هام لصناعة الحزف والفخار ^(١٥). وهذا هو الرأي السائد ومن المحتمل جداً ان نقل هذه الصناعة من العراق الى مصر جاء على يد ابن طولون. وليس بعيداً ان يكون قد أتى معه من العراق بنماذج من الحزف العراقي او بصناع عملوا على احياء صناعتهم في مصر ^(١٦)

(١٢) انظر كتاب Hobson : A Guide to the Islamic Pottery of the Near East.

(١٣) انظر Ali Bahgat et Felix Massoul : La Céramique Musulmane de l'Egypte.

(١٤) مدينة الري : Rhages or Ray وهي مدينة فارسية تقع على بعد بضعة اميال الى جنوبي

طهران. وقد كانت في صدر الاسلام مدينة مشهورة ومركزاً كبيراً لصناعة الحزف وفيها نشأت نماذج عديدة

خاصة بها وقد دمرها المغول سنة ١٢٢٠

(١٥) انظر كتاب « الفن الاسلامي في مصر » لمؤلفه الدكتور زكي محمد حسن امين دار الآثار العربية

(١٦) المصدر السابق



عمر بن عبد الله

ابن ابي ربيعة

- ٢ -

لجبرائيل جبور

احد اساتذة الادب العربي
بجامعة بيروت الاميركية

﴿الناحية الجدية في حياة عمر﴾ : لعل اخبار حب عمر للنساء وتغزله بهن وهواه وعشه طفت على سائر اخباره الاخرى بحيث كادت تستأثر بانتباه المؤرخين . ولهذا فالمشهور عند الادباء اليوم ان احداً من الناس لا يستطيع ان يذكر شيئاً عن الناحية الجدية في حياة عمر ولعل بعضهم يزعم ان عمر لم يجدد في حياته وانما قضى عمره في عبث ومجون ، ولكن الاقدمين ذكروا ان عمر فنك نصف حياته ونسك نصفها الآخر ، ومهما يكن من شأن هذه الرواية المضطربة فهي تدل على ان حياة عمر في زعم هؤلاء الرواة القديما لم تنقض كلها في اللهو . ولقد حاولت ان التمس هذه الجوانب الجدية من حياة عمر فلم ارفي ما بقي من كتب القديما ما ينفع غلة ، والذي يؤيد امر ضياع بعض اخباره رواية اوردها السيوطي وهو من المؤرخين المتأخرين من رجال القرن العاشر للهجرة فيها نبأ ان صح فهو يفيد ان عمر جد كل الجد في بعض ظروف حياته . ولعلك تستغرب اذا سمعت ان هذا النبأ هو ان عمر نقل الحديث النبوي عن امام مشهور هو سعيد بن المسيب ، وقد عرف اتصال عمر به وبعد الله بن عباس وهما من اعظم ائمة ذلك العصر ، وان هناك محدثين نقلوا عنه الحديث هما مصعب بن شيبة وعطاف بن خالد . ولعلك لا تستغرب ان تسمع انه كان يعرف القراءة والكتابة فهذا يبين من شعره وقد كان بالمدينة زمئذ ككاتب يتعلم بها الصبيان . وقد اتصل مع كثير من حبيباته بواسطة الكتبة التي كان يردها اليهن وكن يكتبن اليه ايضاً وقد قال :

انبئت انك اذا ناك كتابنا اعرضت عند قرائك العنوانا

ومن الممتع ان تعلم انهم كانوا يختمون كتبهم بالوف السلامات كما تفعل العامة في هذا العصر

سلم الله الف ضعف عليكم مثل ما قلتم لنا في الكتاب

وقد ألمّ بالقرآن واستعان بمعانيه في شعره الغزلي
 وقد قال : والله قد انزل في وحيه مبيناً في آيه المحكم
 من يقتل النفس كذا ظالماً ولم يقدها نفسه يظلم
 وله : ان الوشاة كثير ان اطعمهم لا يرقبون بنا الا ولا ذمنا
 وله : حدثونا انها لي نقت عتداً يا حبذا تلك العقد
 كلما قلت متى ميعادنا ضحكت هند وقالت بعد غد

وليس غريباً على عمر وقد ولد في جيل كانت الحجاز فيه موسماً لحركة دينية كبرى هزت
 اقطار العالم وكان العرب فيه قد اخذوا بدهشة هذا الدين الجديد ، اقول ليس غريباً عليه ان
 يتصل باسباب هذه الحركة وان يلم بامورها . وقد كان اخوه الحارث رجلاً صالحاً نقل الحديث
 عن الامام علي

وكانت المدينة كما ذكرنا مركزاً عظيماً لهذه الحركة وهذه النهضة الجديدة بما استتبعته من
 امور الاجتماع والتجارة . وكانت جيوش النبي تعمل لهؤلاء العرب في سائر اعمالهم ، وكان
 عمر احد الورثة لبيت تجارة وثروة كما رأينا فلم يكن غريباً ان يقع عليه ، وقد مات والده وهو
 صبي ، عبء مسئولية بعض الاعمال التجارية والصناعية . والرواة يذكرون لنا ان كان له
 عبيد يتصرفون في بعض المهن منهم سبعون في الحوك وان أم والده كانت تتاجر في العطر . ولم
 تقتصر اعماله التجارية على الحجاز فقد سار (فيما يظهر من شعره) في رحلة تجارية الى اليمن
 طمس الرواة اخبارها فذكروا ان اخاه أرسله الى اليمن لينعمه من قول الشعر ، وزعم آخرون
 ان رجلاً باسم مسعدة بن عمرو أرسله في أمر عرض له ، والراجح انه ذهب في تجارته وقد
 ندم على عمله حين عاقته هذه الرحلة عن حضور موسم الحج فقال قصيدته المشهورة :

هيات من أمة الوهاب منزلنا اذا حللنا بسيف البحر من عدن
 وفيها يقول بلسان حبيبة تخاطب رفيقها :

بالله قولي له في غير معتبة ماذا أردت بطول المكث في يمن
 ان كنت حاولت دنيا أو رضيت بها فما أخذت بترك الحج من يمن

ويظهر من شعره أن له أكثر من رحلة الى اليمن عاقه في احداها مرض ثلاث سنوات
 وقام برحلة الى البصرة لمعالجة أسنانه كما ذكرنا وقال في لهو فيها شعراً لم يحفظ لنا منه سوى :

حبذا البصرة داراً في ليال مقمرات

وزار الكوفة ولا نعلم متى ولا لأي غرض . فقد يجوز انه قصد لها وراء احدى الغايات
 العائدات من الحج : وهناك اخبار تشير الى تتبعه عراقية الى العراق . وقد يجوز انه كان يزور

أخاه الحارث والي الكوفة مدة لعبد الله بن الزبير وقد مكث فيها وأحب ليها البارد وماءها وغناء مغنيتين فيها ، وقد قال في ذلك :

يا أهل بابل ما نفست عليكم من عيشكم إلا ثلاث خلال
ماء الفرات وطيب ليل بارد وغناء مستمعين لابن هلال
وله زيارة او اكثر لسوريا لم يذكر الرواة شيئاً عنها ولكنه ذكرها في شعره في غير
قصيدة وبث في هذا الشعر شوقه لمحبة حجازية كان قد شق عليها فراقه ، وتراه يستحث نياقه
ليصل الى حبيبته ولسنا نعلم غرضه في هذه الرحلة ولعله أحد امرين . إما في تجارة وإما في غزوة
ولا سيما وهو يذكر في شعره ان فاته حين ودعته الى الله ان يعيده سالماً مأجوراً ونحن
نستبعد جهاد عمر في غير الحب ولكننا لا نشكر انه قال :

كتب القتل والقتال علينا وعلى الغايات جر الذبول
وقد نشأ في المدينة نشأة أدبية وكان أولاد بعض الاشراف يتأدبون على أيدي معلمين
رووهم الشعر ، فألم بشعر الكثيرين من سابقين ومعاصرين وتأثر بعضهم . والذي يدرس شعره
يرى انه قد أخذ عن امرئ القيس وحسان بن ثابت والاعشى وعنترة وزهير والناطقة وعلقمة
وأبي القيس بن الصلت والخنساء والحطيئة والاسود بن يعفر والمثقب العبدى وعدي بن زيد
 وغيرهم وهذا يدل على سعة اطلاعه ولعله كان أميل الى تأثر امرئ القيس منه الى تأثر اي
شاعر آخر . ومن يقرأ قصيدة عمر :

خليلي مرّاً بي على رسم منزل

يتخيل انه يقرأ شعر امرئ القيس . وكان لعمر أثر كبير في الحياة الادبية في ذلك العصر
فكان يعارض بعض الشعراء من معاصريه ، وكان يعارضه آخرون وكان يعنيه من هذه الخصومة
قيمتها الادبية . والرواة يحدوثنا ان الحزين الكناني الشاعر لقي عمر وعارضه وهجاه وعيره
باسوداد ثنيته او كسرهما وقال :

ما بال سنك أم ما بال كسرهما أهكذا كسرا في غير ما بأس
أنفحة من فتاة كنت تألفها أم نالها وسط شرب صدمة الكأس
ولكن عمر لم يرد عليه باكثر من اذهب ! اذهب ! ويلك ! فانك لا تحسن ان تقول
ليت هنداً أنجزتما ما تعد وشفت انفسنا مما تجد
واستبدت مرة واحدة انما العاجز من لا يستبد

ولسنا نعلم تماماً متى كان اول عهده بالشعر . وليس هناك أثر من الصحة للروايات التي تذهب
الى ان اول قصيدة نظمها كانت :

أمن آل نعم انت غادر فبكر غداة غد ام رأنح فبهجر

وانه انشدها لأول مرة امام ابن عباس عندما وفد عليه ابن الازرق . فقد كان وفود ابن الازرق حوالي عام ٦٠ هـ . وكان عمر عامئذ في السابعة والثلاثين من عمره . وقد نسب اليه شعر قيل في واقعة الجمل التي وقعت وهو في الثالثة عشرة من عمره ولم يكن هذا بغريب على شاعر مطبوع مثل عمر . ويظهر انه نظم في صباه وشبابه شعراً كثيراً غمها حتى اذا قويت ملكة الشعر فيه ونظم الشعر الجيد قال جرير ما زال يهذي هذا الشاب حتى قال شعراً

وهناك شطر من حياته قضاء بغير هذا اللهو الذي عرف به وقد غالى بعض الرواة فجعلوه نصف حياته بل اكثر من النصف ، ذلك ان عمر لم يجاوز السبعين من عمره . ولكن هؤلاء الرواة اطالوا عمره فجعلوه ثمانين ثم اشفقوا ان تنقضي هذه السنوات كلها في الاثم والمنكر فأتابوه بعد الاربعين وقالوا فتك (٤٠) ونسك (٤٠) وهو لذلك قد فاز بالدنيا والآخرة . والواقع انه لم يتب بعد الاربعين ولم يكن لهوه في سنواته الاخيرة كلهو الشباب . وكل ما في الامر ان عمر لما ما امكنه ان يلهو حتى اذ فترت سورة اللهو به بكى شبابه ثم كبر فاخذ ينصرف الى ما يقتضيه وقار الشيوخ من هدوء وسكون . ولعله مال الى امور الدين فأثر ما اثر عنه من حديث ولعل اخفى ما في تاريخ عمر موته . وهو شيء غريب فالرواة والمؤرخون قد عودونا ان يختلفوا في امر ولادة من يترجمون حياته لان احداً من الناس لم يؤت النبوة ليعلم ان هذا الصغير الذي يوضع سيكون له شأن . اما ان يختلفوا في ظروف موت شاعر طبق العالم العربي صيته فهو امر ذو بال . ولست ارى مجالاً لاسرد روايات موته المختلفة بالتفصيل فالبعض قد اماته مجاهداً في دهلك (جزيرة في البحر الاحمر) وزعم ان عمر غزا في البحر مجاهداً فاحترقت سفينة وغرق شهيداً . ولعل صاحب هذه الرواية هو من هؤلاء الذين اشفقوا على عمر فاتابوه نصف حياته ودفعوه الى البحر غازياً ليستشهد وليفوز بالدنيا والآخرة

وزعم البعض الآخر ان عمر نظر الى امرأة جميلة شريفة في الطواف فذهب عقله فكلما فلم تحبها فذكرها بشعره وقال فيها :

الريح تسحب اذبالاً وتنشرها يا ليتني كنت ممن تسحب الريح

فبلغها شعره وجزعت منه وقيل لها اذكره لزوجك فانه سينكر عليه قوله فيك فقالت : كلا والله لا اشكوه الا الى الله ثم قالت اللهم ان كان نوه باسمي ظالماً فاجعله طعماً للريح فضرب الدهر من ضرباته ، ثم ان عمر غدا يوماً على فرس فهبت ريح فنزل فاستتر بساعة فعصفت الريح فغدشه غصن منها فدعى وورم به ومات من ذلك . ولعل اصحاب هذه الرواية هم من الذين شأوا ان ينتقم الله من عمر فاماتوه بدعاء امرأة شريفة حاول التعرض لها . ولو شئت ان اعدد اخبار من

ما تواتر في التاريخ العربي بدءاً أحد الناس عليهم لطال بي المقام
وهناك رواية لا تشير الى شيء صريح مفصل عن أمر موته ولعلها أقرب الروايات الى
الصواب . قالوا لما مرض عمر مرضه الذي مات فيه جزع اخوه الحارث الخ وهذه
الرواية ان صحت تشير الى ان عمر قد مات على البعيد في خلافة الوليد بن عبد الملك ويجب ان
يكون قد مات من مرض لا من حادث مما ذكرنا . وهناك اخبار تشير الى انه كان آخر حياته
كالقعد يتوكأ على مولى له وليس ادري كيف يمكن لمثل هذا ان يغدو على فرسه او ان يغزو
في البحر . ومهما يكن في الأمر فان عمر مات قبل السبعين

ولعل للبرداء « الملاليا » أثر في تهديم جسم هذا الشاعر الجميل ، فقد كانت تنتابه من
حين الى حين وكانت أقوى نوباتها له في رحلة ارتحلها الى اليمن بعيداً عن اهله فلم تفارقه ثلاث سنوات
ولعله مات غريباً عن وطنه فاني لا أرى أعظم من هذا سبباً يدفع الرواة الى الاختلاف
في أمر موته . ذلك أهم ما في حياة عمر من جد الأمر وما كنت أظن ان الناس يلتفتون الى
عمر لو اقتصرته حياته على هذا بل انا أعلم ان بعضهم لا يهجمه من امر عمر سوى ما اشتهر به
عمر ألا وهو حبه وشعره

حبه : يزعم البعض ان عمر لم يحب بقلبه وإنما أحب بعقله ولسانه . ويدللون على هذا
بتعدد محبوباته ويصرحون ان من أحب غير واحدة فقلبه لم يحب . وكنت اود لو كان المقام
يسع لي لأظهر فساد هذا المذهب ، ولكني أعلم ان كثيراً من الناس قد خفقت قلوبهم لأكثر
من شخص . واذا كانت العوامل التي توقظ الحب وتحرك القلب وتوقد الحس وتلهب العاطفة
قد وجدت في شخص فلست أرى ما يمنع ان يحب الواحد أكثر من شخص . ويتهمون عمر في
حبه لأنه حضري لا بدوي ويدللون على ذلك في أنه قلما صدق للحضريين حب او تبقى لهم صباة
وكل حضري يعلم فساد هذا القول

واذا فرأيت أنه ليس هناك من سبب يحملنا على اتهام عمر في حبه . فليس الحضريون
مكذبين في عشقهم ولا المعددون خائين في حبه ولم يكن عمر كاذباً في حبه حيناً ترك الحجاز
وراء فتاة احبها الى العراق يشيعها ، ينزل بنزولها ويرحل برحيلها حتى ردا العراق فترجمه بالتي
هي احسن ويعود وقلبه معها بعد ان وعده الموسم القادم . ولم يكن عمر كاذباً في حبه حيناً
تزوجت الثريا وانتقلت الى بلد بعيد فانه لم يهجر حبها ولا سلا ذكرها بل سار وراءها يتلمس
خطاها على اديم البداء الفاصلة بين الشام والحجاز وكتب لها وقد بلغه فراقها متوجعاً :

كتبت اليك من بلدي كتاب موله كمد
كثيب واكف العينين بالحسرات منفرد

يؤرقه هيب الشوق بين السحر والكبد

فيمسك قلبه يديه ويمسح عينه يده

وارادت الثريا اختبار حبه فدست له من الطائف وهو بمكة من خدعه وانبأه أنها ماتت فاعتلى صهوة جواده لساعته واستحسنته إلى الطائف وقد اقلقه النبأ وأزعجه فراها تنتظره وادركت أنه الحب الأمين أما هذه العوامل التي كانت تدفع عمر إلى الحب فتعدده شأنها اليوم وأهمها الجمال فقد كان مغرى به أو على تعبيره الخاص موكلاً به يتبعه أنى رآه . وكان قلبه طوع هذا الشعور بالجمال فكان يخفق له . ويظهر أنه كان دقيق الحس في ادراك الجمال فلا يكاد يلمسه في وجه فتاة حتى يضطرب قلبه لهذا الشعور الذي غمره ولهذا النور الذي سطع لعينه فيحاول في فنه أن يجلوه للناس كأنما هو خاف عن أعينهم فهو والحالة هذه قد أحب بحبه ثم بقلبه

ولم ار في كل اخبار عمر ذكراً لفتاة احبها الا وقد ذكر الرواة معه انها كانت من اجل نساء دهرها . واذا كنت تريد معرفة عدد محبوبات عمر فليس عليك الا أن تعدد الجميلات في ذلك العصر ممن كان يمكن ان تقع عينه عليهن أو يتصل به علمهن . واذا كنت تريد ان تعرف الجميلات في ذلك العصر فليس عليك الا أن ترجع الى شعر عمر فقد خلد ذكرهن بل لقد كان بعضهن يرين دليلاً على الجمال ان يذكرن في شعر عمر . ولقد اعترضت الثريا ذات يوم على شعر بلغها قاله عمر في امرأة يظهر أنها لم تكن جميلة الوجه أو الثريا كانت تغار منها فقالت : افى له ما أكذبه أو ترتفع حسناء بصفته لها بعد اليوم !

ولقد شهر في تقديره للجمال الى درجة ان احتكت اليه ذات يوم سكينه بنت الحسين وعائشة بنت طلحة في أيهما اجل فقال لعائشة أنت اجل وقال لسكينه أنت أمتع وأرضى كليهما ويطول بي المقام لو فصلت لكم حوادث عمر مع من زعم ان له علاقة بهن ، فهن كثير . وقد ذكر في شعره اسماء صريحة لا أكثر من عشرين امرأة بعضهن من اشهر نساء الاسلام على الاطلاق . ويكفي ان اذكر منهن الثريا بنت علي بن عبد الله وعائشة بنت طلحة وسكينه بنت الحسين وفاطمة بنت عبد الملك بن مروان ، وكفى بأكثر من خمسين اسماً عن فتيات حيل بيننا وبين معرفهن ولعل اصدق حب عرف عن عمر واقواه قد قسم بين ثلاث هن الثريا وعائشة وزينب بنت موسى الجمحية ، وقد افلتن من يده جميعاً فزوجن واعقبه زواجهن لوعة وحسرة . وقد كنى عن فتاة باسم نعم وكنى عن أخرى باسم هند وهما ان لم تكونا من النساء الثلاث اللواتي ذكرنا فقد شاطرتاهن قلب عمر . وقصص عمر مع حبيباته من اجل القصص وقد انتشرت في اكثر كتب الادب العربي وارجو ان يكون في كلتي هذه حافز للقارئ الكريم ان يطالع هذه القصص الشيقة الممتعة

العقلي والمادى

في الفلسفة الحديثة

لفيلسوفه هورى

من اهم القضايا التي اشتغل بها اهل الفلسفة منذ القديم ولعلها اهم تلك المسائل وأبعدها تأثيراً مسألة العقل والمادة . وان الفلسفة لا تزعم أنها توصلت فيها الى حقيقة راهنة او رأي حاسم . الا أن الفلاسفة في غضون معالجتهم هذه المشكلة الفلسفية تمكنوا من كشف النقاب عن حقائق هامة جدير بكل مثقف الاطلاع عليها والاستنارة بها اذ انه على معرفتها يترتب كثير من شؤون المرء ومعتقداته الخاصة

ان كثيرين ممن خاضوا عباب هذا البحث حتى من فريق الفلاسفة انفسهم توصلوا للاسف الى نتائج خبيثة كان لها الاثر السيء في حياة الذين أخذوا بتلك الآراء واعتصموا بتلك المبادئ . ويعلم الكثيرون من اهل الاطلاع انه طغت على العالم الغربي في اواسط القرن الماضي موجة عظيمة من امواج المادية فاكتمست ممالك الغرب من اقصاها الى اقصاها واغرقت كثيرين في عبابها واتصلت اطرافها بعد ذلك بقليل بالبلدان الشرقية فهوى كثيرون ايضاً في لججها ومن يعلم ما يكون من اخطارها المقبلة وعواقبها الوخيمة في مستقبل الايام

ولا غرو ان يكون الامر كذلك فان البشر كما يقول العلامة الفيلسوف الاميركي هبسن « لا يزالون تحت تأثير المنظور اكثر من غير المنظور وانهم ليأخذون بالمحسوس اكثر بما لا يقاس مما يأخذون بالمعقول »

لذلك لا يلام البعض من غير طلاب الحقائق اذا اقتصرُوا على القدر اليسير من المعرفة . ولكن يلام فريق المتنورين وطلاب الحقائق الكلية اذا وقفوا عند حد المادة ولم يتجاوزوه الى الامام بما اقره اقطاب الفلسفة ورجال العلم بهذا الصدد بعد جهود القرون وتفكير الدهور . وان المراد بهذا البحث الاشارة الى كيفية تطور هذه الفكرة فكرة المادة والعقل والأدوار التي مرت عليها منذ القديم الى يومنا هذا

معلوم ان فلاسفة اليونان وبنوع خاص الفيلسوف أريسطاطليس كانوا قد قسموا عناصر الوجود الى قسمين عظيمين المادة والعقل . وهذا هو مذهب التنشئة الذي لا يزال يقول به الفريق الاكبر من الفلاسفة الى يومنا هذا . وهو يناقض مبدأ ديمقريطوس في الوحدة المادية . وديمقريطوس هو أبو الماديين وزعيم الفكرة التي لا يزال عليها الماديون حتى اليوم . الا ان فلاسفة اليونان لم يحددوا المادة والعقل تحديداً جلياً ولا فصلوا بينهما على النحو الذي قام به الفيلسوف الفرنسي ديكارت (١٥٩٦ — ١٦٥٠) ولهذا بقي الرأي القديم في المادة والعقل على شيء من الابهام الى ان قام ديكارت فحدد كلا منهما وميّز بينهما تمييزاً تاماً اذ قال ان العقل يختلف اختلافاً كلياً عن المادة بل هو نقيض المادة وليس ثمة اي مماثلة او تشابه بينهما — ان خاصة الجسم المادي الامتداد وخاصة العقل التفكير وكلاهما مستقل بدائرتيه الخاصة ولا يمكن ان يكون بينهما شيء من التفاعل او العلاقة السببية . هذا هو رأي ديكارت على سبيل الايجاز الا انه لا ينطبق في بعض وجوهه على الحقيقة الواقعة فالإنسان اذا اراد تحريك يده مثلاً فانه يحركها في الوقت الذي يشاء وعلى الصورة التي يريد . فهنا واضح ان شيئاً عقلياً هو الارادة يفعل او يؤثر في جسم مادي هو اليد . اذاً كيف يمكن وقوع مثل هذا الامر والعقلي والمادي شيان متناقضان حتماً وليس من علاقة سببية بينهما بوجه من الوجوه . ان هذا الامر اوقع ديكارت في حيرة عظيمة وكان مشكلة فلسفية زمناً طويلاً . وهي الحيرة التي جعلت فولتير يلقب نفسه احياناً بالفيلسوف الجاهل وكان يطربه ان يلقب نفسه كذلك . وكثيراً ما كان يردد هذه العبارة ويراسل بها بعض اصدقائه من اهل الفلسفة مثل ديدرو وغيره وهي « ما قيمة هذه الفلسفة التي لا تستطيع ان تعلمني كيف او لماذا احرك يدي »

وقد علل الفلاسفة من اتباع ديكارت مثل مالبرانش وغالنكس وغيرهما هذا الامر بطرق مختلفة أشهرها الطريقة المعروفة بنظرية التقابل Parallelism ومؤدى هذه النظرية ان المادي والعقلي كلاهما في دائرتيه الخاصة مستقل عن الآخر . غير انه عند حدوث اي حركة في الدائرة الواحدة يحدث التأثير الذي يشاكلها في الدائرة الاخرى على سبيل التقابل . ولكن لا على سبيل ان حركات الواحدة هي علة الاحساس او التأثير في الاخرى بل ان كليهما يحصلان معاً باتفاق لا نستطيع ادراكه

ويمكن تمثيل ذلك بايقاع عدد من الاصوات المتتابعة والمتوافقة معاً فانه يقوم لكل صوت عند الايقاع معنى خاص في الذهن . فلا يعقل ذلك بان الاصوات هي التي احدثت المعاني اذ

لا يوجد اي شبه بين الحركة الصوتية والمعاني العقلية . بل ان الاصوات والمعاني قامت في ذهن السامع معاً وذلك باتفاق غريب لا ندرك كنهه وهذا هو المراد بنظرية التقابل هذه . بيد ان اهل الفلسفة لم يستطيعوا الوقوف عند حدود هذه النظرية اذ انه مع الاعتراف والتسليم بنظرية ديكارت من انه لا يمكن وجود اي تشابه في الماهية او في العمل بين المحرك او المؤثر المادي والعمل العقلي الا ان الصلة بينهما اكدية وتأثير احدهما في الآخر لا يمكن نكرانه فالفكر يؤثر في حالة الجسم واحوال الجسم تؤثر كثيراً في الحالات الفكرية . اذ لا بد ان يكون هنالك علاقة متينة لا مندوحة من التسليم بها او مخرج مشترك بين الاثنين يفسر هذا التفاعل بينهما وهذه الصلة القوية التي تربط احدهما بالآخر . وهذا ما ادى الى نظرية سبينوزا^(١) الفيلسوف الهولندي صاحب المذهب الحلولي (Pantheism) وهي ان المادي والعقلي هما وجهان او مظهران للمادة الواحدة الاصلية العامة والتي ليست في ذاتها لا مادة ولا عقلاً . ومؤدى نظرية سبينوزا هذه ان العقلي والمادي شيان متلازمان ملتصقان . حيث توجد مادة فهناك عقل ايضاً فلا مادة بلا عقل ولا عقل بلا مادة . وان هذه النظرية هي ذات شأن خطير في عالم الفلسفة . وكثير من فلاسفة هذا العصر يرجعون اليها في معظم بحاثهم . وكانت هذه النظرية في العصر الاخير بنوع خاص مذهب الفيلسوف الانكليزي هربرت سبنسر والفيلسوف الالماني نغز

اما الفيلسوف لينتز (١٦٤٦ — ١٧١٦) فيرى ان جواهر المادة ليست الا مراكز قوة او مجموع قوى متعددة انما اذا اردنا تعريف هذه القوى فيقال انها روحية اكثر منها مادية لهذا فان لينتز يقلب العنصر الروحي كثيراً على المادي وقد كانت نظريته هذه دعامة قوية لاصحاب المبدأ الروحي في الفلسفة

ويطول بنا المقام اذا اردنا ان نعدد آراء كل من اهل الفلسفة بهذا الصدد ولكن نقول بوجه الاجمال ان الاتجاه الفلسفي بعد عصر ديكارت ولينتز وسبينوزا قد كان في جهة المبدأ الروحي وكان قد اخذ هذا المبدأ بالتقدم على المادي منذ وضعت نظرية التقابل المذكورة آنفاً فلم يعد ممكناً اعتبار القوة العقلية نتيجة من نتائج الحركة المادية او اثرها من آثارها كما يزعم اصحاب

(١) هو الفيلسوف الهولندي الشهير (١٦٣٢ — ١٦٧٧) صاحب مذهب الحلول المعروف باسمه Spinonizm

الرأي المادي . واستمرت هذه الفكرة في نمو وازدياد الى ان بلغ المذهب اوج سيادته في النصف الاول من القرن الماضي في فلسفة الفلاسفة الالمان من كانت الى هيغل وفختي وشوبنهاور . وكانت فلسفة هيغل وشلنغ بنوع خاص فلسفة عقلية محضة (Absolute Idealism) أي القول بوجود العنصر الروحي فقط دون المادي في الوجود

واذ ثبت هنا نظرية الفيلسوف الفرنسي فوييه (A. Fouillée) ١٨٣٨ — ١٩١٢ وهو يريد بها التوفيق او الجمع بين الرأيين المادي والعقلي فالتا نعبر عن رأي الكثيرين من اهل الفلسفة في هذا العصر الاخير

يقول فوييه ان الماديين يخطئون بزعمهم ان كل السر في الحركة المادية بصرف النظر عن العوامل الاخرى . كما يخطئ العقليون بجعلهم العقل الكل في الكل بقطع النظر عن العنصر المادي . ان العقل والمادة او الحياة والوجدان يعملان معاً في الطبيعة كمبدأ واحد شامل وما هما الا وجهان او طريقتان لادراك الشيء الواحد كالمعنى المفرد يدل عليه لفظان مترادفان . وما التأثيرات او الانفعالات العقلية الا مظاهر او نتائج لعوامل حسية مادية قنيًا . اما الوجود العقلي فهو الحقيقة الواحدة التي اعطي لنا ان ندركها مباشرة . لهذا يحق لنا ان نقسرها هذا الوجود على هذا النحو اي انه مظهر الحركة او النشاط العقلي او بانه قوى فكرية فقط — Idées-forces

اما فريق الماديين فاذ كانوا لا يستطيعون التحول عن وحدتهم المادية لثلاث ينتقض مذهبهم من اساسه فقد زعموا ان العقل ليس سوى نتيجة الحركة المادية في الدماغ وهي اهتزاز دقائقه وما الفكر الا وظيفة الدماغ كما ان الهضم وظيفة المعدة . بيد ان جمهور الفلاسفة لا يعيرون هذا القول التفاتاً ولا يحسبون له قيمة فلسفية لانهم يرون ان زعماء هذا الرأي يعكسون الآلية فيجعلون العقلي تابعا للمادي بينما الامر على العكس من ذلك تماماً

أقول وليت أدباء هذه البلاد وأعني منهم الفارقين في لجج المادية يقتدون على الأقل بفلاسفة العالم فلا يحتمون ويجزمون بأمور هي فوق طاقة العقل البشري ان يبت فيها حكماً جازماً . ولا أخاطبهم ينكرون ان هذا الانغراق في المادية له عواقبه السيئة في الآداب والمبادئ والاخلاق ولعلمهم يدتكرون

أثر نيتشه

في العصر الحاضر

لـ إبراهيم إبراهيم يوسف

ما كاد يبلغ نيتشه سن الرابعة والأربعين عام ١٨٨٩ حتى اتباه خبل عجز الطب عن علاجه ولم يمهل الله بعد ذلك إلا قليلاً ليتوفاه . وهكذا لم يتيسر لنيتشه ان يرى بنفسه مبلغ ما أحدثته كتاباته من أثر شامل في التفكير الانساني ، الا أنه ما كان ليشك لحظة مدى حياته الحسنة في ان اليوم الذي تروج فيه تعاليمه آت لا شك فيه ، على الرغم من ان معاصريه أساءوا فهمه ونفروا منه ، فضنى لذلك . وقد عبر في مقطوعة من الشعر عن مرهف احساسه قال فيها :

« انقضى عشرون عاماً — »

« ولما تصلني نقطة ماء ، »

« أو نسيم ليل ، أو ندى حب ، »

« — بلد لا مطر فيها . . . »

وكتب في شهر فبراير ١٨٨٨ : « على الرغم من اني بلغت الخامسة والاربعين من العمر ولي نحو خمسة عشر مؤلفاً ، ينها كتاب لا مثيل له هو « زرادشت » (Zarathustra) لم يتقدم شخص في المانيا لنقدها نقداً له أي اعتبار ، بل ولا لنقد كتاب واحد من كتي »

وكابد نيتشه صعوبات جمة ليجد ناشرأ يطبع له الجزئين الثاني والثالث من كتاب « زرادشت » واضطراً لان يطبع أعداداً محدودة من الجزء الرابع على نفقته الخاصة ، بعد ان أحجم الناشرون عن قبوله . اما اليوم فالمطابع في المانيا تخرج مئات آلاف النسخ من مؤلفاته في كل عام ، علاوة عن خطابه التي نشرتها في ستة اجزاء . وكتبت شقيقته تاريخ حياته مفصلاً أروع تفصيل . وظهرت مئات الكتب تبحث في شخصيته وماهية تعاليمه ، ونشرت الجرائد والمجلات مئات آلاف المقالات عنه — ذلك في المانيا وحدها التي تنكرت له من قبل

هذا ما لقيه نيتشه من بعد وفاته عن طريق الكتابة والكتب ، اما عن طريق الخطابة فقد كان جورج براندس (Georg Brandes) الناقد الدنماركي العظيم ومؤرخ الادب العالي اول من حضر عن نيتشه محاضرات عامة ، وكان ذلك سنة ١٨٨٨ . وما اقبل عام ١٨٩٥ حتى بدأت المحاضرات العامة عنه تتعدد في مختلف البلاد . الا ان المحاضرات الجامعية عنه لم تلق في المدارس العالية في المانيا الا سنة ١٨٩٥ ، حيث بدأها الاستاذ اليوس ريل (Aloys Riehl) في جامعة فرايبورج (Freiburg) . وسرعان ما تحت الجامعات الالمانية هذا النحو ، حتى اصبحت المحاضرات عن نيتشه من المقررات الجامعية منذ ثلاثين سنة اويزيد . ولم يقف تيار هذه المحاضرات عند هذا الحد بل سرى في المانيا الى المدارس الشعبية العليا (Volkshochschulen) والمدارس الاهلية العليا (Freien Hochschulen)

كذلك ترجمت جميع اعماله لعدة سنين خلت بمختلف لغات فرنسا وانكلترا وبولونيا وايطاليا واسبانيا واليونان والسويد والدنمارك وهولاندا وروسيا وتشكوسلافيا والمجر ورومانيا وبلغاريا واليابان وغيرها . كما ظهرت في تلك البلاد كتب ومقالات لا حصر لها عن نيتشه . كذلك اصبحت المحاضرات الجامعية عنه في تلك البلاد امرأ مألوفاً

اما مدى تطور الحركة التي اوجدها نيتشه فالرأي فيها منقسم الى وجهتين . فاصحاب المذهب الاول يرون ان الحركة قد بلغت غفوانها في حياة نيتشه وهؤلاء ينظرون الى الحركة في شخص زعيمها . واصحاب المذهب الاخر يؤمنون بان الحركة لم تبلغ بعد منتهاها ، اذ الاثر العميق لتعاليم نيتشه الصحيحة لم يبدأ بالظهور في التفكير الانساني الا حديثاً . وما من احد توفر على درس ومتابعة اثر نيتشه في الاتجاهات الروحانية والفنية والثقافية والاجتماعية لعصرنا الحاضر الا ويقر بان الحركة النيتشوية ما زالت سائرة في طريق التقدم المضطرد . ونظرة واحدة الى عدد الدراسات العلمية الخاصة بابحاث في تعاليم نيتشه ، تلك الدراسات التي تزايد عاماً بعد عام في كل بلد من البلدان المتحضرة ، لدليل على تغلغل آرائه في المجتمع الانساني . ولحسن الحظ اخذ في التقصان على توالي الزمن عدد الذين اساءوا فهم نيتشه فشوهوا تعاليمه ورموه بالغلظة والفظاظة . ومن ثم نجلى الفيلسوف نيتشه كأفضل مدافع ضد الاستهتار وجروح النفس التي لا تعرف لها رابطاً ولهذا كانت حملته ضد الانانية والذاتية والاثرة شديدة قاسية قسوة لاهوادة فيها — الى حد انه كان صارماً مريراً في نذيره ، اذ يقول :

« اتمنى للذين يرتاحون لدعوتي ان تتباهم بالآلام والامراض والحن ويصابون بسوء المعاملة

والتحقير والانتباز من الناس — أمتي لهم احتقاراً يصيبهم في انفسهم ، وعذاباً يتولاهم لعدم الثقة بهم ، وان لا يحرموا من بؤس حالات طور الانتقال : لهؤلاء لا أحمل عطفاً ، لاني اريد لهم شيئاً واحداً ثبت ان كان للشخص منهم قيمة او لا — هنا تتبين القوة . قوة الصمد »
ولمثل هذا أسيء فهم نيتشه ، بل وانتهى سوء الفهم الى دوائر العلماء انفسهم فلم يفقهوا اذ ذاك نيتشه كناقذ اخلاقي ، وداعية لمكارم الاخلاق ، اصيل في نبل تفكيره الا ان افراداً قلائل ملكت دعوات نيتشه الروحية الحارة عليهم كل مشاعرهم ، فراحوا يعملون لها

وكان نيتشه قد رأى ان الاسس الروحية للمجتمع قد اصابها التشقق وحل بها الانهيار وطراً عليها التعفن ، فتأففت هذه الاسس البالية وطبيعة الحياة ومن ثم بدأ بالاستعداد لبناء ثقافة انسانية شامخة ، جديدة في كل نواحيها ، اساسها الاول كبح النفس دون هواده ، وترويضها على اقصى حالات الحياة ، والخروج بها من ذاتيتها الى التسامي . واساسها الثاني الاستعداد المطلق للتضحية من دون شرط لبلوغ الغاية — اي البطولة في أقوى مظاهرها . وبقي ذلك كله شعار الذين يعتقدون فيما بينهم وبين انفسهم انهم المطالبون باقامة هذا البناء الجديد ، مقتدين في ذلك بامامهم نيتشه ، الذي تمكن بحياة البطولة الفذة التي عاشها ، ان يشق طريقه الى صفوف القلائل الذين أنوا للعالم بديانات جديدة . ومهما يكن مركزنا من تعاليم نيتشه فهي على اي حال تحوي عوامل غاية في القوة لتربية خلقية جديدة

وليس هنا مجال التحدث عن كل ما انتجته سوء الفهم لتعاليم نيتشه من افكار تختلف بين الخطورة وعدمها . الا ان تفسير « قوة الارادة لبلوغ السيطرة » (Der Wille zur Macht) تفسيراً خاطئاً جرّ كثيراً من الولايات على الناس . فقد فسرهما مثلاً أعداء المانيا خلال الحرب العالمية بأنها دعوة صريحة الى الحرب وغزو العالم . واشركوا الفيلسوف نيتشه مع المستعمر السياسي ريتشكة (Treitschke) والقائد العسكري فون برناردي (von Bernard) كدليل على ان الالمان بفلاسفتهم وساستهم وقوادهم الحريين ييغون الحرب لامتلاك العالم . والغريب ان المانيا الهتلرية اخذت اليوم بما اخذ به أعداء المانيا خلال الحرب العالمية ولم تتورع في الاساءة الى نيتشه باظهار تعاليمه على غير حقيقتها . ولعل نيتشه لم يوصم بما هو اخطر من هذه الدعوى . واذاً « فالحاجة حقاً ماسة » — كما يقول الدكتور ماكس بران Dr. Max Brahn في مقدمة وضعها لكتاب « قوة الارادة لبلوغ السيطرة » لمؤلفه نيتشه — « لكي نشير الى انه ليس من المقصود هنا القوة الظاهرية التي تتجلى في ادوات الحرب ، بل هي القوة الباطنية للنفس

البشرية ، تلك القوة الهائلة التي تأتي الآ أن تزايد ، ومن ثم تتوسع في سيطرتها ولا تمل في تحجيه شجاعته التي تتشعب قوية ثم تدفع بعظمة فتجد قوتها في سيطرتها على نفسها وفي اداء واجباتها نحو الآخرين »

ولنطرح تلك الدعاوى السخيفة التي ارادوا ان يلصقوها بنيتشه جانباً لنفقد اثره في التفكير الانساني ، سواء كانت ميادين هذا التفكير تشمل المسائل الفلسفية او الثقافية او الفنية او المسائل العلمية العامة . وسواء كانت المشكلة هي مشكلة التعليم او التربية او الحركة النسائية او قانون الاقصاص او المشكلة الاشتراكية — فكل هذه وغيرها من الامور يجدها العاكفون على دراسة نيتشه واضحة في كتاباته . ولعل الاستاذ دكتور فرزييجبر (Prof. Dr. Werner Jaeger) قد افصح غاية الافصاح عن معالم تفكير نيتشه في محاضرة له تكلم فيها عن « عمل الجامعة وموقفها من العصر الحاضر » فذكر فيها : « اما فيما يختص بنشأة تاريخ العلوم العقلية وتطورها اللغوي فان شأنها يزداد على توالي الايام »

ولا حاجة لمعالجة كل مسألة على حدة ، اذ يكفي ذكر اسم نيتشه الذي لم يكن فيلسوفاً بالمعنى المدرسي القديم ، بل كان يفيض بالحكمة لما كان عليه من قوة النبؤ ، نظراً لمامه بكل نواحي التفكير العقلي لتاريخ العالم ، وخاصة المامه بكنوز الثقافات الاوروبية

ومع ان نيتشه نشأ خلال العصر اللغوي الكلاسيكي ، فانه ارجع اول تهدم عظيم اصيب به العصر اللغوي والعصر التاريخي الى الفلسفة المدرسية ، التي كانت لا تعرف قيم الاشياء الا عن طريق التعاريف الصماء ، لا عن طريق التفسير والايضاح لاساليب الحياة الواقعية اثناء تطور التاريخ وقواها . فلما ان تبدل الرأي وتبدلت طريقة النظر الى الامور قضى الحال بتغيير مقاييس الاشياء وموازينها ، فتبدل تبعاً لذلك الحكم على الاشياء وتقدير قيمتها . ومن ثم بدى بالنظر الى حوادث التاريخ والى الفن والادب من زاوية جديدة . ويكفي ذكر اسم الفيلسوف « اسفالد اشبنجلر (Oswald Spengler) صاحب كتاب « سقوط الغرب » (Untergang des Abendlandes) لنعرف مبلغ اثر نيتشه في العصر الحاضر . وما كان التفكير ليقود اشبنجلر الى مؤلفه الذي اثار به ضجيجاً في عالم الفكر لو لم يحرص على اقتفاء خطوات استاذه وامامه نيتشه

ولعل احصاء ما لنيته من آثار في مختلف نواحي الفكر الانساني يستلزم استيفائها في مجلد ضخم . ولهذا يجمل بنا ان نكتفي هنا بالاشارة الى بعضها . فمن المشاهد ان العالم اليوم يتجه رأساً نحو المسائل الاجتماعية ، حتى اصبحت « مشكلة حياة الجماعة » لدى كل الشعوب المتحضرة رأس المسائل . ولا عجب ان تكون هذه اكثر المسائل تناولاً بالبحث ، واغناها بوفرة الذين

يتنافسون في دراستها ويتهاقون على استيعابها ، كما يتمكنوا من تفسيرها ، وحلها ، والادلاء برأي في تكوينها ، وتصويب منهجها أو تخطئته ، وحصر عوامل نشأتها ، وشروط تطورها . وبالاختصار تحديد اصول الحياة الاجتماعية والتطورات الاجتماعية عامة واغراضها . ولقد نجد فيما اصدره ناشر اعمال نيتشه تحت عنوان « كلمات نيتشه عن الدول والشعوب » (Wietzsche-Woerten ueber Staaten und) كل الآراء التي بسطها نيتشه في مؤلفاته في هذا الموضوع الخطير . ويرجع فضل جمعها الى شقيقة الفيلسوف التي بقيت زهاء ثلاثين عاماً توالي درس نيتشه من جميع نواحيه . ولم يعد الامر مقتصر اليوم على الاختصاصيين في معرفتهم ان الفضل في تقدم علم النفس (البسيكولوجيا Psychologie) وعلى الاخص « علم التحليل » النفساني على طريقة فرويد Freud Psychoanalyse راجع الى نيتشه ، الذي تمكن من العثور على نفائس هذا العلم اثناء بحثه عن الروح دون ملل ، واثناء ارياده « العالم السفلي للارواح . وانصافاً للعلم لا بد من القول بأن فرويد (Freud) يعد وريث نيتشه الاوحد ، وان الفرد أدلر (Alfred Adler) ، وهو صاحب مذهب في علم النفس احد تلاميذه النجباء . فقد رأى نيتشه في كتابه « قوة الارادة لبلوغ السيطرة » صوراً خالدة في عالم الارواح والى جانب هذا يزداد في كل يوم الدليل قوة على ان حركات الشباب بما فيها من طموح الى تكوين الشخصية العملية ، أخذت تعترف بنيتشه كداعية لهذه الحركات ان لم يكن بطلها وقائدها . فهو الذي وجه مر انتقاده منذ نصف قرن او يزيد الى طرق التربية . ورأى ان الحاجة تدعو الى ضم الشباب وحشدهم في أتون واحد بدلاً من تشتتهم في هيئات مختلفة . ولقد أخذ بهذا الرأي اخيراً في بلاد مختلفة ذات نزعات فكرية متباينة . ولسنا هنا في صدد بحث اختلاف اتجاه الشباب في مختلف الشعوب فذلك موضوع آخر

واخيراً يصح لنا ان نتساءل كيف تمكن عقل شخص فرد من الاحاطة بكل هذه الافكار الخصبه خلال وقت قصير ؟

قد يكون هذا السؤال من صميم علم النفس في فصل التحدث عن العبقرية والعباقرة ، الا أنه لا يضيرنا الاجمال في الاجابة بأنه ليس كل الفضل في اتجاها هذا بقاصر على قوة التفكير الحاد الذي يسر لنيتشه الانتاج القيم في نواحي عدة من التفكير ، بل تعدو هذه القوة قوة اخرى هي قوة حيويته الروحانية الباطنية ، التي جعلته يتشبث بالحياة ليطوي في ثنايا نفسه كل احتمالات الفكر والاحساس البشري ، ليعث بها من جديد في حرارة وقوة ايمان تأخذ بالعقول والابصار .

المعطف...!

للطبيب الشهير د. ف. جوميل

١٨٠٩ — ١٨٥٢

نقلها كامل محمود حبيب

هو كاتب مغمور في احد دواوين الحكومة لم يجبه الله بميزة خاصة ، فهو قصير ، احمر الشعر ، ضعيف البصر ، أصلع ، مغضن الوجنات ، تمتنع اللون ... ذلك هو أكاكى أكاكى كيفتش الذي لا يعلم أحد متى عين في وظيفته ولا كيف كان ذلك . لقد كان ذلك منذ زمان حتى ليخيل الى الناس ان هذا الرجل قد خلق — منذ ان كان — في هيئته وجلسته وعمله . وكان الحُجَّاب والخدم ينظرون اليه كما ينظرون الى ذبابة تتخبط في الهواء فلا يعاؤون به ، وكان الرؤساء يصبون عليه كثيراً من الظلم الهادى في غير رفق وهو راضٍ ، والمساعدون يلقون أمامه حزم الاوراق قائلين « حَبَّر هذه من فضلك ! » أو « هاك عملاً مسلياً ! » او ... فينشر هو هذه الاوراق أمامه صامتاً لا يرفع عنها بصره ، ثم يندفع في عمله . وكان الشبان من زملائه يهزأون به ويتندرون عليه ، ثم هم يتناولونه بالاقاصيص المضحكة ، يقصونها أمامه ومن خلفه في تبجح ، فيقولون « ان صاحبة الدار العجوز تضربه ، وهو يحبها وسيتزوج منها ... » ثم يسألونه عن يوم الزفاف ، ويقذفونه بقطع من الورق أو ببعض حبات الأرز وهو في مكانه صامت لا يتألم ولا يتململ ولا يغضب كأن الحديث لا يمسهُ . لم يكن هذا ولا غير هذا ليحول بين أكاكى وبين أن يندفع في عمله لا يتبلد ولا يخطئ . وحين يجذبه أحد الماجنين من ذراعيه لا يزيد على ان يقول « دعني وحيداً ! لماذا تريد ان تزعجني ؟ » يقولها في رنات تبعث في النفس الالم والشفقة ، والمعطف في وقت معاً

لم يكن أكاكى أكاكى كيفتش مثلاً أعلى من أمثلة الجد في العمل والدأب والنشاط فحسب ، بل كان عاشقاً لما يعمل . فهذه الاوراق التي تنث في روح الكاتب السأم والملل كانت تفتح أمام عينيه دنيا ... دنيا جميلة مفعمة بالذادات . وكان حين يجلس الى عمله ، يرسم على وجهه أثر السرور والغبطة ، فهو ييسم حيناً ، وحيناً يغض عينيه ويحرك شفتيه حتى يستطيع الناظر اليه أن ينيء بعض

ما يكتب . . . وقضى أكاكي عمره مغموراً بين أوراقه لا يتحول ولا يترقى ولا يكافأ وأراد أحد رؤسائه — ذات مرة — ان يرفعه فوق مرتبته ، فبعث إليه بوثائق يحيل فيها قلمه ، فارتبك وأجهدته العمل ، فردّها قائلاً « ألا تعطيني بعض الوثائق لأحبرها . . . ؟ » فما كان له ان يحسن عملاً غير هذا . وهكذا كتب عليه ان يظل في عمله الاول ما عاش

وسيطر على أكاكي حبه لما يعمل فشغله عما عداه . فأحمل ملابسه : فلقد حال لون بذلته الخضراء الى آخر أربد زري ، و (زيقه) الضيق المنخفض تبدو خلاله رقبته طويلة رفيعة مضحكة ، وسترته قد تناثرت عليها أعواد القش وقطع الخيط هنا وهنا ، ثم هو لكثرة ما يضرب في الارض على غير هدى تسقط عليه الفضلات الملقاة من النوافذ فلا يزيلها ، فتلصق بقبعته وملابسه . وكان هو على غير ما انطبع عليه زملاؤه ، فهم كانوا يتحدثون فيما يرون يلتسمون فيه لذّة ومثعة ، أما هو فكان شارد البصر لا يثبت على شيء . وأمام عينيه — وهو في طريقه — ورقة من أوراقه ما تبرح منشورة يريد ان يحبرها فلا يحس انه في عرض الطريق الا حين يشعر بأنفاس حصان قوية تداعب وجهه . وحين يخلو الى نفسه في حجرته ، يجلس الى طعامه فيلتهم الحساء وقطعة اللحم واخرى من البصل لا يذب عنها الذباب او البعوض او . . مما يتهافت على مثل هذا الطعام القذر ، ثم هو لا يشغله نوع الطعام ولا جودة الطهي ، ثم يقوم الى بعض وثائق يكتبها ، فان لم يجد فهو يكتب لنفسه وثيقة من نوع ما كتب في نهاره

وحين تتشع غيوم سانت بطرسبرج وتبدو السماء زرقاء جميلة ، يخرج كل موظف يتناول عشاءه كل ينفق من ساعته ، ويطلب كل عامل الاستجمام ، فينطلق الجميع ينهبون اللذات يزجون بها فراغهم : فهذا الى ملهى ، وهذا الى الطرقات ، وهذا الى جماعة من صحابه يغازلون الفتيات أو يلعبون الورق او يملأون الدنيا ضجيجاً ، حين ينطلق كل هؤلاء الى التسلية والمرح يجد اكاكي اكا كيفتش جالساً في حجرته يحبر ورقة ثم . . . ثم يذهب الى فراشه وهو يقول « ترى ماذا اكتب غداً ؟ » تلك حياة رجل قنع بديرهات ضئيلة تسد رمقه ثم هو لا يملك غيرها

وفي سانت بطرسبرج عدوٌ لدود لسكل رجل لا يبلغ دخله اربعمائة روبل في السنة ، ذلك هو الجليد المتساقط من الشمال . هذا ولو ان كثيراً من الشبان يقولون انه صحي . وفي الساعة الثامنة صباحاً حين يهرع كل موظف الى عمله يكون البرد قارساً فينطلقون الى دواوينهم مهرولين وقد تلففوا في معاطفهم ، ثم هم يدفئون أرجلهم في حجرة البواب . أحسّ اكاكي اكا كيفتش — هذا الصباح — ان البرد ينصب انصباباً على كتفيه وظهره وهو يسرع الى عمله ، فترأى له ان يد البلى قد عمات في موعنه ، فراح يعضه فوجد به ثقباً عند الكتفين والظهر . لقد كان معطفه

هذا مادة سخرية وهزء بين رفاقه، فهذه أذيقه ينقص رويداً رويداً لأنه يجترى منه ليرقع ثقباً هنا وهناك ترقيعاً مهملًا وفي غير دقة. وحين رأى أكابي من معطفه ما رأى بدا له أن يعطيه إلى بيتروفتش الحياط وهو أعور ذميم الخلق يدر عليه عمله أرباحاً ضئيلة لأنه يصلح سراويل كثير من فقراء الموظفين وصغارهم، وهو سكير عريذ، يفرط في السكر في أيام الأاحاد والاعياد حتى يذهل عن نفسه وانطلق أكابي إلى بيتروفتش وهو يحدث نفسه « ترى كم يريد مني بيتروفتش؟ إن ادفع أكثر من روبلين...! » لقد كان الباب مفتوحاً وزوجة بيتروفتش تطهى سمكاً وقد انبعث الدخان فانهقد سحبا كثيفة في نواحي المطبخ، فأظلم المكان، ومر أكابي في صمت فها شعرت به المرأة، وأزعج الرجل أن يرى بيتروفتش مضطرباً حزينا وهو كان يأمل أن يراه هادئاً منتشياً لينال منه مأرباً. أنه حين يكون كذلك يعن في السهولة والتسامح فلا يطلب ثمناً، ثم هو ينحني امام زبائنه ثم يشكرهم رغم ما يبدو على وجه زوجته من غضب، ان كانت هناك. وأراد أكابي أن ينكص على عقبيه غير أن بيتروفتش كان قد سدّد إليه نظره، فقال « عم مساءً يا بيتروفتش؟ » قال « عم مساءً، سيدي! » قال « لقد أتيت... » واضطرب لسانه فاستطاع أن يتم حديثه، فقال بيتروفتش « لنرى... » وأخذ يقلب المعطف بين يديه في امعان وأكابى يقول « لقد أتيت، يا بيتروفتش... المعطف... القماش... كما ترى — متين... ان الاقدار التي تراكمت عليه تركته يبدو بالياً... ولكنه متين... هو ممزق عند الكتفين والظهر... » ما زال بيتروفتش يفحص المعطف ويهزّ رأسه، ثم تناول حقة السعوط ينشق بعض ما فيها وقد التى المعطف جانباً. ونشر الحياط المعطف على عينيه مرة أخرى ثم القاه لينشق ثانية قليلاً من السعوط وهو يقول « لقد بلى القماش تماماً... » واستشعر أكابي شدة الصفة في قلبه « بيتروفتش، لماذا؟... انه ثقب صغير عند الكتف... لا إخالك تعجز عن أن تجد قطعة... » قال الآخر في هدوء « عندي قطع كثيرة غير ان القماش لا يحتمل الترقيع » قال « ولكنك تستطيع...! » وأصرّ بيتروفتش « ان هذا القماش تعصف به الريح الضعيفة اذا هبت عليه » واستعطفه أكابي « انك تستطيع، يا بيتروفتش... » قال « مستحيل، لا يمكن... » واذا جاء الشتاء فزقه قطعاً تغطي بها رجله فأن الجوارب التي جاء بها الايمان الى بلادنا ليستلونا من كثير من مالنا لا تدفء، اما المعطف فلا بد ان تشتري آخر جديداً » وظلت الكلمة الاخيرة « جديداً » تضرب في عيني أكابي وقد انمحق كل ما أمامه سوى حق السعوط وقد رسمت على غطاءه صورة قائد عظيم، الصقت الى جانبها قطعة من الورق... وانطلق يهذي « جديد؟ انا لا أملك شيئاً، واذا كان لا بد، فكم... » قال بيتروفتش « مائة وخمسون... » ثم ضغط على شفتيه وحدد الى الرجل الذاهل امامه بصره ليستشف

اثر هذه الكلمات في نفسه . فصاح اكاكي في فزع « مائة روبل وخمسون ثمناً لمعطف ! »
لقد صاح ... صاح اكاكي المسكين لأول مرة في حياته ، لقد خرج عن هدوئه حين افزعته
الصدمة . فأجاب بيتروفتش « نعم ، ولا اقل من ذلك ، ونوع ارقى يكلفك مائتي روبل »
قال الرجل « بيتروفتش ، ارجو ان تبذل جهدك فأعيش بمعطفي هذا زمناً ... » قال « لافائدة
اعمل وادخر ! » خرج اكاكي حزيناً وبيتروفتش جالس يتسم لانه استطاع ان لا ينزل عن رأيه

سار اكاكي مأخوذاً بالب ، مشترك الخاطر ، متملخ العقل ، يحدث نفسه « هذا جميل ، حقاً ،
انا لم افكر في انه يكلفني ... كيف ؟ أهذه هي النهاية ؟ عجباً ! » ثم صمت برهة واندفع
« عجباً ! من يستطيع ان يفكر ... ؟ اي حادث هذا ؟ » واختلط عليه الامر فما سار الى
داره . وبينما هو يضرب في الارض ذاهلاً انحط عليه دخان مدخنة ، ثم قذف عليه مكمل من
الخص من منزل يهدم ، وما كان هو ليشعر بهذا لولا ان الشرطي تهجم عليه بالفاظ قاسية ردت اليه
بعض عقله ، فرأى ما حل به ، فانطلق مسرعاً الى داره . هنا ... هنا في هذه الحجرة المظلمة استطاع
ان ينشر على عينيه جملة حاله في هدوء ومنطق ، فراح يحدث نفسه « انا لا استطيع ان اقع
بيتروفتش اليوم بما يجب ان يكون . انه ... لعل زوجته قد قست عليه . وسأذهب اليه يوم
الاحد ، بعد مساء السبت العاشر ، سيكون ثللاً ، لا هو بالنائم ولا هو بالمستيقظ ، ثم هو يكون
في حاجة الى دريهمات يشتري بها قدحاً من خمر ، وزوجته تأتي عليه ذلك ... » وفي يوم الاحد
التالي انطلق اكاكي رقب دار بيتروفتش عن كسب ، وحين رأى زوجته تغادر الدار ، دلف هو الى
بيتروفتش ليراه ثللاً غير انه استطاع ان يذم ما يريد صاحبه « ألا تستطيع ؟ يجب ان تشتري
آخر جديداً ... » فوضع اكاكي في يد صاحبه بعض دريهمات ، فقال هذا « شكراً لك ياسيدي
سأشرب نخب صحتك ، لا يزججك امر المعطف . سأصنع لك معطفاً جديداً ، انت تستطيع ان
تطمئن الى ذلك ، سأبذل جهدي . سيكون معطفك الجديد من أحدث طراز ... »

وطرب اكاكي لما سمع ، ولكن انسى له المال ؟ لقد ادخر اربعين روبلاً في سنوات ،
فكيف يدفع ثمن المعطف وهو يحتاج الى سراويل جديدة وثلاثة قصان ، والحذاء من ورائه
يتبعه يريد منه ديناً قديماً . ماذا تفيد الدريهمات القليلة التي ادخرها ؟ وانتهى بعد حين الى امر :
سيخفض من نفقاته مدى سنة . فألقى شاي المساء ، واستغنى عن الشمع ، فاذا اضطر الى عمل في الليل
انطلق الى صاحبة الدار يعمل ما يريد على ضوء مصباحها ، وهو يسير على اطراف اصابعه خشية ان
يبلى الحذاء ؟ ثم هو يخلع ملابسة الداخلية عند النوم لتظل نظيفة فيدخر ما كان ينفقه في غسلها
وشق هذا على نفس الرجل — بادية الامر — ثم خف رويداً رويداً ، واستطاع ان

يقضي بعض الليالي طاوياً ، ثم هو يبدو ميسراً طروباً كأن صديقاً يرافقه يسري عنه بعض ما يؤلمه ... ذلك هو خيال المعطف الجديد . وترقرق ماء الحياة في وجهه لأنه أصبح يرحي الى غرض جميل في الحياة ... ذلك هو المعطف الجديد وتوارى الشك والاضطراب من دنياه لتطوف برأسه الافكار السارة ، تبعث في نفسه النشوة والطرب ، وتلمع بها عيناه . وشغلته الفكرة فأخطأ بعض مرة فيما يكتب ، ولكنه كان يرتد الى خطئه يصلحه وهو يقول « اوه ... ! » ثم هو يختلف الى بيتروفتش كل شهر مرة يحدثه حديث المعطف ... وعمرت الايام سراعاً تحمل له على جناحها بشرى ... بشرى جميلة : لقد زاد راتبه عشرين روبلاً . أكان ما عمل الرئيس عن علم بما هو فيه ، أم هي المصادفة الجميلة ؟ ومهما يكن الامر من شيء ، فهو الآن يستطيع ان يستحث الخياط حين يدفع له شيئاً ... وبعد اسبوعين احضر بيتروفتش المعطف الجديد . ما أجمل ذلك الصباح الذي رأى فيه أكاكي معطفه الجديد ! لقد كان البرد لاذعاً ، والسحب تشكفت تنبئاً بانقلاب عظيم . وأثبت بيتروفتش — بما صنع — انه خياط ماهر يستطيع ان يحيك فيجيد كما انه يستطيع ان يرتق فيحسن ، ثم ألقى المعطف على كتفي أكاكي وهو يبسم ابتسام الظافر ويقول « ما أجمل ، ما أجمل ! » وحين استقر المعطف على كتفي أكاكي دفع عشرين روبلاً وانطلق الى عمله يردد بصره في المعطف بين كل خطوتين وهو يبسم في قناعة ورضا لأنه احس بالدفء والغبطة في وقت معاً ، اما بيتروفتش فقد تبعه عن كذب يستمتع بلذة النظر الى صنعته التي رفعته من راتق مهين الى حائك ماهر . وبلغ أكاكي ديوانه فخلع المعطف وأعطاه للبواب وهو يوصيه ويحذره . وما لبث الخبر ان دوى بين زملائه فاندفعوا يهتفون به وهو يشكرهم ويبسم لما يقولون ، وتقاطروا عليه فبدت عليه الحيرة فما استطاع ان يقول شيئاً . وانتشله زميل قاتلاً لا بأس ، انني ادعوك الليلة الى منزلي احتفاءً بمعطف أكاكي الجديد ، وعجيب ان يكون هذا اليوم هو عيد ميلادي

وحاول أكاكي الامتناع فأراد ان يصحبه على ان يدعنه ، وسرّ هو حين وجد الفرصة تسنح فيستطيع ان يرفل في معطفه الجديد هذا المساء بين زملائه . وحين احتوته حجرته أخذ يلثم طعامه وهو يقلب بصره بين معطفه الجديد ومعطفه القديم ويبسم ... لم يجلس — بعد هذا — الى اوراقه يحبرها ، ولكنه استلقى على فراشه ينتظر المساء ... وحان الموعد فانطلق يقطع طرق الناحية التي يسكن فيها وهي ضيقة مظلمة قدرة ، وحين اقترب من دار صاحبه رأى الحياة تدب في العالم : فالطرق واسعة تسطع في نواحيها الانوار ، والناس يحيون ويذهبون في نشاط ، والعربات تتطلق هنا وهنا ، فراح يحدق في كل شيء في دهشة ، فهو لم ير شيئاً من

هذا منذ سنوات . . . والفي دار صاحبه جميلة تنبعث منها الاضواء ، ووج الردهة الواسعة المزدانة فاخطلت الاصوات في مسمعيه ، ورأى الخادم ينطلق من الحجرة المجاورة يحمل الاقداح الفارغة ، فعلم ان رفاقه قد تناولوا اول اقداح الشاي . واستطاع اكاكي — وقد اذهله ما رأى — ان يخلع معطفه ويضعه بهدوء على المشجب ، ثم هو يدلف الى الحجرة ليرى صحابه في ضجيجهم ومرحهم ، ويرى الشموع متناثرة حول نضد لعب الورق فيقف مضطرباً . . . وأحس صاحب الدار بالزائر يدلف الى الحجرة فانطلق اليه يحميه ويلتمس له مكاناً فالتفت الجميع يرحبون به ، ثم ما لبثوا ان عكفوا على ورقهم وهو يتأمل فيما يصنعون . ومرت الساعات فسرى التعب في مفاصله ليرتكه نائماً او كالتائم . وأراد ان يخرج فاضطره رفاقه ان ينتظر ليتناول قدحاً او قدحين من (الشمبانيا) فأدغن والزمن يمر . . . وخشى ان تغلظ عليه صاحبة الدار في اللوم فانسل من بين صحابه يطلب المعطف ، ثم انطلق . . .

لقد ابتدأت الحياة تنفض احقانها في هذا الحي الصاخب وهو يسير وثيد الخطو نشوان ثم ما لبث ان هبط ناحية ماتت فيها الحياة فلا هو يرى ضوءاً ، ولا هو يرى انساناً . وبدأ الظلام في عينيه اسود مظلاً وقد نشر الضباب جناحيه ليزيد الظلام حلوكة . ورأى — وهو يعبر ميداناً هناك — بصيص نور مصباح الشرطي كأنه في اقصى الارض وهو على بضع خطوات منه . وراى له — وقد اضطربت اعصابه وزلزلته الرعب — ان يغمض عينيه وهو يعبر الميدان ، وحين فتحهما ليرى مكانه من نهاية الميدان وجد امامه رجلاً مقنعين يقتربون منه ففزع ، غير ان واحداً منهم انقض عليه وهو يقول « هذا معطفي ! » واراد ان يستصرخ الشرطي فكلمه آخر باحدى يديه وهو يقول « اقتصطيع ان تفعل ؟ » وأحس اكاكي بالمعطف يستلب منه ، وشعر بركلة تدخرجه على الثلج في قسوة تفقده صوابه وحين افاق استشعر لدغ البرد في جسمه فأيقن انه قد فقد معطفه الى الابد فصاح ولكن صوته المبحوح ما كان ليصل الى اذني الشرطي الواقف هناك ، فانطلق هو اليه مغيظاً يغالظ له في القول على ان يسلب معطفه وهو نائم على بضع خطوات منه . واجابه الشرطي في هدوء « انا لم ار غير اثنين يمران قريباً منك ظننتهما بعض اصدقائك . وانا لا استطيع ان اساعدك فلنذهب في صباح الغد الى الضابط لعله يستطيع ان يجد لك معطفك ! » وبلغ اكاكي منزله مهموماً بضطرب وقد تشعث واغبر . ووقع نظر صاحبة الدار عليه ففزعت مما رأت ثم راحت تسأله فانطلق هو يتحدثها حديث المعطف المفقود ، فنصحته بأن يلجأ الى مفتش عرقته نشيطاً يقظاً وهو يستطيع ما لا يستطيعه الشرطي والضابط معاً ، ووجد هو فيما قالت حلاً لما اضطرب في خياله ، ولكنه قضى ليلته قلقاً يتقلب في فراشه ما يهدأ ولا يستقر . . . ثم بكر الى المفتش فألقاه ما يزال نائماً ، وعند الحادية عشرة وجده قد غادر المنزل ، وعند الغذاء

اراد ان يرى المفتش فتمنع ، وكان صبره قد نفذ فاندفع هاجماً يقول انه قد جاء من لدن أحد الدواوين الاميرية في امر خاص ولا بد ان يرى المفتش . . . هناك جلس يقص قصة المعطف المسلوب . وبدل ان يعنى المفتش بأمره راح يسأله « لماذا تأخرت في الرجوع الى دارك ؟ هل كان المنزل الذي قضيت فيه ليلتك سيء السمعة ؟ . . . » واضطرب اكاكي لما رأى من اهمال امره فخرج من لدن المفتش لا يدري ماذا . . . ؟ لقد غاب عن عمله لأول مرة في حياته . وفي اليوم التالي بدا في معطفه القديم حزناً متمتع اللون ، زري الهية

ولمست قصة المعطف المسلوب قلب كل زميل له في شدة وعنف ، وان كان بعضهم قد خرج عن انسانيته حيناً فتندر عليه ثم اجمعوا امرهم على ان يخرجوا جميعاً لا اكاكي عن بعض ما لهم وهزّت الشفقة واحداً منهم فراح ينصح له ألا يركن الى الشرطة والا يطعن الى وعودهم فهم لا يستطيعون شيئاً ، غير انه يستطيع ان يلتبس المعونة عند رجل عظيم سماه له . . . عظيم من عطاء المدينة لا نستطيع ان نقول باسمه او ان نشير الى مركزه ، وكل ما نستطيع ان نقوله إنه عظيم درج في مناصب الدولة . إنه يستطيع ان يساعد المسكين غير ان منصبه . . .

قد يظن الرجل ان مظهر العظمة هو العظمة ، فيريد الناس على احترامه ويضطر رؤوسه ان يحيموه في خضوع وذلة ثم هو لا يسمح لمظلوم ان يلج حجرته او ان يرفع اليه شكاته دون واسطة ليدو في الاعين عظيماً وتسري العدوى فيمن هو اقل منه فيقلده فيصبح العمل صورة من عمل ، ويذهب الضعيف ضحية العظمة الكاذبة . . . وهكذا اراد صاحبنا ان يبدو عظيماً فقسا وقسا . . . القسوة الجاحدة العمياء ، فساد عمله جو من القسوة لتلد النفاق والحداع في رؤوس رؤوسه وعملهم حين سكن الرعب في قلوبهم ، فهم اذا رأوه يذلف اليهم قاموا اليه في ذلة وخضوع يحيمونه ويتملقونه ، فاذا غادرهم سلقوه بالسنة حديد . وهو . . . هو العظيم ما كان ليبدأ محدثه الا بالفاظ جافة نائية « كيف تجرؤ ؟ أتعلم من هو الذي يحدثك ؟ أعرف تماماً من هو الرجل الذي تقف انت امامه ؟ » لقد كان طيب القلب رقيقاً يعطف على اصحابه ويحسن اليهم غير ان منصبه (العظيم) قد عصف بانسانيته وأرحيته . وهو بين زملائه رجل لا يمدو عن ان يكون رجلاً ، وهو بين رؤسائه ومن يرتفعون عنه درجة واحدة ذليل خاضع لا يستطيع ان ينطق حرفاً . هنا وهنا فقط هو رجل ضعيف خامل يستثير الشفقة . والرحمة في القلوب الصلبة . لقد كانت نفسه تحذره بأن يندفع في الحديث وان يغشى المجتمعات يرفه عنها بعض ما يناها من عناء العمل ، ولكنه كان يخشى ان يغض من هيئته فيصمت ويستكين وينزوي في داره . لهذا ولهذا وحده بدا فيه الرجل الصعب الشديد

هذا هو الرجل العظيم في بلادنا ، ومثل هذا الرجل انطلق اكاكي يطلب الانصاف والعدل .

لقد وجدته في حجرته يجلس الى صديق قديم يحدّثه ، فطلب الاذن بالتمول بين يديه لينفض امامه جملة حاله ، وحين علم العظيم طرفاً من امره ، قال « من يكون هذا ؟ » قال الحاجب « هو موظف في احد دواوين الحكومة ياسيدي . » قال القائد العظيم « فلينتظر ، فانا لا أقابل احداً الآن » لقد كذب الرجل العظيم . فهذه هي الساعة التي يستطيع ان يقابل فيها هذا الرجل المسكين وغيره . ولبت المسكين طويلاً ينتظر . ودخل كاتم سر القائد العظيم يتأبط حزاماً من الورق ، فقال له « ان كاتباً ينتظر هناك ، فدعه يدخل » وحين وقع بصره على أكاكى قال له في قسوة « ماذا تريد ؟ » وبدأ أكاكى الجبان ، جباناً يرتعد فها استطاع ان ينشر القصة الا في صعوبة . . . وتمثلت الالهانة والاستهتار في عيني القائد العظيم تحملاً ان اليه على لسان رجل ضعيف جاء يحمل شكاته ويستعينه على امر اهمه ، فقال في غلظة وجفاء « سيدي ، ألا تعلم الطريق الذي يجب ان تسلكه لتبلغ ما تريد ؟ لماذا جئت تنشر قصتك امامي مباشرة ؟ الا تعلم ان شكايتك لا بد ان تقدم اولاً الى رئيس الكتبة ، ومنه الى رئيس العمل ، ومنه الى كاتم سري ، وفي النهاية تصل اليّ ؟ » واستطاع أكاكى ان يماسك « لقد آثرت ياسيدي — ان اعرض عليك امري دونهم لانك وحدك تستطيع ان تعطف عليّ ، اما هؤلاء جميعاً فهم . . . هم اناس لا غناء فيهم . . . ! » قال العظيم في غيظ وحدة « ما ذا ؟ ما ذا تقول ؟ المثل هذا أتيت ؟ أتى لك هذه الخواطر ؟ أبهذه ، العين تنظرون ، انتم صغار الناس ، الى رؤسائكم » واستمر في ثورته « أتعلم من هو الذي يحدّثك ؟ أتعرف تماماً الرجل الذي تقف أنت أمامه ؟ » ثم دق الارض برجله في شدة وكانت كلمات الرجل كأنما تصفعه هنا وهنا فذهل فترنح يكاد يهوي الى الارض لولا ان حمله البواب في ذهوله الى خارج الحجرة . وابتسم القائد العظيم لما احادثه كلماته القاسية من أثر في نفس المسكين ، وابتسم مرة اخرى حين رأى سمات الرعب تبدو على وجه صاحبه الجالس الى جانبه . . . هذه هي العظمة في رأس العظيم الأحمق . . .

لقد سقطت كلمات العظيم على أكاكى المسكين رجوماً رجوماً تفقده رشده ، ولكنه استطاع ، بعد لائي ، ان ينكفي في طريقه الى الدار مستنداً الى جدار والرياح تتناوحه . . . رياح سانت بطرسبرج الباردة ، فما بلغ الدار الا وقد اصابه النصب وآذاه البرد فانطرح على فراشه لا يمي . . . واشتدت وطأة المرض فانقلب حى راجفة تعرك الرجل عركاً ، وجوّ سانت بطرسبرج القارس المتقلب يقويها ، والذين الى جانبه يفقدون الأمل رويداً رويداً . وأسرع المريض المسكين الى نهايته وهو يهذي « المعطف . . . سيدي القائد . . . يتروفتش . . . المعطف . . . ! » ثم تنفس النفس الاخير . مات الرجل لا يملك شيئاً ولا يجد من يحنو عليه سوى صاحبة الدار العجوز . . .

لقد انطوت صفحة أكاكى أكاكى كيفش دون ان يشعر به انسان في سانت بطرسبرج

ومضت اربعة ايام وجاء الحاجب يريد أكاكى لأن الرئيس قد أصر على عودته، ولكنه
ارتد الى رئيسه يحمل خبر موت الرجل . . . هكذا علم زملاؤه إن واحداً منهم قد مات . . .

من ذا يستطيع ان يصدق أن هذه لم تكن نهاية أكاكى أكاكى كيفتش، وأنه قد قدر له
ان يبلغ أوج الشهرة بعد موته؟ لقد برزت روحه الواحدة هاجمة تريد ان تنتقم، وطار الخبر:
ان شعباً يترصد بالناس عند قنطرة كالنم، ينتزع منهم معاطفهم، لا يفرق بين كبير وصغير.
لقد رأى احد زملاء أكاكى في هذا الشبح أكاكى نفسه، فاضطرب ودعر وفر هارباً والشبح
يتهدده. واضطربت المدينة جميعاً، فأصر الشرطة على أن يقبضوا على الشبح ويعاقبوه ليكون
مثلة وعظة . . . واستطاع شرطي أن يلبس الشبح وهو يستلب معطفاً من صاحبه، وهو حين
فعل صاح ينادي بعض رفاقه، فأدركه شرطيان ليعاواناه، وحين أمسكا به أطلقه الاول لينشق
بعض السعوط. ولكن الشبح استطاع ان ينثر ما في حق السعوط، في أعين الثلاثة وانطلق
هو . . . انطلق ليعث الرعب في قلوب الناس . . .

أما الرجل العظيم . . . العظيم الذي قسا على أكاكى فقد أحس بالشفقة تستيقظ في قلبه بعد
ان خرج أكاكى من لدنه، ولكن منصبه أرادته على ان يكتم بعض ما يختلج في فؤاده ثم شعر بالندم
يحز في قلبه فأرسل الى أكاكى، وارتد الرسول ينبئ بموت الرجل فساورته الافكار السوداء
وأراد هو ان يدفعها عن نفسه فانطلق الى دار صديق ليخرج عن رزائه عمراً من عمره. لقد
كانت ليلة جميلة وأصدقاء ظرفاء، ذاق فيها حلاوة السمر، ونعم بلذة الشراب والطعام . . . ثم خرج
في نشوته يريد صديقه ايقان ايقانواً ليستمتع منها بلذة اخرى، وليتذوق حلاوة ثانية، فهو كان
يحبوها بكثير من فراغه ومن قلبه رغم انه كان أباً وزوجاً كالحسن ما يكون الاب والزوج.
وحين اطمأن العظيم في مركبته تدثر بمعطفه الثمين وجلس منتشياً طروباً والمركبة
تسير . . . ومضت فترة احس بعدها الرجل ان يداً تجذبه في عنق، فنظر فرأى السكاتب
المسكين في معطفه البالي . . . انه هو، هو أكاكى أكاكى كيفتش . . .! فزلزل الرجل العظيم وامتنع
لونه، ورن في اذنيه صوت مرعب «هاها، لقد استطعت ان اعثر عليك في النهاية، انه معطفك الذي
اريد! لقد ايتت ان تساعدني، فالآن نخرج لي عن معطفك عن يد» لقد كان القائد صعباً قاسياً
يعتز بقوته وصلابة عضلاته، اما الآن فقد ارتجف وسيطر عليه العجز والخور فخلع معطفه وهو
يقول للسائق، «الى الدار، الى الدار، اسرع!». وذهل القائد العظيم عن نفسه فراح يهذي
«كيف نجرو؟ أعلم من هو الذي يحدثك؟ أتعرف تماماً الرجل الذي تقف انت امامه؟» واهله
يعجبون مما يسمعون. اما الشبح فقد اختفى فما عاد يستلب الناس من معاطفهم

فوست العصرية

او يوم في صحبة الشيطان

لرسله عبر الغنى البني

شخصية فوست من الشخصيات الخصبه التي عالجها المفكرون في غير عصر واحد فالشاعر الانجليزي مارلو Marlowe منافس شكسبير كتب في القرن السادس عشر مأساة فوست فلبثت حيناً من الدهر تتلى على الناس حتى أنشأ الشاعر الالماني العظيم (جيتي) مأساته فجرت عليها ذيل النسيان. وليست شخصية فوست وليدة الخيال من خلق شاعر بذاته ولكنها شخصية انسان ولد وعاش في القرن السادس عشر وما هو الا جان فوست الذي تلقى دروسه في جامعة هيدلبرج ثم ولع بعلوم السحر فتعلمها وعمل بها (ومع اعترافي بأن المأساة التي وضعها جيتي الفيلسوف قد كفل لها الخلود وان اليد التي اسداها المترجم الفاضل الدكتور محمد عوض محمد للناطقين بالضاد تذكر فتشكر وتغبط ولا تغمط الا ان فيها تعقيداً وابهاماً وتفككاً وانقساماً وأدباً جافاً ينفر القارىء ولا يستهويه) ولكن الصورة الجديدة التي يقدمها في لباقة الكاتب الفرنسي المعاصر جان بتيجنان في ثوب قصصي أخذ مع تصوير قوي خلاب وأدب عذب مساغ يجعل في القصة — بله ما حوت من موضوع فلسفي جدير بالدرس قصصاً عذبةً محببةً الى النفس وجمالاً فنيّاً يستهوي الحس ويكفل للقارىء لذة ليس وراءها لذة ومناعاً ليس يشبهه متاع

وليس فوست الا الانسان الذي يجد ويبحث في ظلمات هذا الكون يؤممه الشك ويمشي في أثره القلق لانه عاجز عن ان يكشف الغطاء عن سرّ حفظه المقسوم ، والذي ان حاولت ان تضله الانانية أو يضنيه الكبرياء عصمه الحب وحماه الايمان

(١)
يوم في صحبة الشيطان

— ١ —

انتصف الليل او كاد . والفيلسوف (فاوست) لم يزل يتلو في اسفاره على نور مصباح ضئيل وكان من دأبه ألاَّ ينجح الى النوم قبلما ينصرم من عمر الليل نصفه . وبغته طرق الباب طارق . فكف الفيلسوف عن القراءة ولبث برهة ينظر ناحية الباب ثم نهض واقفاً ، ومشى متثاقلاً ولما فتح الباب صاح صيحة دهش (اليزابت ! ماذا حدث يا ابنتي حتى طرقت مسكني في هذه الساعة المتأخرة من الليل ؟)

أجابت الفتاة بصوت منطفيء (آه أيها السيد . أمي . ملاذي الوحيد تحتضر . ليس لنا أمل الا فيك . اذهب معي بربك ورد اليها الحياة) . وبكت الفتاة في حرقه فأخذت الشيخ عليها رقة ورحمة ... لقد حصد الطاعون الانفس كما تحصد المناجل سنابل القمح أسر الفيلسوف الى نفسه (مسكنة اليزابت . انها كبيرة الايمان بعلمي . فأنسى لي ان اصارحها بأن رأس مالي العلمي وهمي مزعوم واني كأجهل مخلوق لفظته الغابة

(عاجز وابن عاجز وذو نسب في العاجزين عريق)

وألحت الفتاة على الشيخ وقد تباطأ وهوت على يديه فقبلتهما .. (لسنا ذوي سعة أيها السيد ولكننا نستطيع ان ندفع لك ثمن الدواء)

ومدت اليه يدها بدراهم معدودات كانت الصبابة الباقية من مال أمها النزر فقال لها الشيخ (بل احفظي عليها دراهمك فليس لدوائي ثمن وما أنا بمتخذٍ عليه أجراً) وعاد فاوست المريضة في كوخها وقد حمل معه قينة دواء ... وتقدم منها فرفع رأسها بيد ترعشها الشيخوخة والخوف . وأدنى من شفيتها كأس الدواء ، وفتحت المسكنة عينها في شق ولما أبصرت الفيلسوف تجرعت الكأس التي قدمها اليها في ثقة وأمل

ومضت دقائق . وفاوست يرمق المرأة في صمت وقلب اليزابت يعلو ويهبط وبغته استوت الام في فراشها الا قليلاً وارسلت أنه عالية تمزق لها قلب ابنتها ودل اتساع عينها والتواء ثغرها على ما كانت تعانيه من ألم . ومشيت الرعدة في جسمها فسكنت لحظة . ثم هوت رأسها على وسادتها في عنف . وأسلمت الروح ! . وطفقت الفتاة اليتيمة تصرخ كأن أغمى لدغتها . وتراجع فاوست في ذعر . ورمى بالقينة وانسل من المكان عجبلاً ، كمن أتى أمراً إداً !

ولما آب الى كنهه ارتمى على مقعده يلهث من النصب .. وتتم قائلاً
(لو رد دوائي اليها الحياة لما استطعت أن أقول لماذا ... وقد قضى عليها وما أدري السبب .

وهكذا ظهر لي أن ما كنتُ ادعيه من علم باطل لا محالة. فيالي من أحق! لقد أضعت شبابي بين دقات هذه الكتب وكان في مقدوري أن أتذوق لذائذ الحياة ومتعها. وضحك الفيلسوف ضحكة مرة (أهذه دنياي؟ تل من ورق! وحزمة من أقلام! وقنان من حبر! وقنان من سم! بدلاً من أن أنشد الحقيقة في الطبيعة نفسها. في مروج خضراء الجلباب، ورياض مزدهرات رحاب، وجنات من نخيل واعناب، وأشهد الحيال في الشتاء مشعلات الرؤوس، وأنعم بالشموس وليدات يدلهم الفجر، وعذراوات يغازلهن الضحى، وبالايطيار غريدات على أفنان الشجر، واطخر في هدأة الليل على شطآن النهر، أشهدا راقصات على انغام القمر، وأنعم في طلاقة ورُحْب بنسائم الربيع العلائل، بحملات بأريج متضوّع، انفاساً زكية تصاعدت من القلوب الشاغرة العاشقة فامتصتها الأزاهير واختزنتها زماناً، حتى إذا تفتحت أكلها نشرتھا في الربى عيطراً... وبدلاً من أن أنشدها في الانسان. في صداقة الرجل. في حب المرأة. أخدع نفسي فأضلها بين هذه الأسفار التي كتبها أناس حقى ليقراها أناس أشد حقاً فألى النار! إلى النار! قد كنتُ أبحث في سطورك لعلي أكتشف سرّاً وها هو ذا السر (لا يدفىء المقرور إلا نار مستعرة ولا يطفى غلة القلب إلا كأمس حب)

— ٢ —

ملاً الطاعون المقابر بضحاياها. وفي الليل الغامض كنتُ ترى شيئاً غامضاً كالليل. روح ويغدو. ويقبل ويدبر. كان طويلاً أقرب شيء إلى التحول. محدودباً قليلاً. ولكن أكان هذا طيفاً؟ أم كان هذا بشراً؟. سمع وقتئذ يقول:

(إلى... إلى أيتها النفس المتمردة التي لم يخامرك الندم ولا استهواك المتاب، قبل أن تعجنح شمس الحياة إلى الإياب... سيكون الليلة عيد في الجحيم). ومال إلى جدث مفتوح وقال:

(هو تنذا يا هانز أيها الشيخ البخيل. لقد عشت حريصاً على درهمك حرص الجبان على دمه. فهل عصمتك كنوزك من الفناء. ألم تمت كأحقر شحاذ؟) أجابته صيحة وسمع أنيناً يتصاعد من قبل الجدث. واتجه الشيطان شطر قبر آخر

(وأنت أيها العالم (شويلز) ما الذي جنيته من خدمة الحق والفضيلة والنور؟ حاولت نصق قرن أن تنجو من الخطيئة وإن تعيش وفق نصوص الكتاب ولكنني باغتك على حين غرة منك فلحقك الأثم فعند ما فتك الطاعون بامرأتك وفلذات كبذك شككت في عدل الله. ها... ها... فرصة ذهبية لم أدعها تقلت مني. خدعتك. أثرتك وملائتك غيظاً وبأساً. لا تجادل... وإلى الجحيم!)

وتسمع الشيطان فلم يسمع شيئاً ولكنه رفع رأسه قلقاً إذ خيل إليه أنه يرى طاووس

الملائكة يصوب إليه سهماً من نور وإن الريح تحمل إليه صوتاً يقول (ليست هذه النفس لك يا إبليس ولا أنفس كثيرة مثلها وليس في طوقك يا غرور أن تحكم عليها فلقد قضى الله بينها بالقسط فنجت من السعير) : قال إبليس : (إنك تحاول إساءة سلطتك ، ومحاول مغالبي ببلاغتك لقد مات الأستاذ (شويلز) دون توبة فهو لي)

— لا . بل لك الأرواح التي ترى أصحابها في احضانك ، واستمروا ضلالك رضاء غير مقتسرين وليست تلك التي باغتها سكرى من اليأس فأسقطتها في حباتك —
— لا تذد عن أعويت من البشر . فما كانوا بناجين لولا فضولك

— كلاً . فالك من حق على رجل لم تلوث روحه أدران الشرك ، ولا شابت إيمانه ذبذبة الافك لأن استحوذت على نفسه الامارة بالسوء . فلقد ظل قلبه في اعتصامه بالله يسبح له —
— ذرى أفعل وسترى

— لك هذا مادمت حياً . هل تعرف الدكتور فاوست ؟
— الشيخ المتهدم الذي أضاع زهرة شبابه بين القرطاس والقلم ، باحثاً عن الحقيقة ؟
أكبر ظني أنه قد هباً نفسه لطاعتي ! لكن اسمع فعند ما يستمرى فاوست الحياة التي اصطفيا له تكون روحه ملكاً لي
— ليكن . اذهب وغامر !

— ٣ —

لحق إبليس فاوست فحياه وتحدث إليه حديثاً كله منطق وكله إغراء وفاوست بين هازيء مرة وغاضب أخرى . ولما رأى إغراض الفيلسوف عنه وتبرمه بحديثه لجأ الى وسيلة أخرى فأخرج من حبيبه مرآة سحرية وقدمها له وهو يقول انظر ! وانحنى فاوست وكم كانت دهشته حين رأى نفسه شاباً في سن العشرين يفيض صحة وجمالاً ورأى خلف المرأة فتاة شقراء تبسم له في سداجة وطهر فرفع بصره عن المرأة وصاح ساخطاً

— كفى أخيلة وأباطيل . اما ان تريني حقائق ملموسة واما ان تدعني استريح —
— اتدعوني رجل أخيلة وأباطيل . اني امنحك كل ما في الحياة من لذة ومتاع —
— حذار ! فانا لا أنشد اللذة وحدها . اريد ان اشعر بكل شيء وان اجمع العالم كله في صدري مسراته وأحزانه ، اريد اللذة بمازجها العمل ، والامل بصاحبه الامل ، ولكنني لا اطيق الضجر والملل ! —
— فلسفة خاطئة . تزعم انك تمقت الخيال وهأتذا تنشده . فأينا رجل أخيلة ؟ مالك والعالم . فكّر في نفسك . الشباب . الجمال . الغنى . المجد . اني أهبك هذا كله —
— يخيّل اليّ انك تبيعي هذا كسلعة فكّم تبغي ثمنها ؟

— تعويض عادل لا أغبنك فيه ولا تغبنني . اكون خادمك وعذيرك في الحياة الأولى
وتكون انت خادمي وعذيري في الحياة الاخرى
وأخرج ابليس عقداً مسطوراً ودها فلوست لا مضائيه وتردد الفيلسوف اول الامر فقال
له الشيطان وهو باسم
— لاشيء . سأرد اليك شبابك النفيس دون شرط ولتكون هذه تجربة تبدأ الساعة
وتنتهي في مثل هذه الساعة من غير فاذا انقضت فترة العقد عُدت كما انت
واذا راقنت التجربة ورغبت في شباب مقم حق عليك ان تمضي هنا بدمك
وسقاه شراباً سرى في جسمه مشتعلاً كالنار وفي لحظة انمحت من حياة الفيلسوف اربعون
حجة فعاد ابن عشرين ربيعاً

— ٤ —

رأى فلوست وهو عن كسب من الكنيسة فتاة عذراء في جمال البدر . وسذاجة الطفل
فأحبها . كانت تشبه اليزابت وكانت تشبه في الوقت نفسه ذلك الطيف الذي رآه خلف مرآة
الشيطان غير ان الفتاة الحية لم تأبه له ولم تكترث وكانت تمشي في طريقها على استحياء .
لا تكلم الناس ولا ترنو اليهم . وشكا فلوست امره الى ابليس فاصطنع له امرأة عجوزاً تعبت
بعقل الفتاة فالتقت بها عن قصد . وتملقها ومحدثت اليها عن آمال الشباب واحلامه . وعن فلوست
الفاتن الجميل . ووصفت لها قامته ، ورشاقتها ، ورخامة صوته ، وصفاء ابتسامته ، ودعها لصدافته
وهيأت لهما لقاء في مكان شاغر خلف الجبل . واستسلمت مرغريت لفتانا روحاً وجسداً فعبث
بها ، وحضرها الشيطان في ليلة مقمرة فاستشهد عفاها . . .

وارتاب فالتين في سلوك اخته فبات يحرسها بعين لا تغمض ، وخشيت مرغريت مغبة عملها
فلبثت في الدار ثمانية ايام وسبع ليال . وتحرق فلوست شوقاً اليها وكاشف الشيطان بشوقه
فاصطحبها الى دارها . ومرا بالدار فتواريا خلف دوحة مورقة وطفق الشيطان يغني في نغمة
مغرية مسموعة . وسمعه فالتين فلم يطق صبراً فخرج الى الحلاء شاهر سيفه يلعن ويسب ويهدد
ويتوعد ولحمة ابليس فاخفى ووجد فلوست نفسه امام خصيم لا قبل له على اتقائه ولا طوق له
على الفرار منه . فصمد له وأخذ يذود عن نفسه . وباغت الشيطان فالتين بطعنة في ظهره
سقط على أثرها يتخبط في دمه وذعر فلوست وجد في مكانه جمود الصنم في هيكله وابليس
يصيح في السبيل . القاتل ! القاتل ! وافاق فلوست من ذهوله فأطلق لساقيه الريح واستتر في
بُردة الليل ! . وقضت مرغريت ليلة مشؤومة لم يشاركها في حزنها احد

لقد ماتت امها وقتل اخوها وعائلها واخفى عشيقها ولا أمل لها في ما به وتبرأت منها عمتها

لأنها عدتها مسئولة عن مقتل أخيها . وخبا نور الحب في قلبها فهوت به في ظلمة النوم ولم يبق لها بعد نجوى الليل ، وقبلات الحب ، سوى الأثم والفزع ، والزراية . وكانت الفتاة قد حملت من عاشقها سفاحاً وليس لها بعد موت فالتين مائل . فاضطرت ان تترك البيت الذي تربت فيه ، ولعمت بالحياة في ظلال الشرف ، وراحت تلتمس قوتها من عرق الجبين ، ولكن الناس كانوا في مربة منها فلم يمدوا اليها يد بر ، ولا مسحوا عن عينها دمة ذل وليلة باتت طاوية وطفلها ، خوت احشاؤها وجف ثدياها . والليل مقرر ، والساء مكفهره وليس لها مأوى تلوذ به ، ولا غطاء . حاولت ان تلج الدور فأوصدت دونها الابواب التي لم توصل في وجوه المهررة والكلاب ، ولم يقبل احد منها متاباً . . . حتى الكنيسة طردت منها ولم تجد فيها عاصماً . . . !

حملت طفلها وانتبذت به حقل قمح حسبناك منها ان سنا به قد تعصمها من القرة . . ولكن الرياح عصفت بشدة فلم تجد بداً من التحول الى المدينة وما كادت تبعد بضعة خطى عن الحقل حتى شعرت بيد تضغط على كتفها في عنف فرفعت طرفها في فرق فاذا بعض العسس ينظرون اليها في شزر وحنق ولما قلبوا الطفل الذي تحمله ذاهلة صاحوا بها يا قاتلة ! صرخت رباة ! لقد قتله البرد

واخذت تبكي وتصيح والعسس ممسكون بخناقها يجذبونها الى الخفر ووجهت اليها همة قتل طفلها بتعريضه للبرد القارص . فلم تشأ دفاعاً عن نفسها لانها كانت زاهدة في الحياة وثبتت ادانتها فحكم عليها بالموت حرقاً

ومجمعت أمة من الناس يشهدون مصرع هذه الام النبوذة التي قتلت طفلها بلا رحمة وأخذوا يهددونهم ويلعنونها ويودون لوتعجلوا الحكم فزقوها بأيديهم قبل ان تأكلها النار وكان فاوست قد هبط المدينة بعد ان اختفى زماناً ونما اليه ان مرغريت ستحرق . فطار اليه واقسم ان ينقذها او يكون معها من الهايكين — وأسرع فاوست فألقى الناس قد خطوا الارض كان اليوم يوم حشر ، ورأى النار تحرق بعشيقته فاندفع يشق طريقه اليها غير عابى ولا وجل وصاح (مرغريت !) ونظر اليه الناس ساخرين (شيخ مجنون !) وصاحت به مرغريت (مكانك يا أبتاه !) وردد فاوست قولها في عجب (مكانك يا أبتاه ؟) كيف ألم تعرفيني ؟ ونظر الى نفسه فراعته لحية البيضاء المتدلية وبداه اللتان توارى منهما الدم فصرخ كالجنون وقد فضحه الجزع

— إبليس ! إبليس ! أن ذهبت بشبابي ؟ وابتمس العين في خبث وكان منه عن ام
— كانت مدة العقد يوماً وقد انتهى

يقوم
تنظيم
اشار
التعدا
هناك

التعدا
ارقام

ينذهب
من ال
الدلتا
والبطا

وسيكول
وفي ال

(١)
وصفه

على ذكر التعداد الصغير :

سكان مصر

من أقدم العصور الى ما بعد الفتح الاسلامي (١)

لعل المصريين أقدم الشعوب عهداً بالاحصاء او التعداد . ففي فجر التاريخ ، كان الملك مينا يقوم باحصاء السكان في مملكته مرة كل سنتين ثم مرة كل سنة (برستد) وهو عمل كان يقتضيه تنظيم مصر السياسي الدقيق حينئذ . وفي ايام امنمحت الاول في سنة ٢٠٠٠ ق . م نجد اشارات الى الاحصاء وكذلك في القرن السادس قبل الميلاد . وكان الرومان يقومون بعمل التعداد مرة كل اربع عشرة سنة في اثناء حكمهم . وفي ايام الرومان ثم العرب ثم العثمانيين كانت هناك قوائم للمكلفين يمكن ان تعتبر بمثابة احصاء

ولكن من المتعذر معرفة عدد السكان في مصر في تلك العصور لان ما وصل الينا من وثائق التعداد لا ينقع غلة ، وليكننا نجد في آثار بعض الكتاب الفراعنة واليونان والرومان والعرب ، ارقاماً يمكن ان تحسب قريبة من الحقيقة

كان عدد المصريين في سنة ١٥٠٠ ق . م يقدر بثلاثة ملايين . ولكن الاستاذ مصطفى عامر يذهب في رسالة له عن مشكلة السكان في مصر الى ان القطر المصري كان يقيم اود ١٨ مليوناً من السكان في الالف الاولى ق . م وقد بنى رأيه هذا على زيادة خصب الارض حينئذ في الدلتا ، التي كانت مساحتها الصالحة للزراعة اكبر جداً مما هي الآن قبل تكوّن البحيرات المالحة والبطائح والصحاري فيها

ولكن ليس عندنا في الاسانيد القديمة ما يؤيد هذا الرقم . وقد كتب المؤرخ ديودورس سيكولوس في القرن الاول قبل المسيح فقال ان سكان مصر في عهد الفراعنة كانوا سبعة ملايين وفي العصر البطلميوسي (وهو عصره) ثلاثة ملايين

وفي سنة ١٨٨٦ ظهر كتاب ليوليوس بيلوخ Beloch وذهب فيه الى ان عدد سكان

(١) ملخص عن كتاب الدكتور ونيل كيلند "The Population Problem in Egypt" راجع وصفه في مكتبة المتطف

مصر عند وفاة اغسطس قيصر في سنة ١٤ ب. م. كان خمسة ملايين وان مساحتها كانت ٢٨ ألف كيلو متر مربع ومتوسط عدد السكان في الكيلو متر المربع ١٧٩ نفساً او ٤٦٥ في الميل المربع . وقدر المؤرخ بدنج عدد سكان مصر في عهد فسبسيانوس (٦٩ ب. م .) بثمانية ملايين وذلك اعتماداً على قوائم المسكفين (اي دافعي الضرائب) واورد المؤرخ يوسيفوس قولاً للملك اجربيا في القرن الاول الميلادي يستفاد منه ان سكان مصر كانوا سبعة ملايين ونصف مليون ماعدا سكان الاسكندرية وان حدود مصر كانت تمتد الى الاحباش وبلاد العرب السعيدة ومتاخمة للهند وفي القرن السابع الميلادي فتح العرب مصر وقد ذكر المؤرخ لاين بول في كتابه « تاريخ مصر في القرون المتوسطة » ان مؤرخي العرب اوردوا ان عمرو بن العاص جمع في سنة ٦٤٤ م مال جزية قدره ثمانية ملايين دينار من الذكور البالغين من اهل الذمة . فاذا حسبنا انه جمع دينارين من كل ذكر وهو المبلغ المألوف في تلك الايام كان عدد الذكور الذين يزيد عمرهم على ١٠ سنوات اربعة ملايين واذا فرضنا ان هذا العدد كان ٣٠ في المائة من عدد السكان — وهذه هي النسبة التي تستخلص من تعداد سنة ١٩٢٧ — كان عدد سكان مصر غير المسلمين في سنة ٦٤٤ م ثلاثة عشر مليوناً وثلاثمائة الف وهو قريب من عدد السكان في هذا العصر . ولكن شيئاً من الريب يتطرق الى هذا التقدير . لان المؤرخ الذي اورد ما تقدم اورد كذلك ان مال الخراج كان ثلاثة ملايين دينار ، بواقع دينارين للفدان الواحد . اي ان عدد الفدادين المزروعة ما عدا المدن الكبيرة والاراضي التي يملكها عدد يسير من المسلمين كان ١٥٠٠٠٠٠ فدان . واذا قطن عدد كبير من الناس يزيد على ١٣ مليوناً مساحة من الارض لا تزيد على ١٥٠٠٠٠٠ فدان كان ازدحامهم اربعة أضعاف او خمسة أضعاف ما هو الآن في مصر وهو ما لا يعقل

وفي القرن التاسع الميلادي جاء في كتابات بعض المؤرخين العرب ذكر خراج يبلغ ٤٨٥٧٠٠٠ دينار أي ان عدد الافدنة التي كانت مزروعة بلغ ٢٤٢٨٠٠٠ فدان . فاذا فرضنا ان ازدحام السكان في هذه الاراضي كان كمتوسط ازدحامهم الآن في المناطق الزراعية كان عدد سكان مصر غير المسلمين في القرن التاسع الميلادي ٥٣٩٠٠٠٠ ويجب ان يضاف الى هذا الرقم عدد سكان الاسكندرية والفسطاط وكان معظم السكان المسلمين يقطنونهما حينئذ . أما الاسكندرية فكان عدد سكانها في القرن الثامن خمسمائة الف على ما روي وأما الفسطاط التي أسست في القرن السابع فأصبحت بحسب قول المؤرخ ملن في مقدمة المدن الاسلامية . واذن يصح القول بأن سكان مصر في القرن التاسع كانوا يتفاوتون بين خمسة ملايين وستة ملايين وهو رقم يتفق مع تقدير بيلوخ لعدد السكان فيها في القرن الأول الميلادي . وما يرتاب فيه الباحثون المعاصرون ان سكان مصر أربوا في العصور القديمة والمتوسطة على سبعة ملايين او ثمانية

جَدِّيْقَةُ الْمُقْتَضِفِ



بِيرْلُونِي

وَنَاحِيَةُ مِنْ ذِكْرِيَاتِهِ
لِيُوسُفَ الْبُعْيَنِي

لَمَنْ

لَعَمْرُ ابْنِ رِبْشَةَ

الْعَرَسِ الْاَسْوَدِ

لِفَوَّادِ سَلِيْمَانَ

بيير لوتي

ومناخية من ذكرياته

في أوائل الجيل الماضي نشطت في فرنسا زعة الى الاصلاح والتجديد ، فكان لها أثر متين لا يمحوه الدهر ولا يأتي عليه النسيان . ومن نتائج ذلك الأثر البالغ ظهور المذهب الوجداني الذي طوّق جيداً الادب العالمي بقلائد الفن والنبوغ والعبقريّة

ولم تكذب شمس ذلك الجيل تدرج من خدرها الأزلي وتغمر الحياة والأنظمة والقوانين بفيض من التطور والتجديد ، حتى استيقظ قارئ من هؤلاء المجددين واتجه نحو الشرق منقرباً عن الجمال الكامن وراء أكنهه وجباله ، والسحر المهوّم بين أوديته ووهاده

وكان بين هؤلاء المجددين رجل حسّاس تغلّبت عليه سآمته وإحساساته ، فجاء الشرق ليعالج تحت ظلاله الظليلة تلك السآمة الخرساء . . هذا الرجل هو — بيير لوتي — الكاتب الفرنسي الأنيق الذي عشق الشرق وأفسح له مجالاً رحباً في كتاباته وأقواله

وقف — لوتي — في ظلال الشرق فكشف له خياله النامي الحصيب عن ذلك الجمال المتجسّم في كلّ مرتبة من مراتب الطبيعة . ولذلك أكثر من وصف السماء الزرقاء ، ومطلع الفجر ، ومغيب الشمس ، ومن البلبال الشاردة بين الحقول والبطّاح ، والجداول الهائمة في الأودية والوهاد ، والانهر الجارية الى أعماق البحار ، والآنين الشجيّ الموجه الموقع على أوتار الرياح والعواصف

إنّ في الشرق جمالاً علوياً كجمال المآسي الخالدة . . ومن الروعة والجلال ان يتمشّي ذلك الجمال في روح — لوتي — فيجعله يتم اسم الشرق في الحياة وعند الممات !!

وبعد . . . لقد عرف الشرق قارئ من أدباء الغرب وكتّابه ، ولكن هؤلاء

الكتاب ما عتموا ان صوروا أخلاقه وعاداته ومشاربه صورة متعاطلة لا أثر للفن والحقيقة فيها . فسخوا من جماله ما استطاعوا إما عن تمصّب شأن ، وإما عن تجاهل لهم منه فائدة معنوية . أما — بير لوتي — فقد خالف هؤلاء جميعهم اذ تغلغل في روح الشرق ودرس شعوره وعواطفه ثم تحدّث عنه حديثاً مترعاً بخمرة الحب والصدق والاخلاص

ولأجل ذلك أعدوا لوتي صديقاً مخلصاً للشرق . .
والذي نعجب له كثيراً هو درسه للحياة الشرقية . حتى لقد يُخَيِّل إلينا ان الرجل أمعن في الاستيلاء على عناصر تلك الحياة بما في هذا من جهد وعناء قبل أن يُسَاقِد على تصويرها ذلك التصوير الساحر الذي يخلب القلوب
فان من يقرأ كتابه (موت أنس الوجود) يشعر بحقيقة ما أكتب قال في فصل من فصول الكتاب :

« بين الفتيان المصريين من يفتنك بذكائه ونبوغه ، عرفت ذلك بعد ما وطأت قدماي تربة مصر الفواحة بالشذا والعبير . ولأجل هذا أريد أن أخطب هؤلاء الفتيان بعطف متناه فاهتف بهم قائلاً : أيها الفتيان ، ان المدينة ستتمشى في عاداتكم عما قريب ولكن حذار أن يعث بأخلاقكم عابث ، تلك الاخلاق التي اذكرها بتهيب واقتزار »

على إن السرّ المعنوي في عبقرية هذا الكاتب العليل المفلس قلبه بأنامل اليأس العميق والالأم المحرق المذيب ، هو حبّه لتركيا حبّاً قارب العبادة والتأليه
لقد تساءل تفرّ من الكتاب الغربيين هل كان هذا الكاتب الرسام قد وقف على اسرار الحياة التركية التي لم يقف عليها اديب من الادباء . اما الحقيقة فهي انه توفّق الى رسم تلك الحياة التي تجري في القصور التركية رسماً لا شك حياله بتدخله في شؤون هذه القصور المسربة بضباب الاحلام

في تركيا ، عشية البوسفور وموحية اسرار الحب والغرام للقلوب التواقّة الى نور الخلود ، جمال يترك في النفوس نشوة علوية كنشوة الوردة الحمراء الغافية على سرير من ضياء الفجر . والفرنسيون بارعون في الاستيلاء على كل ما يمت الى الفن بقراءة جميلة . ولكن الاجل من هذا ومن ذاك هو تلك الذكريات التي تركها —

لوتي — لتبقى مثلاً صادقاً للحياة التركية بما فيها من آلام ومسررات ، وسعادة وكآبة ،
وابتسامات ودموع !!

لقد نثر — بيار لوتي — عقوداً حمة من حياته على شواطئ البوسفور التركي ،
ومشع عينيه بمنظر الخليج الجميل ، وبمراى البدر يصب انواره الفضية فوق موجه
الثلج الريان ، وأمرع كثيراً بغمرة تلك الليالي البيضاء التي تنبسه في النفوس رواقد
الحشوع والروعة والتعبد ... فلا عجب اذا اغرق — لوتي — بحب المرأة
التركية وبوصف اخلاقها وعاداتها وبكيفية معيشتها بين جدران القصور التركية ، واذا
اكبرت عليه جمال فنه وأنيق ألوانه ، فاعلم انه طلى فنه بكل ما في الحياة من أدهنة
سحرية ورموز واسرار ... وما اعظم الاديب الذي يجمع بين الفن والجمال !

وهنا يلوح لي ان فريقاً من القراء يطالبني بذكر ناحية من ذكرياته ... اما ذلك
فحسبي ان اتناول روايته (الياسات) واقراً فيها هذه الجمل الحزينة الالابسة ثوب
الحداد على ماضٍ حنون توطئن مقبرة الذكرى وترك في قلب الكاتب اللطيف هذه
الغمضة المؤثرة الموجهة

« ... في ناحية منفردة على شواطئ البوسفور ، وعلى نحو فرسخين من
استانبول المدينة الشعرية المتعالية ما ذنها في الفضاء معلنة لروع اللانهاية كل مالدين
الاسلامي من روعة واسرار ، كنت اصرف اكثر اوقاتي مع « جنان » فلا يعلم بنا
احد ، ولا يسمع نبضات قلبينا غير الامواج والطيور
« أنا لم يؤثر في مشهد من مشاهد الشرق الغريب مثل ان اتأمل البوسفور في
ساعة المغيب وقد تلونت شواطئه بأشعة شمس الخريف الواهية ... فكانت تبدو ليني
كانها وجنات العاشقين ممتعة بصفرة الفراق !

« وما — البوسفور — يبعثر امواجه على صخور الشاطئ غير مشهد يروعك
فيه انين المياه وحفيف ثيرها البليل يداعبه نسيم المساء ثم يرخيه فوق الحصى
والاعشاب ، ولكنه مشهد خفاق تمشى في روحه الروح والحياة ، فهو جمعة
خفقات ألبة تعرب عما تعاني من صباة ... وكل موجة لها للفؤاد إشارات خفية
مجهولة ، هي اشبه بيد العاشقة تمتد مودعة بعد ان تقاصرت عن عناق الحبيب !

« اما الطيور المهاجرة ثمة ريانة في تلك الامكنة اللطيفة الساحرة ، فكنت
اخصّها بكثيرٍ من تأملاتي واحلامي . وكانت — جنان — تحسبها ارواح الياثاسات
التركيّات اللواني انعتقن من قصور ازواجهنّ البشوات الظالمين
« وفي اواخر — جمادى الاول — عند حلول الحريف ، كان يحزني ان ارى
تلك الاماكن الشاهدة عليّ وعلى « جنان » بما بيننا من احايين شيقة خيمت فوقها
اشباح الغرام . . . نعم كان يمضني ان اراها عارية جرداء فينبثني منظرها الشاحب
بنكبة قريبة تمكّن من نياط قوادي فتسحقها بالالم سحقاً ، وتقصدها بنزوات
دامية تمانج فيها نبرات الحزن واصداغ الموت

« وأحست — جنان — ذات يوم بما يخالجي من ألم مبرح يُسمّم عواطفي
فأخبرتها ان طيفاً خفياً ينصب في اعماق نفسي منذراً بمجيء ساعة الفراق ، فارتمت
— جنان — يتكّب الانين فؤادها ، وتستشف عينيها الدموع !!

« وشئت ان أساعدها على احتمال هذه الصدمة العنيفة فوعدها ان اعود اليها وامضي
بأقي الحياة قريباً منها . ولكنني عندما شاهدت ارتعاشها المفجع لم أتمالك عن ذرف
دموعي فعانقت جنان وبكىنا معاً أمام الامواج المحتضرة والبلابل المرتحلة الى الجنوب
هرباً من عواصف الشتاء المتأهبة للخروج من سجن الابدية

« ووعدنا الى اسطنبول مساء . . . ولأول مرة رأيت — جنان — تتأمل القمر
بعينين منهوكتين ، فعلمت انها تريد التعبير عما في نظرات القمر من سهد ووجوم ، فضممتها
الى صدري المعذب وأشبعتها بقبلات الوداع !!

بعد ان مضى زمنٌ طويل على هذا الافراق جمع — بير لوتي — تذكاراته
الماضية ودونها كلها في روايته المسماة (الياثاسات) والغريب انه أعلن موت جنان في
آخر الرواية بصورة شعرية مؤثرة . ولكن الحقيقة — كما تقول مجلة الاليستراسيون
— ان جنان ظلت حية ومقيمة طول ايامها على غرام الكاتب العبقري الجميل

وقد وجدوا بين اوراقه بعد موته تذكارات حجة عن — البوسفور — مرسومة
بدم قلبه ودموع عينيهِ ، وكلها تعبر عن نواحي حياته : فإليك هذه الكلمة المختصرة :
« لست أنسى ما حيت تلك الليالي البيضاء التي صرفتها على ضفاف بحر مرمر »
والبدر يحدّق بالامواج كأنه يبثها سرّاً من الاسرار او لاعجة من لواجب الهوى .

وكثيراً ما حركت هذه المناظر بواعث الحزن والكآبة في أطواء نفسي ، فكنْتُ
 اسمع انغام الماضي توقعها الذكري على أوتار الليل
 « آه ما أعذب الذكرى تعاودني من خلال خائل الماضي . . . ولكن وأسفاه
 ان عيني بكاد يغشاها ظلام الموت . اني اراك يا — فروق — تموجين بثوبك
 الخفافى كانك في ساعة عرسك . فسلام عليك من رجل أحبك حتى العبادة والتأليه »
 يقول — كلود فارير — الكاتب البقري الكبير ان — بير لوتي — ارسل
 هذه الالفاظ النارية وهو ممدد على سريره في باريس يعالج برجاء الألم ويتلمس
 مهاوي الابدية . وكان الاقدار شاءت ان تضرم لوعته وتشمله بالكآبة التي
 لازمتها طول حياته ، فقد أطفأت حياة حبيبته (جنان) في ليلة من تلك الليالي
 السوداء التي كانت تمر بالكاتب الملول الحزين

ولكن جنان المسكينة لم تكن تحلم وهي تنثر احلامها في ظلام أجنحة المنية الا
 بذلك الفرنسي الجميل الذي أحبه كما أحبها حباً وفيّاً. فتناولت القلم ورسمت هذه الرسالة
 « ايها الحبيب — ها انذا في مخدعي مسهدة قولول اشباح الماضي في اودية الفؤاد
 وبيننا الناس نيام يرتشفون خمر الرقاد ، أبيت باكية تلك الاوقات الحبيبة التي
 مضت وتركت في مقبرة قلبي تذكاراً حنوناً منددي بالدموع ! نعم . . . لقد تلاشت
 تلك الاوقات وتوارت وراء نقاب الموت لتسبلي على مهل تحت اقدام الدهور . . .
 ولكن نور النجوم ، وحفيف الاوراق ، وخزير الجداول . . . وكل ما في الطبيعة
 من حسن وجمال . . . لا يزال يغم على اوتار صدري توجيعه الصمت والسكينة
 « ان ضباب المنية يكفني الآن بردائه الناعم الشفاف . وعندما تخمد في شعلة الحياة
 ويسبل الموت احفانه فوق نعشي ، ثم يدنو حفار القبور ليهيل على صدري التراب . . .
 ستحوم حولك روعي ايها الحبيب وتلو على مسامعك كل نزعات القلب وأمانيه .
 « زهرة البنفسج التي كنا نستشق عبيرها ونضفر اوراقها على ضفة — البوسفور —
 أغرسها ايها الحبيب فوق قبري لتعطر جسدي الناضر في سكينة الليل . . وعلى اضواء
 النجوم ! !
 — جنان —

مسكينة جنان . . . كانت أمنيتها الوحيدة ان ترى — بير لوتي — وتعانقه العناق
 الاخير في تلك الساعات الالهية التي تكابد حزازتها في ظلام ليل تذكاراتها . وفيما هي

تستشف كأس المنية تركت هذه الرسالة المحددة بالدموع (وهي مترجمة عن اليائسات)
 « أندري ! : الآن وقد مرّ الهزيع الثاني من الليل ، اصني الى حفيف اجنحة
 الموت فلا اسمع سوى زفرات متقطعة ترسلها روحي المفارقة في فضاء مخدعي . فليتك
 كنت هنا يا أندري ! لا همس في اذنك كلمة الوداع فلماذا لا تقترب مني ايها الحبيب
 لا بوح لك بسر من اسراري الدفينة ... اريد ان اعترف لك بحبي الذي لاشائبة به .
 ان من تفارق الحياة لأجل حبيبها تستطيع الاعتراف بخفاياها

« أم يا أندري . . اتذكر يوم كنت في هذا المكان حيث أنا الآن ؟ يوم
 ذلك خفق قلبي بحبك ، الا اني أطبقت عيني لأحلم وهكذا مرت احلام لذينة ...
 وكانت يدي تسمح عن عينيك تلك العبرات المتناسلة . حبذا لو قضيت في تلك الساعة
 اذا ما كنت تسكنت اشباح الحزن الظالمه ، وكأس الغرام المريرة !

« كل شيء يتغير في نظري ... قالوا لي ان انام ، ولكي لا اشعر بالنعاس يراد
 أجفاني . . . غير اني اشاهد كل ما في مخدعي يهتز ويرتعش مثل شمعة روحي
 الذائبة ... ان الزهور البيضاء التي تنثرها حول رأسي تحيلها تموت وتتكاثر متحولة
 الى مرجحة كبرى مكتسية بالورود والبراعم

« والآن اراك تلهو بين الورود والبراعم فلماذا لا تقترب مني ايها الحبيب ؟ ألا
 تعلم ان شفتي تحبان ان تلتما شفتيك ؟ وهنا حيث احتضر اوذ كثير لو شاهدتك
 لاقرأ في عينيك دمعاً تذيبها لاجلي ... تعال يا ملك الجمال وموقظ الحب والغرام
 لأسند رأسي الى ذراعك واعترف لك بحبي قبل ان يطفئ الموت شمعة حياتي
 « أم يا أندري ! ! ان الاموات يجذبوني نحوهم بعنف وقسوة . فاعطني يدك
 لا تساند عليها في المصراع الاخير !

ومثل الزهرة الرطبية التي تنعش صباحاً ثم تذوى في المساء بعد ان تلفحها
 الشمس بورها الكاوي هكذا ذوت مباهج الحياة في قلب (أندري) وهو يبر لوتي
 نفسه . وظلت هذه الذكرى حائمة حول الكاتب الحساس حتى لفظ أنفاسه الاخيرة
 فالى بيرلوتي والى روحه العذبة التي ابتسمت في ثناياها كواكب الفن والتبوع
 سلام الشرق العظيم الذي ضمّه اليه وسكب في عروقه كل ما في الحياة من تشوق

وحرارة وايمان

البرازيل

يوسف البعيني

لمن؟

« مهداة من الشاعر الى الاستاذ
ميشال ابوشهلا صاحب مجلة الجمهور »

لمن تعصر الروح يا شاعرُ أما لضلال المنى زاجرُ ؟ !
للحب ؟ أين أكفُّ الفتو ن لتبدع ما يرتجى الخاطرُ ؟
اللهو ؟ كم دمية صفتها ومزقها ظفرك الكاسرُ
المجد ؟ هلاّ لحت الذنأ ب، وقد عضتها جوعها الكافرُ
للخلد ؟ ماذا يفيد القتل إذا ناح أو هلل العابرُ

رويدك لا تسفجن الخيال بيداء ليس لها آخرُ
سيرقص الكون في صمته كما يرقص الحية الساحرُ
دع الحلم يخفق في ناظريك فروعده غدك الساخرُ !

عمر ابو ريشة

عن « الجمهور : بيروت »

العرس الاسود

الله... مات الحلم في البرعم - وكان حلم الليل والانجم
حكاية الورد لجاراته... حكاية المعرم للمعرم
تقصها الانسام في سكرة - في الغاب للفريدة الخوم
فترقص الضحكة في مبسم - وتجد الضحكة في مبسم
ويصبح الحلم حديث الربى - فاهمة تروى لمستمهم
الله... لم يطلع عليه الضحى - الا صريع الغاب والمبسم

يا حلمي الاشقر ، يا رفة - طافت بقلب أخرس معتم
يا ضحكة في خاطر المنحنى - يا نعمة في الوتر الملمم
لم يبق من عرسك الا الرؤى - مخضوبة بالدمع في مرقم
تموت في قلبي وفي مقلتي - على صراخ مفزع مؤلم
يضج ماضيها على نعشها - مجرح الذكرى دمي الفم

يا قلب ما تبغي وما ترجي - من مائم تمشي الى مائم
يا جائعاً اطعمته مهجتي - يا ظامئاً رويته من دمي
يا أحقاً يمشي الى قبره - هدمت أضلاعي ولم رحم
اسكت ! احس الموت في مضجعي - وفي زوايا الخدع المظلم
احس في صدري ديب الردى - ينسل في صدري كالارقم
ليتك لم تخفق على ساعد - ليتك لم ترقد على معصم
يا كافرأ ضيع احلامه - ليتك لم تمسك ولم تعلم

يا قلب ! مات الحلم في موسم - فاغمه يا قلبي في موسم

فؤاد سليمان

عن « الجمهور »

سِيرُ الزَّمَانِ

الامتيازات الأجنبية

في مؤتمر مونترو

خطبة الخامس

في مؤتمر مونترو

امتيازات المالك

لا من القريب



الامتيازات الأجنبية

ومؤتمر مونثرو

الامتيازات اسم يطلق على معاهدات تمنح بها دولة من الدول حقوقاً خاصة لرعايا دولة أخرى مقيمين في بلادها . ففي القرن التاسع عقد هارون الرشيد معاهدة من هذا القبيل مع «الفرنك» منحهم بها ضمانات معينة وسهل عليهم سبل الاتجار . ثم منحت امتيازات من هذا القبيل لآباء بعض من المدن الإيطالية . فأمر انطاكية منح أبناء جنوى مثل هذه الحقوق في سنة ١٠٩٨ وجاراه ملك أورشليم في منح أبناء البندقية سنة ١١٢٣ وأبناء مرسيليا سنة ١١٣٦ وتبعه صلاح الدين فتحها أبناء مدينة بيزا سنة ١١٧٣ . وقد جرى امبراطرة بيزنطة على هذه القاعدة فتحت جنوى وبيزا والبندقية هذه الامتيازات . وفسر هذا العمل أولاً بأن سيادة الدولة تشمل أبناءها فقط وان ميزة الانتماء الى حكومة معينة كانت أثمن من أن يوسع نطاقها حتى تشمل الأجانب . فلما كثر عدد الأجانب القاطنين بعض البلدان ، قيل انه من الفطنة أن يخضعوا لقانون من القوانين ، وان خير قانون يخضعون له هو قانون بلادهم الأصلية

فلما قامت الدولة العثمانية ، كان نظام الامتيازات قد رسخ فحافظت عليه . فقعدت الحكومة العثمانية معاهدة الامتيازات الأولى سنة ١٥٣٦ مع الفرنسيين . فكانت معاهدة تجارية ومعاهدة إقامة تحول الفرنسيين الإقامة في تركيا وتعين نوع القضاء الذي يخضعون له . وضمت المعاهدة لهم الحرية الفردية والدينية ، وخولت حكومة فرنسا حق تعيين قناصل لها في تركيا يكون من اختصاصهم الحكم في القضايا المدنية والجنائية الخاصة بالفرنسيين المقيمين في تركيا وذلك وفقاً للقانون الفرنسي ، وأن يطلبوا من رجال السلطان مساعدتهم في تنفيذ الاحكام

وقد جرت جميع معاهدات الامتيازات التالية على هذه الوتيرة . ففي سنة ١٥٦٩ جدّد السلطان سليم الثاني الامتيازات الفرنسية التي منحها سلفه . وفي سنة ١٥٨٣ فازت انكلترا بامتيازاتها الاولى وقد كانت فرنسا حتى تلك السنة حامية جميع الاوربيين المقيمين في تركيا . ثم حاولت بريطانيا بعد ذلك ان تدعي لنفسها حق حماية الأجانب في تركيا فأبى ذلك عليها في الامتيازات الفرنسية المجددة سنة ١٥٩٧ و ١٦٠٤ و ١٦٠٧ اذ نصت نصّاً واضحاً على ان فرنسا هي حامية جميع الاوربيين الذين ليس لدولتهم سفير في الاسانة

وفازت هولندا بامتيازاتها في سنة ١٦١٣ والنمسا سنة ١٧١٨ وروسيا سنة ١٧٨٤ واقتفت آثارها اكثر الدول الاوربية في خلال القرن الثامن عشر وتبعها الولايات المتحدة الاميركية والبلجيكا واليونان في القرن التاسع عشر

وكان من شأن نظام الامتيازات الاجنبية ان اصبحت كل جالية اجنبية في تركيا بمنزلة «دولة داخل دولة» يتمتع افرادها بحرية الاقامة وحصانة المنزل وحرية السفر في بلاد الدولة العثمانية وحرية التجارة وحرية الدين والخضوع لقانون دولتهم لا لقانون تركيا

الامتيازات في مصر

طبق نظام الامتيازات على القطر المصري عند ما كان ولاية من ولايات السلطنة العثمانية، ولكنه عدل قليلاً في عهد الحديو اسماعيل عند ما أنشئت المحاكم المختلطة. وبمقتضى هذا النظام كان للاجنبي المقيم في هذه البلاد حقوق تميزه عن اهلها يمكن ان تلخص في ما يلي :

اولاً — لا يحق للحكومة المصرية ان تفرض على الاجانب المقيمين في مصر ضريبة على الدخل من دون موافقة الدول صاحبة الامتيازات. ثانياً — جميع القضايا المدنية والتجارية بين الاجانب والمصريين او بين الاجانب من رعايا مختلفة تعرض على المحاكم المختلطة. ثالثاً — جميع القضايا الجنائية التي يهتم فيها اجانب تعرض على المحاكم القنصلية الخاصة بالدول التي ينتمي اليها المتهمون. رابعاً — لا يحق للحكومة المصرية ان تفتش مقر اجنبي الاّ بسماع من قنصله، ولا يجوز لرجال البوليس المصري ان يدخلوا داره او مكان عمله من دون هذا السماح الاّ في احوال استثنائية وهي حالة التلبس بالجريمة

ولا يخفى ان هذه الامتيازات واسعة النطاق تفضي الى عقد كثيرة في اقامة العدل وكثيراً ما كانت باعثاً على الجور علاوة على ما تقيد به سيادة مصر في نواح مختلفة من حياتها القومية

ففي المقام الاول لا يسع الحكومة المصرية ان تبسط نظام الضرائب الذي لا قيام من دونه لاية حكومة عصرية، ما زالت الدول صاحبة الامتيازات تستطيع ان تأبى فرض ضريبة جديدة على دخل رعاياها، ورعاياها قابضون في الغالب على ازمة التجارة والصناعة في البلاد. واذا خطر للحكومة المصرية ان تفرض ضريبة من هذا القبيل وجب ان تفاوض كل دولة من هذه الدول — وعددها اربع عشرة دولة — على حدة، وهو سبيل وعر طويل يعرف له اول ولا يعرف له آخر. وقد يُظن ان المسألة شكلية فقط وما على الحكومة المصرية الاّ اعداد مذكرة تطلب فيها من الدول صاحبة الامتيازات الموافقة على الضريبة المقترحة فيأتيها الرد بالقبول برجوع البريد. ولكن الواقع ان المذكرة المصرية تفضي الى ردود عليها فيها مقترحات معدلة ومناقشات في امور لها صلة بالموضوع الاصيل وقد لا يكون لها به صلة، وقد لا تفضي المفاوضات الى نتيجة مقبولة الاّ بعد اشهر او بعد سنين اذا افضت اليها على الاطلاق

وفي المقام الثاني، لا ينكر منكر ان المحاكم المختلطة قد رفعت عن كاهل مصر جانباً كبيراً من

عبء مفسد الامتيازات كما كانت تمارس فيها قديماً او في السلطنة العثمانية بوجه عام ، ولكنها أصبحت وسيلة فعالة تستعملها الحكومات صاحبة الامتيازات للضغط السياسي على الحكومة المصرية ، وللتدخل في التشريع المصري ، لان هذه المحاكم غير ملزمة بتطبيق أي تشريع جديد تصدره الحكومة المصرية ، الا اذا وافقت عليه الجمعية العمومية لمحكمة الاستئناف المختلطة . فكانت هذه الجمعية أصبحت في مصر وفي عصر الدستور خاصة ، مجلساً تشريعياً ثالثاً في دائرة معينة ومما قاله لورد كرومر في هذا الصدد في كتابه مصر الحديثة انه من المفارقات ان تطلب موافقة رئيس الولايات المتحدة الاميركية وملك السويد على قانون يطبق على رعايا امبراطور النمسا او ملك البلجيك . ثم انها علاوة على ما تقدم قيد من قيود السيادة المصرية لانها تعني ان الحكومة المصرية لا حق لها في تعيين جميع قضاتها

ونتيجة التشريع بالمفاوضة الدبلوماسية قيام عقبات في سبيل التقدم وفتح الباب للمساومة وفي المقام الثالث ، ان نظر القضايا الجنائية التي توجه فيها التهمة الى الاجانب ، في المحاكم القنصلية المختلفة ، افضى الى اختلاف بين في اقامة ميزان العدل في مصر . ذلك ان كل محكمة قنصلية تطبق في نظر هذه القضايا القوانين المتبعة في بلادها ، والاساليب المقبولة في اقامة الدليل ، فكان من اثر ذلك ، ان اجنبيين تابعين لدولتين مختلفتين ولكن متهمين بتهمة واحدة يقدّمان كل الى محكمة بلاد القنصلية ، فتثبت التهمة عليهما فيعاقبان عقابين مختلفين . او قد تكفي الادلة نفسها لادانة الواحد وعدم ادانة الآخر ، واذا كان لهما شريك ثالث وكان مصرياً فقد يكون الحكم عليه ، من حيث الادانة ومدى العقاب ، مختلفاً عن حكم القنصليتين

وفي المقام الرابع ان المفساد التي نشأت عن حصانة الاجنبي من تفتيش البوليس المصري ، من دون سماح السلطات القنصلية ، كثرت وتعددت وجوها ، بحيث اسبغت على الامتيازات الاجنبية صورة بشعة ينجل منها الاجانب ويتبرّم بها اهل البلاد

ففي الجاليات الاجنبية في الاسكندرية والقاهرة وغيرها ، عناصر من هذه الجاليات اصلاً او تنتمي اليها بالتجنس وهو الاكثر ، بحسب من اشد العناصر اقلاقاً للامن وارثكاً للمفساد وكثيراً ما تعتمد الى التحصن وراء هذا الحق — اي الحصانة من تفتيش البوليس المصري — للتفلت من العقاب الذي تستحقه . ثم ان هؤلاء كثيراً ما يشتركون مع بعض المصريين ليسبغوا على الاعمال المشتركة حقوق الامتيازات ، ويغلب ان تكون هذه الاعمال المشتركة اما كن للميسر او تعاطي المخدرات او الاتجار بالرقائق الايض . فاذا قرّر البوليس المصري ان يفش هذه الاماكن اضطرته المعاملات الرسمية التي لا ندحة عنها بحسب نظام الامتيازات الى التأخر فتتاح للمتهمين فرصة التهرب والنجاة . والامثلة على ذلك كثيرة

خطبة رفعة النحاس باشا في مؤتمر الامتيازات

[وجهت الحكومة المصرية دعوة الى الدول صاحبات الامتيازات في مصر لتوفد مندوبها الى مؤتمر يعقد للبحث في الغائبات . وقد بدأ المؤتمر عمله يوم ١٢ ابريل في بلدة مونترو بسويسرا فانتخب صاحب المقام الرفيع مصطفى النحاس باشا رئيس الوزارة المصرية ورئيس الوفد الرسمي المصري رئيسا للمؤتمر فألقى رفعة خطبة جامعة بين فيها حقوق مصر وموقفها وأبلغ بيان فنشرنا نص الخطبة كما نشرت في جريدة « المصري » مترجمة عن النصوص الفرنسية التي تلقتها بالتلغراف ، وقد اضطرنا ضيق المقام الى الاستغناء عن كلمة الشكر التي وجهها النحاس باشا في مستهل الكلام الى حكومة سويسرا ورئيس اتحادها وسكرتير عصبة الامم]

ايها السادة : اني واثق كل الثقة وأنا التي هذه الكلمة في مستهل المفاوضات التي نبدأها اليوم انه من المتجلي لكم ان حسن نية الحكومة المصرية متوفر لكم جميعاً كما اني واثق بان هذه النية الحسنة من جانبنا تقابلها نية حسنة ايضاً من لدن الدول ذات الامتيازات

واننا ونحن اقوياء بحقنا واقوياء باعتدال المقترحات التي نقدمها واقوياء كذلك بروح التفاهم الذي يخالجكم قد دعوناكم الى هذا المؤتمر الذي سيوثق على قاعدة اكثر مرونة وانسجاماً العلاقات بين مصر والاجانب ويسم صلاتنا المقبلة بروح حيوية جديدة

ان المشكلة التي سنبحث حلها معاً هي باختصار من أبسط المشكلات ومن اكثرها وضوحاً ونحن نعرضها للبحث بصراحة تامة اذ نطلب الغاء الامتيازات حالاً واننا اذ نفعل ذلك لانطالب بشيء من شأنه ان يثير المخاوف او الظنون وحسبنا لاقامة الدليل على عدالة قضيتنا ان نذكر ان جميع الدول تعمل على تحقيق المساواة في المعاملة لرعاياها وكل ما تطلبه مصر هو ان تعيد مساواة ابناؤها الوطنيين بالاجانب المقيمين في أرضها

ايها السادة : ان الامتيازات تؤلف نظاماً يتعارض تعارضاً استثنائياً مع روح العصر ولا ينسجم مع حالة مصر الحاضرة ومع حياتنا الوطنية بل هي اعتداء فاضح على كرامة البلاد وعلى تطبيق مبدأ سيادتها فضلاً عن انها تشل حركتها بين الدول المتحضرة

ثم ان هذا النظام قد زال تقريباً من جميع البلدان التي كان قائماً فيها ولا سيما في تركيا حيث كان منشأه وقد ورثناه عنها ، افلا يكون من العجيب ان يظل قائماً في مصر في هذه الساعة ولا يسع المرء ان يتصور ذلك عندما يذكر التقدم الذي تقدمته مصر في جميع الميادين وفيه دليل على نموها وتطورها الى اعظم درجة . وفي الواقع ان مصر قد بنت على احداث القواعد نظم التشريع وادارة القضاء وتنظيم المالية في الداخل وفي ادارتها وفي البوليس . وعلاوة على ذلك فان مصر

محكومة بدستور مستمد من أكثر المبادئ الدستورية تحولاً وتقدماً وحياتها البرلمانية حرة وثابتة ومصر بلاد مسالمة الى اقصى حد وهي تحترم المصالح الشرعية وحسن ضيافتها مضرب المثل . فتحسن اذن تقدم الى هنا ولنا ثقة بان دوام الامتيازات سيبدو لكم امراً لا يمكن التسليم به كما يبدو لنا تماماً لقد قلت ان الامتيازات اعتدائه صارخ على سيادة مصر واقول هنا انها انشئت في الاصل لضمان الاجانب من كل حيف او غلو في المعاملة في الضرائب والرسوم وقد تحولت شروط اقامتهم في مصر على مر الزمان وتباعاً تحولاً اضاف الى هذا الضمان ما سمي ضمانات مالية جعلت الاجنبي غير خاضع لدفع ضريبة الا اذا وافقت الدولة التي ينتمي اليها على ذلك وسيكون من رأي حضراتكم حتماً ان حالة كهذه لا يمكن السماح بها وستقدرون ما لقيود كهذه من نتائج في عالم اقتصادي معقد وازاء مقتضيات مالية تزداد زيادة مطردة فانها — اي تلك القيود — لا يمكن من تحقيق اي تقدم مستمر كما انها تحول دون تحقيق اي عمل اجتماعي واسع النطاق بعيد الاثر . وبين المساوىء التي ولدتها الامتيازات بتفسيرها تفسيراً خاطئاً وبتطبيقها تطبيقاً سيئاً فاسداً يجيء في الطليعة الامتياز المالي فهو من أثقل تلك الامتيازات وطأة على حرية العمل في الدولة المصرية اذ لا يسع الدولة ان تفرض ضرائب على الوطنيين بدون ان تفرض الضرائب ذاتها على الاجانب وذلك تطبيقاً لمبادئ الانصاف الاولى ولتجنب المداورات والهرب من الضرائب ويقال مثل ذلك عن الضمانات التشريعية والقضائية التي نشأت عن الاعلاط عنها وعن التفسيرات ذاتها فقد نشأت سلطة القناصل القضائية في بادىء الامر نشأة متواضعة جداً في مستهل عهدها وكانت مقصورة على الخلافات والمنازعات التي تقع بين اجانب من جنسية واحدة فانهى الامر بواسطة سلسلة من الافتئات الفاسدة الى خلق حالة شبيهة بالفوضى وكان يكفي ان تمنح احدى الدول نفسها امتيازاً ما لا حق لها فيه لكي تسلك الدول الاخرى مسلكها مع اعترافها بعدم شرعية ذلك الامتياز ، وقد صحب هذا التوسع في الامتيازات تعمق في تطبيقها ، فانه منذ سنة ١٨٥٠ لم يزد الامتيازات فقط بل انها اصبحت تنطبق على عدد اكبر من الناس ، ومن هنا غدت العلاقات بين المصريين والاجانب اكثر تعقيداً مما اوجد حالات جديدة للنزاع كانت تسويتها ذريعة جديدة لافتئات جديد

وافضى تراكم الخلافات والاساءات الى ان اصبحت الامور سيئاً الى الاجانب انفسهم وهذا ما أدى في الواقع الى انشاء المحاكم المختلطة وبينما خطر للدول ان تكون هذه المحاكم بمثابة هيئة تحت التجربة قررت حكومة الحديو ان تكون المحاكم المختلطة نظاماً مؤقتاً ريثما تؤلف هيئة من القضاة المصريين ومدرين على النظم الاوربية وتنظم السلطات القضائية الاهلية ، وفي تحديد مدة المحاكم المختلطة بخمس سنوات في بادىء الامر ثم ادخل نص حق الغائها بعد اعلان الدول

بسنة من الزمان — حقق في نظر هؤلاء واولئك هذه الصفة الوقتية بوجه خاص
ان الغرض الذي اتجه اليه الخديو اسماعيل ونوبار باشا رئيس وزرائه اي انشاء قضاء يطابق
روح العصر والعمل على انشاء هيئة قضائية وطنية منسجمة قد تحقق من زمان طويل . فانشئت
قوانين مستوحاة من الارتقاء الحديث في التشريع لكي تطبقها المحاكم الاهلية
وقد بدا في هذه القوانين وتنظيم المحاكم الجديدة محسنات جمة بالقياس الى القوانين التي
وضعت قبلاً . فالمحاكم الاهلية التي انشئت منذ نصف قرن قد اجتازت دور التجربة
ودلت على كفايتها . والحكومة المصرية لم تكف مطلقاً من ناحيتها عن ادخال جميع وجوه
الاصلاح التي دلت التجارب على وجوبها

واذن يحق لنا ان نقول ان مدة المحاكم المختلطة قد انتهت
ولكن لما كانت مصر ترغب في ان تقيم الدليل على اعتدالها وعلى محافظتها في نطاق امكانها
على مصالح الافراد المرتبطين بطبيعة اعمالهم بهذه المحاكم لم تشأ ان تفكر في الغائها عاجلاً
وقبلت الاحتفاظ بها خلال مدة معقولة على ان لا تطول ! اكثر مما يجب
ولكن ذلك لا يمكن ان يطبق على وظيفتها التشريعية . ولا يسع المرء الا ان يدهش من
ان محكمة للعدل مكلفة بتطبيق القوانين يكون لها اختصاص تشريعي . والواقع ان من نتائج الامتيازات
غير المتوقعة والتي لا يمكن تفسيرها انه بينما كانت الدول غير معنية الا بالضمانات القضائية حملت مصر
على طلب موافقة الدول على كل تعديل في القضاء المختلط . وقد قبلت هذه الدول بعدئذ ان
تعهد في سلطاتها الى الجمعية العمومية لمحكمة الاستئناف المختلطة . ولكن في ذلك حالة لا تتفق مع
مقتضيات حكومة عصرية

ان هذه الحالة حالة القاضي المشرع مناقضة بداهة لمبدأ فصل السلطات . ومن ناحية أخرى
لا يسمح الوقت للقاضي ولا مؤهلاته ولا عدم حمله المسؤولية التشريعية بالنهوض بهذا العمل
وعلاوة على ذلك وبوجه خاص ان هذا تحديد خطر للسيادة ليس أقل نتاجه انه يجعل
من المتعذر التفسير التشريعي للقوانين وهذا يخالف لروح التشريع اذ كيف يستطيع البرلمان وهو
الاداة الطبيعية للتشريع ان يوفق بين عمله وبين حالة كهذه تنتقص من حقه العام
وان مصر التي في وسعها ان تضمن لسكانها الاجانب والوطنيين قوانين هي من أرقى
القوانين ولها مجلسان تشريعيان ودستور هو من اكثر الدساتير حرية لا تستطيع ان تقبل
الاحتفاظ بامتياز مرهق كهذا الامتياز . فمن الطبيعي ان يشتمل برنامجنا على الغاء الامتيازات من
جميع وجوهها ومنها الغاء عاجل لسكل حصانة تشريعية بما فيها الحصانة المالية
أما المحاكم المختلطة فلا يمكن ان تبقى كما هي خلال فترة الانتقال لان هذه الفترة لم تقترح

الآن لتفضي الى الغاء المحاكم المختلطة بتحويلها تحولاً تدريجياً . ولولا ذلك لم يكن ثمة مانع من ان تلغى حالا . ولكن الرغبة في ان تجعل هذه الفترة فترة انتقال حقيقية ولكي فصل تدريجياً الى الغرض المقصود نبغي ان نسير بطريقة تجعل هذا الانتقال يتم من غير رجة وهذه الطريقة تشتمل على اجراءين : أولاً — نقل اختصاص المحاكم القنصلية الى المحاكم المختلطة . ثانياً — انشاء نظام للمحاكم المختلطة تقل فيه العناصر الاجنبية تدريجياً فتمهد السبيل لقيام المحاكم الاهلية بعملها

أما ما يتعلق بنقل اختصاص المحاكم القنصلية الى المحاكم المختلطة فيفسر بضرورة توحيد ادارة القضاء . وليس ثمة ما هو أعظم خطراً من تعدد القضاء الجنائي في بلاد واحدة لان القانون الجنائي يجب ان يكون وحدة متماسكة تبين الاجراءات الضرورية لحفظ الامن والنظام في بلاد ما في وقت معين واذن لا يمكن للعقل ان يتصور الاعتماد على قوانين اجنبية ومحاكم اجنبية لحفظ النظام بمصر وعندنا في هذا الصدد أمثلة تبث على القلق تدل على عدم المساواة في الاحكام في قضايا حكم على أصحابها او المشتركين معهم أحكاماً مختلفة في جرائم واحدة او جنح واحدة أما في ما يتعلق بنقل قانون الاحوال الشخصية الى المحاكم المختلطة فليس هناك أي صعوبة فعدا كون هذه المحاكم كانت تنظر الخلافات التي من نوع شخصي علاوة على غيرها من الخلافات المدنية التي من اختصاصها فانها لن تكون أقل قدرة على تطبيق القوانين الاجنبية من تطبيق القوانين المختلطة . ثم ان مجموعة قواعد القانون الدولي الخاص تكفي لطمأنة الجميع وتبديد كل المخاوف

أما الاجراء الثاني اي انشاء فترة انتقال فغني عن البيان ان الخطوة الاولى هي الغاء مبدأ اكثرية القضاة الاجانب . ان هذا المبدأ لا يمكن ان يتفق وفكرة الانتقال نفسها . فاذا بدأنا بفكرة ابقاء القضاة الاجانب القائمين بالعمل الآن كان القول بالغاء مبدأ الاكثرية الاجنبية هو الصيغة الوحيدة التي تضمن الانتقال الحقيقي . فالقوانين الخاصة بالقضاة في ما يتعلق بعدم نقلهم او عزلهم والضمانات الضرورية لصون استقلالها تبقى من دون تفسير تقريباً . ولكن أهم التعديلات تتعلق بمادة الاختصاص وهي من نوعين مختلفين

فتعديلات النوع الاول تقصد الى توسيع نطاق القضاء والاخرى الى تحديده في بعض النقاط وهذه الاخيرة مرتبطة بمستحدثات قضائية في المحاكم المختلطة وهي تحديد معنى « الاجنبي » ومعنى « المصلحة المختلطة » وغيرها وان القاعدة الجديدة في التنظيم القضائي انما تعود الى الفكرة الاصلية التي توخاها واضعو لأحة ١٨٧٥ بابقائهم المساواة التامة بين القضاء الاهلي والقضاء المختلط وبالنص على انه من حق الاجنبي اذا شاء ان يخضع للمحاكم الاهلية

اما في القانون الجنائي فيسحفظ بالقوانين القائمة في المحاكم الاهلية ويضاف اليها الاختصاص في الجرائم والجنح التي يرتكبها الاجانب
ايها السادة: هذه هي القواعد الاساسية للمشروع الذي سيتشرف الوفد المصري بايداعه مكتب المؤتمر فليطمئن الأجانب الذين لا يعرفوننا . ففي أي بلاد من بلدان العالم يرون انسجاماً بين الاجانب والوطنيين اتم مما يرونه في بلادنا ؟ أين يجدون حسن ضيافة وتساهلاً ولطفاً في العلاقات وظرفاً في المعاملات ومودة حقيقية تبلغ من تغلغلها في القلوب من زمن بعيد ان أصبحت تقليدية وكأنها طبيعية . الى شعور الصداقة هذا ينضم عامل آخر هو عامل مصالحتنا في المحافظة على تعاون يؤذن في المستقبل بخير الثمار . ومن الواجب عليّ في هذا المقام ان اذكر بالاحترام العلماء والمعلمين والماليين والتجار وجميع اجيال الاجانب من اصحاب المواهب العالية والنية الحسنة الذين ما زالوا منذ قرن من الزمان ينقلون الى بلادنا كنوز معرفتهم وخبرتهم ونشاطهم . ان ذكر اكرم ستهيمن دائماً على العلاقات الودية المتوثقة لحسن الحظ بين جميع سكان بلادنا وتبدو خاصة في الاحتفاء الطيب الذي تعده مصر لضيوفها الاجانب . ان تقاليد التساهل والتسامح التي اقامت مصر عليها الدليل دائماً في الماضي تسمح للمصالح الاجنبية المادية بل للمصالح الذهنية والمعنوية كذلك بأن تنمو نمواً حراً في ظل القانون

ايها السادة : بعد معاهدة الصداقة والتحالف التي عقدناها مع بريطانيا العظمى تنوي مصر ان تنظم قريباً في جامعة الامم لكي تهض بحرية بنصيبها من التبعات الدولية في خدمة السلام والانسانية على اساس من المساواة مع الدول الاخرى . وان مصر لتشعر بتبعاتها الحقيقية ولكنها لا تكون خليقة بمسكتها الا اذا عنت دائماً بالعمل والتعاون مع الجميع لتضمن العدل والسلام وعلى كل حال فان مواطنكم الذين يقطنون بلادنا قد ادرکوا ذلك من زمن بعيد ولذلك اشتركوا بنصيب فعال في افراحنا القومية التي صحت توقيع المعاهدة البريطانية المصرية واذا كانوا وقد عاشوا في وادي النيل المطمئن ورأوا حتى في أشد الساعات حرجاً أشخاصهم وتملكاتهم مصونة فكيف لا يستطيعون الاستيثاق من ان هذا الصون سيكون اتم في المستقبل في ظل حكم طبيعي سوي ؟

ومن بواعث سرورنا العظيم ان نرى مواطنكم محتفيين بصلاتهم العاطفية والعقلية بأوطانهم لا يترددون مطلقاً في الدخول في نطاق الوطن المصري الذي ينوي ان يبسط من دون تمييز على جميع دوائر النشاط نعمة القوانين العادلة المعتدلة الحرة . انا نريد ان نصل الى نتيجة ولا بد ان نصل ومهما تكن المصالح التي يتناولها هذا المؤتمر كبيرة فان نجاح المؤتمر مصلحة اكبر لانه يفسر في مصر بأنه البرهان القاطع على روابط الصداقة القديمة التي تربط المصريين والاجانب

امتيازات الملوك

بقلم امين الغريب

عما يستحق الذكر ان الملوك لا يدفعون رسوماً ولا ضرائب لمحض ان هذه الفرائض قد ضربت على الناس لاجل تأييد العرش وتأمين معاش كافٍ وافٍ للجالس عليه سعيداً . فلا يعقل ان يؤخذ من حيب الملك نفسه بعض المال ليوضع في الحيب الاخر على أن هذا المبدأ قد تغير الآن . وصار الملك يتناول مرتباً مخصصاً له من الخزانة . اما باقي الواردات فبدلاً من ان يكون اليوم كما كان في الماضي مطلق التصرف بها يأخذ منها ما يشاء ويعطي ما يشاء — صارت الآن محرمة عليه تنفق بمعرفة المجالس النيابية على مصالح الامة او — كما هي الحالة في بعض الاماكن البائسة — على مصالح الموظفين دون سواهم من الامة فالיום جورج السادس ملك الانكليز لا يستطيع ان يكافئ شاعراً مدحاً بقصيدة مثلاً — بعشرة آلاف دينار كما كان الملوك يفعلون في صدر الدولة العربية . او عند ما يسمع نكتة لطيفة من زائر غريب أن يصيح بأعوانه : « زه . زه . املاوا فهُ ذهباً » كما كان يفعل كسرى انوشروان . ولئن اعطى احد ملوك اليوم شيئاً زهيداً فذلك من مخصصاته المعينة المسجلة على ان ملك الانكليز الاسبق جورج الخامس لما تبوأ العرش البريطاني سنة ١٩١٠ سئل هل يريد ان يقتني اثر والده ادوارد السابع وجدته فكتوريا في عدم التمتع بحقه القانوني الذي يعفيه من دفع الضرائب فأجاب : « كلا . بل اريد ان أمتع بهذا الحق واعفى من جميع الضرائب والرسوم » وقد قال ذلك بناء على رأي مستشاريه طبعاً . اما الملكة فكتوريا فكانت قد تنزلت عن ذلك الحق ودفعت الضرائب لان الاحوال في بداية عهدها (سنة ١٨٤٢) اقتضت انشاء (بل اعادة) الضريبة على الدخل . وهي ضريبة عادلة اشد انطباقاً على العقل والمنطق من سائر الضرائب المفروضة على الشعوب . فالذي يربح مالاً من اي وجه كان يدفع الى الحكومة رسماً على ما يربح . والذي لا يربح يعني بطبيعة الحال . وهكذا لا يبقى الفقير مظلوماً والغني غير ممسوس بشيء كما هي الحال في البلدان المتأخرة . لكن الانكليز ولا سيما اغنياءهم لم يرتاحوا طبعاً الى القانون الجديد . وكانت فكتوريا العاقلة الرصينة مقتنعة بصوابه . فاعلنت انها تنزل عن حقها في عدم دفع الضرائب وتخضع من تلقاء نفسها له قاصدة بذلك ان يحجل المتدمرون وزول العقبات كلها من امام العجاة

ولما خلفها ادوارد السابع تابع العمل العظيم الذي بدأته والدته العظيمة . وزاد على ذلك بعد عامين من جلوسه على العرش انه تنزل عن حقه في اعفاء ما يرد باسمه من الخمر والمشروبات الروحية والدخان من المكوس الجمرية . وكان هذا المبلغ جسيماً لان هذه المكوس باهظة وما يرد من تلك الاصناف على البلاط الملكي بمقادير كبيرة . وقد استحسن الملك ادوارد السابع ان يخسر من مخصصاته ذلك المبلغ وهو نحو خمسين الف جنيه في السنة لكي يربحه صندوق واردات الحكومة فلما جاء الملك جورج الخامس ودرس حسابات القصر ودقق في سجلات النفقات والواردات رأى الأمور بغير العين التي كانت لوالده . لان جورج كان يتناول في عهده الراتب عينه الذي قرره القانون لجده فيكتوريا عام ١٨٣٧ ووالده ادوارد السابع سنة ١٩٠١ . ومعلوم ان الجنيه في عهد فيكتوريا كان يشتري أكثر كثيراً من الجنيه في عهد جورج . ولهذا أبي الحفيد ان يتابع الخطة التي درجت عليها جدته . وأقرته الحكومة على عمله بكل طيبة خاطر على ان الملك جورج الخامس تخلص في هذه الخطوة من كل ملامة وعتب من جانب رعاياه باتفاقه مع الحكومة على ان تدير هي الأملاك المخصصة به من أراض زراعية ومسقات كثيرة لحسابها لقاء ثلثمائة الف جنيه تدفعها له نقداً كل سنة . وهي مازالت تدير هذه الاملاك وترجع لخزانة الدولة مبلغاً جسيماً بعد حسم المال المنفق على تخصيصه له

وقد سببت هذه الأعمال في البلاط البريطاني مشكلات عديدة لملوك آخرين . لأن صحافة ايطاليا وبلجيكا وهولندا وأسوج وزوج والدانمارك وفي العهد السابق المانيا والنمسا حملت حملات صادقة على ملوكها كي يقتدوا بملك الانكليز ويتزلوا عن حقهم القديم في عدم دفع الضرائب . لكن ملوكهم لم يقتنعوا . ولما جاء الملك جورج الخامس الانكليزي أيدهم هو أيضاً في عدم الاقتناع على ان الشعوب أحياناً اذا أطعمت الكراع طمعت بالذراع . فان الملكة فيكتوريا الانكليزية نوقشت في صحف بلادها حسابات مرّة ، مرّة بعد مرّة ، لانها لما تنزلت عن حقها في عدم دفع الضرائب استتبت الرسوم البلدية خصوصاً وتمنعت عن دفعها . وقد بلغ الحقد من بعض المجالس البلدية انها أقامت قضية على فيكتوريا لدى المحاكم بطلب تلك الرسوم منها أسوة بسواها . لكن المحاكم أسرع الى رد هذه القضية ضاربة بها عرض الحائط

وهذه الامتيازات الملكية في انكلترا تتجاوز شخص الملك وتشمل أبعد أنسابه . من ذلك ان والدته ماري الملكة الوالدة الحالية ، وهي الدوقة تك ، استطاعت قبيل موتها بقليل تعطيل قضية مقامة على زوجها الالماني في محكمة رتشموند البريطانية بطلب رسم بلدي على كلابه . وقد سقطت هذه القضية بمحض ان الدوق تك حو جلالة الملك ، وبالتالي من السلالة المالكة . أما ادوارد السابع فكان ، وهو ولي عهد ، يدفع للمجالس البلدية التي له أملاك في مناطقها مقدمة مالية سنوية .

لكنه لم يتبع بعد تبوء العرش عن ذلك لكثرة ما آل الى عهده من الاملاك في مناطق عديدة
أما في ألمانيا فكان الامبراطور والملوك والصغار جميعهم يدفعون المكوس على وارداتهم الاجنبية
عند وصولها الى الحدود الخارجية عن حدود ممالكهم الخاصة . فالامبراطور لم يكن يدفع شيئاً
لمحرك برلين لأنها في أملاكه . لكنه كان يدفع مثل رعاياه لمحرك البلدان الخارجية عن نطاق
بروسيا . وقد مازحته الجرائد الالمانية كثيراً عند ما سنت حكومته سنة ١٩١٠ قانوناً يرفع
كثيراً المكوس المفروضة على المحرور الفرنسية . فأمر الامبراطور بالتعجيل في استجلاب ملء
شاحنات حديدية ثلاث من اجود أنواع المحرور الفرنسية وأطبقها حتى تقطع أفريكور بعد ظهر ٣٠
يونيه من تلك السنة . وذلك لانقاذها من دفع الزيادة على المكوس التي كان مقرراً تنفيذها في
الغد ، اي من أول يولييه فصاعداً

وقد اهتمت صحف ألمانيا بذلك لما كان الامبراطور غليوم الثاني يتبجح به من
الكره لكل خمر غير الماني ولا سيما الشمبانيا الفرنسية . وهو كره لفظي لم يصدقه في وقته
احد . وما كان بسمرك عالماً باحتيال مولاه في ابدال الورق الملصق على القناني الفرنسية بورق
الماني تمويهاً وتضليلاً للجالسين على مائدته الامبراطورية . لان ذلك السياسي الداهية كان
يؤكد ان الشمبانيا الالمانية تقسد له معدته . وانه مع استعداد الدائم للتضحية بنفسه كلها في
في سبيل وطنه لم يكن مستعداً على الاطلاق للتضحية بمعدته وحدها

والشيء بالشيء يذكر . فقول ان تمنع الملوك الالمانيين عن دفع الرسوم في بلدانهم كان مع
قانونيته يثير عليهم صخب الرأي العام احياناً . فان دوق سكس ماتجن كان واسع الثروة جداً
وقد ادى اعفاء املاكه من الضرائب الى فقر الخزانة غالباً حتى اخذت الحكومة تبث روح
المقت له ، وصار كل موظف يتأخر عنه مرتبه يضع الحق في ذلك على الدوق ويدعو له
باشياء كثيرة غير طول العمر

ومعلوم ان بعض الملوك كانوا ولا يزالون يتاجرون نظير رعاياهم لا رأساً وصراحة بل
بالواسطة وفي الخفاء . فليوبولد الثاني جدملك بلجيكا الحالي كان يدير اشغالا عظيمة في ولاية الكونغو
الحره . والامبراطور غليوم الثاني الالمانى وملوك اسوج وبافاريا وورتمبرج وهس كانت لهم
علاقات مالية كبيرة ببعض الفنادق الكبرى وسكك الحديد والمصارف . فلا غرو في ان ينكر
الناس عليهم حق التماذي في التمتع عن تأدية الضرائب نظير سواهم من العباد
ولا بد من الاشارة الى ان ليس بين ملوك الارض الذين تفوضت ارائكم اوسلمت في هذا
العصر من يساوي ملك الانكليز في التخفيف عن عواتق رعاياه لاجل القيام بأوده . ولانستني
ملك موناكو وملك لتشنشتين الصغيرتين

ان جمهوريات فرنسا والولايات المتحدة حتى سويسرا نفسها التي رتبت لرئيسها خمسين جنيهاً في الشهر فقط تنفق على رؤسائها أكثر من انكلترا على ملكها واسرته . اما المستعمرات البريطانية والدومينيون فلا تدفع فلساً قط لاعاشة الملك . بينما املاكه الخاصة التي تديرها الحكومة لقاء ثلثمائة ألف جنيه في السنة تدرّ لها فوق ذلك نصف مليون جنيه . والملك يعلم ذلك كما كان والده وجده وابيه يعلمون من قبله . لكنهم رأوا ما يصيبهم من هذه الصفقة كافيّاً فلم يشاءوا الزيادة . وبدلاً من ان تكون الاسرة المالكة في انكلترا عبئاً ثقيلاً على طائفة الامة بلغ الربح الذي اصاب الامة من ادارة الاملاك الملكية من بدء هذه الصفقة اي منذ مائة سنة نحو سبعة وسبعين مليون جنيه . وهذا طبعاً في عداد الاسباب التي لاجلها يجب الانكليز ملكهم كثيراً ويدعون في نشيدهم الوطني : « الله يحفظ الملك »

ومعلوم ان ملك انكلترا لا يزال بمقتضى القانون مطلق السلطة كما كان سلفه القديم ولیم الفاتح . فهو رئيس الاشتراع في البلاد . وما المجلس النيابي الا من اعوانه . ولا يصير القانون قانوناً بدون تصديقه . ومفروض حضوره في كل محكمة . وهو قادر على العفو عن جميع المجرمين . ولا سبيل الى مقاضاته او محاكمته على ذنب . لكن هذه الامتيازات كلها صورية فقط لم يسبق للملك أن استعان بها او أمر بامتحان قوتها . لان الملوك في كل مكان رضوا بالتخلي عن كثير من امتيازاتهم الداخلية ، ورضوا بالتجوير التام لمركزهم العالي كي يحفظوا بالسلطة الظاهرة واللعان الخارجي

على ان الملك الانكليزي مع افتراض حضوره قانوناً في كل محكمة لا يستطيع طبعاً ان يحضر بنفسه . وقد امتنع الملوك من عهد فيكتوريا عن حضور المناقشات في مجلس النواب . وهم لا يشهدون المجلس الا يوم افتتاحه فقط عند تلاوة خطاب العرش . وفي نهايته ينصرفون ولكن لا يجوز لاحد الوزراء والنواب ان يشير ولو من طرف خفي اثناء المناقشات الى ما هي رغبة الملك او رأيه في موضوع البحث . ففي اجتماع ١٧ ديسمبر ١٧٨٣ قرر مجلس الامة البريطاني : « ان اذاعة رأي حقيقي او مزعوم لجلالة الملك في اية مناقشة كانت من مناقشات المجلسين الاعلى والادنى بقصد التأثير في الاقتراع يعد جرمًا كبيراً مضرّاً بشرف التاج ومخالفاً لاساس الامتيازات النيابية ومزعزعاً للقانون الاساسي »

ولما قال النائب تيرني في احدى الجلسات سنة ١٨٠٨ ان احد زملائه كان « قد خالف رأي البلاد في خطابه ورأي المجلس وفي اعتقادي رأي الملك » اتهمه الرئيس ونهيه الى ان لا حق له في ادخال رأي الملك الشخصي في المناقشة

في عهد الملك جورج الثالث كان مفروضاً رسم خاص على كل من يعبر جسر همتن . وكان

الملك يصطاد الغزالان مع رفاق له . فانقسموا شطرين وطارد احدهما غزالاً الى ضفة النهر . فسبح الغزال الى الضفة الثانية . واسرع مطارده الى الجسر . ولما خشوا من التوقف لدفع رسم المرور ان ينجو الغزال بنفسه في الجهة الاخرى صاحوا بحارس الجسر : « الملك . الملك » . ففتح الحارس الباب على مصراعيه . ودخلوا كلهم بدون رسم . ولكن بعد هنيهة جاء الملك نفسه ورهطه وقالوا للحارس : « افتح للملك » . فرفض الرجل قائلاً ان الملك سبقهم ومر وبعد آلتيا والتي أفهموه انه مخدوع ففتح الباب متكرراً وقال : « ان مر من هنا ملك فرنسا فلن أفتح له » . على ان الغزال الذي كان الملك ورهطه يطاردونه نجح بحياته اثناء الجدل . فغضب الملك واستدعى حارس الجسر ليوبخه . لكنه عاد فاقنع بصحة كلامه ودفع له الرسم المعين عن اربعين من رفاقه

ويعد يومين مر جورج الثالث من هناك وعبر الجسر صائحاً من مكتبه بالحارس « ان ملك فرنسا لن يمر اليوم من هنا »

وملك انكلترا يعد صاحب مهود الانهر كلها . وصاحب الجزر التي تتكون على شواطئ بلاده . وله الحق الخاص دون غيره في طبع التوراة وكتاب الصلوات الانكليكانية . وكل سمكة « سلطان ابراهيم » (بوربوي) يصطادها الصيادون تكون له . وكل حوت يكون رأسه له وذنبه للملكة بمقتضى القانون البريطاني

ثم ان الملك ادوارد السابع وحده كان كاهناً بحسب طقس الكنيسة التابع لها . يأخذ جنباً واحداً في السنة من كنيسة القديس داود في وايلس لقاء حقّه في لقاء عظة واحدة كل سنة من فوق منبرها . وكان محامياً قانونياً . ودكتوراً في الطب . على انه لم يرفع بتاتاً في قضية لمعجزه بمقتضى القانون عن الحضور الذاتي في المحاكم . ولم يطبب احداً لان احدى الجامعات اهدت اليه لقب دكتور طب ، وهو ائلس من هذا العلم

ومما يستحق الذكر ايضاً ان الملك انكلترا حقاً قانونياً في ان يمنع ايّاً كان من رعاياه من مغادرة البلاد . وان يستدعي ايّاً كان منهم اليها . لان الدفاع عن الملك حق له على جميع رعاياه ولكن ليس له ان يخرج انكليزياً من انكلترا رغم انه لهذا الغرض . فحق الدفاع عن ملك انكلترا يتناول انكلترا وحدها لا خارجها

وبالتالي كل انكليزي يخرج من بلاده للدفاع عن حقوق العرش والتاج يفعل ذلك من لطفه وكرم اخلاقه بمقتضى القانون الاساسي اذ لا حق في ذلك للملك عليه
ويعلم الله ان الانكليز قد تطفقوا كثيراً مع ملوكهم بخروجهم المتواتر حتى جعلوا الشمس لا تقيب عن املاكه

باب المراسلة والمناسبة

نظرات لغوية في

مختار الصحاح

للاب أنستاس ماري الكرمل

عضو مجمع اللغة العربية الملكي

١ - تمهيد

ألف الجوهري معجمه (الصحاح) ، فذاع بين الناس ذيوماً عجباً وأصبح حجة ، يستشهد به كل من أراد ان يدعم كلامه بدعامة متينة ، او يصحح ، او ينزه قوله عن كل شائبة أو شائنة . ولما شاع في أندية الأدب ، ومجالس العلم ، حسده عليه جماعة ، وحاولوا ان يحطوا من منزلة صاحبه ، لكن ذلك التنقص زاده علاء وسلطة على من ساوره وعاداه . فكان كل ما أخذوه عليه : « قذيفة شيطان رجيم رمى بها »

وأخذت طائفة أخرى تصنف المعاجم ، ومن وقت الى وقت تشير فيها الى ما في الصحاح من المغاير والاهام ، فلم يؤثر ذلك النقد الى ما في بحار الجوهري من الدرر واللاكيء ، بل الفرائد الغوالي ، وبقي تصنيفه عالي المقام ، كما ان القمر ، لا يناله الضرر ، اذا ما عابه الاطفال ، أو شتمه الاندال

هذه هي منزلة ابي نصر اسماعيل من البصرياء وفقهاء اللغة . ثم جاء الامام زين الدين بن محمد بن ابي بكر بن عبد القادر الرازي في المائة السابعة للهجرة ، (وهي المائة الثالثة عشرة للميلاد) واختصره اختصاراً حسناً سماه : (مختار الصحاح) ، فاتخذ كل متفقه أو أديب يجتريء بالوشل عن الفيض ، وبالقل عن الكثر ، فتخلل الطلبة والمتتمين الى المدارس ، وتناولته أيدي السكبار والصغار ، لأن صاحبه وضعه على طرف الثام

وقد نسخ هذا السفر مراراً لا تحصى ، وترى منه أمثلة في البلدان العربية اللسان ، لا بل في الديار الاعجمية ، كإيران والهند وبرقع الترك ، وارجاء الافرنج ، ومطارحهم . وكذا يقال عن طبعه ، فانه نشر في اصقاع شتى ، وأفاد مطالعيه الفوائد الجلى . وأحسن طبعاته ما برز بحلة قشبية في المطبعة الاميرية العامرة من وادي النيل المبارك ، على ما رتبته صاحب العزة محمود خاطر بك ، وقيده بالشكل الكامل صاحب الفضيلة الاستاذ الشيخ حمزة فتح الله المفتش الاول للغة العربية بوزارة المعارف العمومية سابقاً ، وعني بتصحيحه وتنقيحه وتعليق بعض حواشيه حضرة الزميل الصديق صاحب العزة الشيخ احمد بك العوامري ، من أعضاء

مجمع اللغة العربية الملكي . ولهذا السبب قررت وزارة المعارف العمومية المصرية طبعه على نفقتها ، واستعماله في المدارس الاميرية ، فجاء تحفة من التحف يتفاخر بها أرباب فن الطباعة ، وأبناء المدارس

ولما كان هذا المعجم في منتهى النفاسة ، مع ما عليه من صغر الحجم ، كان من الحق ان يخلو من كل شائبة ، او وصمة ، او عيب أيّاً كان . وقد رأينا في طبعته هذه ، بعض المغامز نود ان لا تكون فيها في الطبعة الجديدة الآتية ، ونفضل نشرها في المقتطف لما نالت هذه المجلة من الانتشار في الآفاق ، والذئوع بين ظهرائي المتتمين الى الأدب الصحيح وعشاق اللغة المضرية

ونحن لا نتكلم هنا الا عن اخلاص نية ، بغية الانتفاع بهذه الفريدة الخريدة صادق الانتفاع ، وسعيّاً لان يكون آية من آيات التحقيق والامعان في التدقيق

٢ — ملاحظات عامة

قال مرتب الديوان في المقدمة التي صدره بها ما هذا بعضه بحروفه : « هذا وقد آتى على (المختار) من تحريف النسخ والطبع ، ما تنكرت معه صورته ، ورثي له من أجله صاحب العطوفة الهمام ، « حسين نخري باشا » ، ناظر المعارف العمومية ، وصاحب السعادة « يعقوب ارئين باشا » وكيهنا المفضل ، فاستقر رأيهما على اعادة طبعه بنفقة المعارف ، وعهدا في تصحيحه وضبطه الى حضرة فضيلة الاستاذ الثقة اللغوي « الشيخ حمزة فتح الله » المفتش الاول للغة العربية في النظارة ، ورغب سعادة الوكيل المشار اليه ان يستتم الفائدة من الكتاب ، وان يسهل على الطلبة تناوله ، فرأى ان يكون على اعتبار الحرف الاول والثاني كما هو ترتيب المصباح ، للامام الفيومي ، وان ترد الى كل مادة مشتقاتها التي يصعب على الطالب ردها اليها ، مع حذف ما لا ينبغي ان يطرق مسامع النشء ، بشرط المحافظة على أصل الكتاب وقد تم بحمد الله تعالى وفق المرام » اهـ

فهذا كلام يدل على ان في (المختار) تحريفاً كثيراً ، منه ما وقع من قلم النساخ ، ومنه ما جاء من الطبع . ولهذا عني العلماء المذكورون فويق هذا بتصحيحه ، واعادة نصه الى نصابه بما في الامكان — الا ان هذا العمل او هذا المسعى الحميد لا يقفنا على ان التهذيب موافق للاصل ، او مقارب له ، اذ لم يذكر لنا ان المصلحين عثروا على نسخة الاصل ، او على نسخة منقولة عن الأم . وكان يحسن بالناشرين او الطابعين ، ان يبحثوا عن مخطوط ، تكون احدي مزايه ، هذه الخلة الكبرى ، اي ان يكون من نسخة هي ابنة الأم وقد حصلنا نحن على مخطوط محلي بهذه المزية . ولهذا نرى من المستحسن ان ننشر بعض فصول تفيد متولي به بين الأدباء ليستفيدوا منها اذا ما حاولوا اعادة طبعه . وقبل ان نشرع في الكلام وننتصدي للغاية التي نرعى اليها ، يحسن بنا ان نقول كلمات ، توطئة للبحث فنقول :

كان يجدر بالناشر او الناشرين ، ان يقولوا كلمة على النسخة التي اعتمدها لطبع الكتاب ، ويذكروا اسم ناسخه والسنة التي كتبه فيها . وإلا فجرد اخراجه للقوم بهذه الصورة ، لا يوحى الثقة في صدر المطالع فيه وكان يستحسن ايضاً ان يصدر السفر بترجمة المؤلف ، ترجمة مختصرة ، يذكر فيها ايضاً ولادته ومسقط رأسه ويوم وفاته ومنزلته من اللغة وبعد هذا انتقل الى تدوين بعض النظرات

٣ — نظرة عامة في النسخة المطبوعة

١ — نظرة اولى في رسم الحروف

حروف المطبعة الاميرية المصرية « الحالية » مشهورة بانها من ابداع الحروف ، ومن اجل الخط فهي لا لى تزري بدر البحار — ان صغارها وان كبارها — الا ان فيها عيباً ، هو انها لا تنقط الياء التي تختم بعض الكلم ، وهي تفعل ذلك « قصداً وعن عمد » لا عن محض اتفاق . وكذلك تفعل اغلب مطابع الديار المصرية ، واغلب طلبة المدارس والعلماء في ربوع وادي النيل ، زاعمين ان سبب اهل النقط شهرة الالفاظ ولا سيما لان التنقيط وضع للذين لا يحسنون القراءة او انه يهين القارئ كأن الكاتب يحاول ان يبين جهل القارئ . فلو كان الامر كما يدعون فليهموا تنقيط جميع احرف الكلمة ، او لا اقل من ان تهمل الكلمة التي فيها ياء في رأس اللفظة او في قلبها او حشوها

وقد كتبنا مرة في (المقتطف) الاغر ، وفي رسالة خاصة ، ان اعظم علماء العربية وأمعنهم في اسرارها لا يتمكن من قراءة بعض العبارات ، ان لم يقرأها مرتين او ثلاثاً ، بل ربما لا يمكنه ان يقرأها البتة ، ان لم ينقط آخرها ، ان كان فيها ياءات . وقد عرضنا عبارة واحدة على عدة متبحرين في احكام اللغة واصولها فما اهتمدوا اليها ولن يهتمدوا ، ان لم يؤخذ بالاصلاح الذي نشير اليه ، ولا بد منه يوماً ، ولو طال الامد

زد على ذلك ان هذا الاهمال سبب اغلاطاً جمّة في اللغة ، ووسع مدى التصحيف والتحريف فلا نعود الى هذا الموضوع ، وقد قتلناه بحثاً في ما كتبناه سابقاً ونتمنى ان تجاري مطابع ربوع ديار الفراعنة ، مطابع سائر البلاد العربية اللسان ، كسورية ، ولبنان ، وفلسطين ، والعراق ، الى غيرها ، فيسهل على المطالعين ، قراءة تلك الكلمات ، من غير ان ينعموا النظر فيها ثناء وثلاث ورباع ، ليهتمدوا الى القراءة الصحيحة التي ارادها الكاتب

وليأذن لنا ناشر هذه النسخة اراد مثل واحد من هذا المعجم المفيد . فقد جاء في مادة (دم ا) ما هذا نصابه : « ... وتصغير الدم (دمي) وجمعه (دماء) » وضبطت (دمي) بضم الدال وفتح الميم . والذي يعهده القارئ ان (دمي) جمع دمية وزان غرفة وغرف . وتصغير دم : دمي ، بضم الدال وفتح الميم وتشديد الياء المنقوطة فلو كانت الياء الخاتمة الكلمة منقوطة ، لكانت تقرأ (دُمَي) ولولم تضبط اللفظة باي حركة كانت ، لكن اهل تنقيطها ،

فأمر النظر في أمرها . وكذلك الفكر . فانظر بعد هذا الى ضرورة وضع التنقيط وقائل يقول : لو كانت الكلمة تقرأ (دمي) جمع دمية ، لوضع التنوين على الميم ، فوضع الفتحة وحدها عليها ، يدل دلالة صريحة على ان الياء التي تليها تقرأ (دمي) اي بضم الدال وفتح الميم وتشديد الياء . — قلنا : ولماذا ضبطت الكلمة بالضم والفتح « ورش الكلمة باباير الكزبرة والحبة السوداء » في حين اننا نختصر كل ذلك ، بتنقيط الياء فقط ، فنخفف على الطابع تشكيل حرفين ، وتقتصد في الوقت ، وندفع عن منقح مسودة الطبع (كما يقول العراقيون او التجربة كما يقول المترجمون في مصر ، والبروفة ، كما ينطق بها عمال المطابع) اذ كثيراً ما يقع المنضد في الوهم حين يكثر بين يديه تقييد الالفاظ . افليس الاحسن ان نختصر كل ذلك بتنقيط الياء — هذا الحرف المسكين المظلوم الذي يخس حقه بعض الادباء على غير اتم اجترحه — زد على ذلك ان تشكيل اللفظة بالصورة المعهودة ينشئ سطرأً جديداً هو سطر الحركات والضبط ، فوق السطر الاصلي الذي هو سطر الاحرف . وليس الاحسن ان ننقط الياء — وتكون هذه الياء المنقوطة متيسرة لنا في منازل سائر الحروف التي في صندوق الطبع — فنخفف على القارئ ايضاً عناء اشغال النظر والفكر ونحن في مندوحة عنه هذا مثال واحد لا غير من آلاف امثلة لا تحصى . ونحن نشفق من الاسترسال في هذا البحث ، حرصاً على الوقت وامتناعاً من ان نعل ماء مشرعة كئنا نهلهنا في ما تقدم من العهد

ب — نظرة ثانية في رؤوس مواد المعجم

وامنيتنا الثانية او نظرنا الثانية ان يكون اصل الكلمة ، او رأس ترجمتها بحرف ممتاز ريان ، او ضخم ، حتى يسقط طائر الناظر او الباحث عن المادة ، سقوطاً قاصداً ، من غير ان يتصيدا في مطاويها او مثانها . انظر الى المطبعة الاميركية في بيروت ، فانها جارت المطابع الافرنجية جميعها التي تتخذ الحرف الضخم الممتاز في رأس كل مادة من مواد المعاجم التي تتولى نشرها . (فالبلستان) مطبوع على هذا الغرار ، وهو آية في الطبع ، لافي التحقيق . وما يتلو اصل المادة مطبوع بحرف ادق . وهكذا يفعل جميع اهل الغرب في طبع معاجمهم من صغيرة او كبيرة ، فاذا راجعتهما على اختلاف قوميات اصحابها ، فانك تلقى جميعها على هذا الاسلوب البديع الذي اصبح ضرورياً في هذا العصر الذي يرمي دائماً الى التسهيلات والمريحات وحسن الذوق وجمال المرئيات ، بل اصبح مثل هذا الطبع من اهم ضرائر المطبوعات في عهدنا هذا . والمعجم المنشور بهذه الحلة البديعة يرغب الناس في شرائه ولو لم يكن الشاري من القراء ولا من المحققين وقد تنفق سوقه — ولو كان الكتاب مشحوناً اغلاطاً — وتكسد سوق الكتاب الصحيح التأليف ، او القليل الاوهام لانه لم يتحل بهذه الحلية العصرية . والاختبار احسن دليل على ذلك ، او احسن داع لنشره . فعسى ان لا نبقي في آخر الرعيل في هذا الامر وان نجاري الافرنج فيه كما جاريتهم في شؤون لا تحصى

ج — النظرة الثالثة في الحروف المكسرة

يشوه بعض المطبوعات — ولا سيما المصرية منها ، كأن هذه المزية لحقتها دون سواها — الحروف المكسورة . وهذا امر يجب ان نتلافاه ولا نبقي له أثراً . خذاي معجم كان من معاجم اللغة الانكليزية او الفرنسية او الايطالية او الالمانية ، وفيها مئات الصفحات ، بل الوفها ، ولا تصيب فيها حرفاً واحداً مكسوراً او محوواً او مقلوباً رأساً على عقب ، او معيباً بأي صورة كانت ، بل ترى العكس ، اذ تجد جميع السطور كثغور الحسان ، بينة التناقض صحيحة ، سالمة من كل علة ولو طفيفة ، بل لا عوج فيها ولا امت . زد على ذلك ان حروف دواوينهم اللغوية ادق بكثير من حروف اسفارنا . وكنا نتوقع ان نشهد هذا العيب في مطبوعاتهم لاني منشوراتنا ، والسبب واضح لان حروفهم دقيقة وتختل مما يكاد يسمى « لاشيء » ومع ذلك فالامر بخلاف المنتظر

هذا (مختار الصحاح) فليس فيه إلا ٧٤٥ صفحة ، وقد وقعنا فيه على حروف مسحوقة او مهشمة تنيف على المائة . افليس هذا مما يعاب عليه ويشين محاسنه . ومصدقا لقلونا نذكر هنا بعض هذه المشوهات ، مشيرين هنا الى صحته وبيتي على القارئ مراجعة الاصل لاصلاحه ونشير بالرقم الاول الى الصفحة وبالثاني الى السطر ، ولانني بذكر العمود لان السطور متوازية بعضها لبعض . وكل املنا ان لا يعود الى هذا السفر الجليل مثل هذا التشويه . ودونك شيئاً من تلك الامثلة :

سُمِّيَ الاسير ١٦ : ٣ — وسمي البدر بدرأ ٤٣ : ١ — عليها ٦٤ : ٩ — تأخرت ٧٣ : ٢٠ — استطراذي ٩٠ : ٢٠ — ام زوجها ١٥٨ : ١١ — سمي ١٦٥ : ١٤ — تضربان ١٧٩ : ١ — والخلفة ١٨٥ : ١٧ — والجنة ٢٠٣ : ١٩ — الموالة ٢٤١ : ١٠ — فرضي ٢٤٦ : ٢ — الجدي ٣١٣ : ١٩ — مازلنا ٣١٦ : ٢ — عذاب ٣٢١ : ١٣ — الهروي ٣٢٤ : ١٩ — وترنم ٣٣٢ : ١٧ — والمصوبة ٣٧٢ : ١٥ — فقل ٣٧٢ : ١٦ — الخطب ٣٨٠ : ٧ — نبيا ٤١٠ : ٥ — تشبه ٤٢١ : ١٠ — بنات ٤٢٣ : ١٩ — الشيء ٤٢٥ : ١٧ — الظلام ٤٤٨ : ١٣ — زيدا (مكررة في) ٤٥٣ — الشيء ٤٥٩ : ٧ — عيال ٤٦٦ : ١١ — معي ٤٦٧ : ٨ — وقضي ٤٨٤ : ١٣ — كناية ٥١٢ : ١٩ — يمين ٥١٣ : ١٢ — والجهلة ٥١٣ : ١٥ — مفيص ٥١٦ : ١٥ — وزيد ٥١٧ : ١٥ — الشيء ٥٢٤ : ٥ — والاذلة ٥٤٩ : ٥ — قوام ٥٥١ : ٧ — اتجمع ٥٨٥ : ١٧ — زيدا ٦١٠ : ١١ — ثمن ٦٣٠ : ٢٠ — التؤدة ٦٣٨ : ١٥ — والمحدثون ٦٤٤ : ٧ — ونك ٦٥٢ : ٥ — وهجيتها ٦٩١ : ٤ — معناه ٤٠٢ : ١١ — من اديم ٧٢٣ : ٧ — الكسائي ٧٣٩ : ١٩ — وايقظه ٧٤٣ : ٥ — تحالفوا ٧٤٥ : ٣ — فهذه خمسون كلمة مكسورة الحرف فنجتزئ بهذا القدر عن ايراد الكل ، اذ به ما يؤيد ملاحظتنا . وكفى

د — النظرة الرابعة في رسم الهمزة

لم نر كتاباً اختلف كاتبه في رسم همزة كلمه مثلما الفيناها في هذا السفر الجليل ، فان طابعه صور الهمزات بخلاف القواعد المتعارفة عند الاقدمين من البصرياء بالكتابة وتجويد الرسم . والغريب في هذا الامر ان الناشر لم يخالف السلف وحسب في هذا الاسلوب ، بل ناقض نفسه بنفسه ، ولم يجر ابدأ على اصول متبعة ، وربما انحاز الى مذهب طائفة لم يتفق عليه اغلب الصرفيين ، بل سار وراء بعض المتفردين في آرائهم ليشار اليهم بالبنان ، لمخالفتهم « اغلب » ارباب رسم الهمزة

فاما ما اختلف الناشر في تصويرها مع نفسه فكرسمه لاسرائيل واسرائين (في اسر) وجبرائيل (في مادة روح) بالوجه الذي ذكرناه هنا وهو الوجه الشائع عند اغلب الصرفيين وقد خالفه في تصوير ميكائيل وميكائين في مادة (م ك ا) بهذا الرسم الغريب المنقول عنه . وكذلك فعل في اسرائيل فانه من بعد ان صور به هذا الشكل خالفه في ص ١٦ : ٤ — وص ٢٨٣ : ١ — ٢٩٨ — ٢٩٨ : ٣ — ٦٣١ : ٢ و٣ — الى غيرها ولم نفهم سبب هذا الاختلاف في الكلمة الواحدة — والمشهور ما ذكرناه اي ان الهمزة ترسم على صورة الياء وهكذا وجدناها في النسخة المنقولة عن الام

واما رسم الهمزة الذي خالف به القاعدة المطردة عند ارباب اصول اللغة فيرى في كثير من الالفاظ ونحن نذكر بعضها مشيرين الى ان الناشر رسم الهمزة الواردة في حشو الكلمة « على خط صغير مستقيم كالسين غير المسننة بل المسبوطة بسطاً . هذا اذا كان ما قبلها مفتوحاً . اما اذا كان ما قبلها ساكناً او مضموماً فيخالف طريقته هذه فمرة يكتبها بلا قائمة تقوم عليها بل وحدها بين حرفي الكلمة ومرة يرسمها على خطٍ يسط مستقيم واحياناً على صورة الياء . فالقارئ يحارفي هذه التيه الذي دونه تيه بني اسرائيل . ونحن نسردها هنا بعض هذه الحروف على ما جاءت بالصورة الواردة في هذا الكتاب :

مؤد (ص ٣٢) — يؤل . مؤف (٣٣) — توءمان (٧٤) كؤوداً (وردت مراراً بهذه الصورة كما في ص ١٨٢، ٣٦٣، ٥٦٠ — رء وسهم في ١٨٣ و٢٦٨ و٢٩٢، ٦٠٩ و٦٨٠ الى غيرها — تؤل ١٩٨ — مذءوم ٢١٨ — مرءون ٢٢٧ — ظؤور ٤٠٣ — أظؤار ٤٠٣ — ملجؤؤه ٤٦١ — كؤوس ٥٦٠ — مئؤوته ٥٧٥ كتبت مرتين اخريين في ص ٦١٢ ومرتين في ٦٤٠ و٦٣٧ — الاماق ٦١٢ — ابؤار ٦١٢ — مريأ ٢٦٠ — تمالؤوا ٦٣١ — المشؤوم ٦٧٩ — تئؤوم ٦٨٦ ومن الغريب انه كتب هؤوراً في ص ٧٠١ ولم يكتبها على مألوف عادته هؤوراً . وكتب

موءودة ٧٠٥ — النور ٧٢٣ — تواطوا . وطأ ٧٢٧ — ومأ ومرفؤها ٧٣٧ — يوس
٧٣٠ الى غيرها مما يطول تعداده

اما القاعدة العامة التي قررها الواقفون على احكام العربية واصولها المتينة فتستخلص
في ما يأتي . قبل ان ترسم الهمزة حاول ان تليها — اذا كانت في الوسط ، الى أحد
احرف العلة ثم اكتبها على صورة الحرف العليل الذي أملت اليه . وان لم تمل اكتبها بلا
عماد ، اي وحدها بلا حرف علة . اما اذا كانت في الاول فارسمها على الالف بلا شاذ . واما
اذا كانت في الآخر ، فان سبقها حرف متحرك فاكتبها على صورة حرف علة يجانس حركة
ما قبلها . واما اذا كان ما قبلها ساكناً ، فارسمها قائمة بنفسها اي بلا حرف عليل . ودونك
الشواهد على ذلك

(الهمزة في الأول) : اَخَذَ واُخِذَ وإِخَاذَة

(الهمزة في الوسط) — الساكنة مثل يُؤْمِنُ وَيَأْمَنُ ، وَبُرَّ

(الهمزة المتحركة وهي في الوسط) : مَوْدُودٌ ، مَوْدُونَةٌ وَفِيئَةٌ — وَتَوَّأَمَ وَتَيَّاسٌ
وَتَأْمَنُ . وَأَظَارٌ — سَوَّوْلٌ مِثْلَيْنِ ، مِثْلَاتٌ . سُؤَالٌ وَذِئَابٌ . وَسَاءَ — جِبْرَائِيلُ ،
رَوَائِيسٌ ، رَأْوُولٌ

الهمزة في الآخر : شُئِنُوا وَبَرِيءٌ وَأَبْرَأٌ — شَيْءٌ وَسُوءٌ وَرَاءٌ وَخَبٌ

فرسم هذه الهمزات بالرسوم التي خططناها هنا منقولة عن مختار الصحاح وعن الصحاح
نفسه . ونسخة هذا الكتاب ايضاً منقولة عن الأم للجوهري
ولهذا لا تكتب شؤون الآبواوين وعلى الاولى همزة . ومن صورها على الياء فقد اخطأ
وابتعد عن رسم الاقدمين لها وهو الرسم الصحيح الذي لا غبار عليه

ولا ننس ان تصوير الهمز على ما بيناه هنا هو الذي انشأ لنا كثيراً من الالفاظ التي
نقلت اليها بحروفها العلية اي غير مهموزة بسبب تليها مثل الخطيئة فانها تركت لنا الخطيئة
غير مهموزة ، والذؤنون : الذونون بواو ممدودة ساكنة ، والقائي : القاني ، والدولي :
الدولي ، ومساوئه : مساويه . ومن مضارع يؤكد ويؤرخ ونحوها جاءتنا التواريخ
والتواكيد . الى آخر ما جاء من هذه الاشياء المسهلة الكثيرة العدد

الاب انستاس ماري الكرمل

(الباقى للآتي)

بَابُ الْإِجْتِمَاعِ الْعِلْمِيَّةِ

السيلو تكس

Celotex

خشب يصنع من مصاصة القصب وخواصه العجيبة

السيلو تكس بالجيس والمصيص او بتعشيتة بطبقة
تؤلف من جزء واحد من المصيص وجزءين
من الجير. وعلمنا ان مصنوعات السيلو تكس عرضت
نماذج منها وبعض صورها الفوتوغرافية في
المعرض الزراعي الصناعي الذي اقيم في شهري
فبراير ومارس سنة ١٩٣١ بالجزيرة بضواحي
القاهرة حيث نصب كشك كله من السيلو تكس
وزخرف زخرفة انيقة أعجب بها زاروه أجمعون
ولا سيما حينما علموا انه يقاوم الحريق اكثر
من الخشب الطبيعي مائة مرة لخلوه من المواد
الراتنجية التي تساعد على سرعة التهاب الخشب
الطبيعي وانه لا يتعرض للتسوس ولا لغيره
من عوامل الفناء، فضلاً عن رخص ثمنه. والواح
السيلو تكس الكبيرة تلصق بالقار أو الزفت
على مباني الخرسانة المسلحة لوقاية السقف
من أوار الشمس والطريقة المثلى المستعملة
الآن لذلك :

ان ينظف السقف المراد وقايته من
الحرارة الشديدة ومياه الامطار الغزيرة ،
تنظيفاً جيداً من التراب وغيره من الانقاض ،
وتبسط فوقه طبقة من الزفت السائل

ما انتشر مقتطف ابريل الماضي بين
مشركيه وقرائه حتى جاءتنا استيضاحات شتى
بشأن مقال السيلو تكس اي الخشب الصناعي
الذي نشرناه فيه بقلم عوض جندي الكاتب
المعروف لقراءتنا فرأينا لزماً علينا استجابة
لاستعلاماتهم أن نتقصى الموضوع من سائر
نواحيه فنقول : —

قد شاهدنا الواح السيلو تكس فاذا بها
مختلفة طولاً وعرضاً وثخانة ولا يزيد ثمن المتر
المربع منها على ١٢ قرشاً صاغاً ومقاييسها
كالآتي : — العرض ٣ و ٤ اقدام والطول
٧ و ٨ و ٨ ١/٢ و ٩ و ١٠ و ١٢ قدماً والثخانة
نصف بوصة وكل ١٠٠ قدم مربعة منه ترن
نحو ٦٠ رطلاً انكليزياً . ودرجة توصيل
السيلو تكس للحرارة تكاد تساويها في الفلين
الصرف . والسيلو تكس لا يحتوي على غراء .
ويكتسب السيلو تكس قوته من تماسك اليافه . وفي
أثناء صنعه تجعل تلك الالياف مسيكة لكي يصير
اللوحي كله المصنوع منها مقاوماً للمياه في جميع
ثخائته . فاذا مدهن اول (وجه) دهنة من البوية ،
صلح جداً لواجهات المباني . ويمكن تبييض

عمارة المؤاساة وفندق سيسل وكلية فكتوريا
والمستشفى الايطالي وثكنات مصطفى باشا
وغيرها واستعمل في القاهرة في كابينات
التليفونات وقاية لها من ضجة الشوارع وفي
مستشفى رعاية الاطفال والولادة وعمارات
وسينما توغرافات حجة ومنها أولمبيا ورويال ودولي
بلاس . وذلك إما للتسقيف وإما للزخرفة وإما
للحشو وإما لاختفات الضوء الخارجية وتحسين
سمع الاصوات الداخلية . وقد بنى بالسيلو تكس
بيت في الصحراء للمهندسين المقيمين بمنجم
السكري لاستخراج الذهب ، فوقاهم وهج الشمس
الحارقة هنالك . فعسى ان تهتم الحكومة المصرية او
يعنى كبار رجال المال والاعمال في هذه البلاد
باقامة مصنع للسيلو تكس من مصاصة القصب
وعيدانه المعصورة ، فنستغنى عن استيراده من
الخواجه يوسف أرام وكيل الشركة الاميركية
بشارع الكنيسة الجديدة رقم ٦ بالقاهرة والخواجه
مكس ريبو ٣٨ شارع سعد زغلول بالاسكندرية

البصاصة الكهربية

تحرس السجون بدلاً من حراسها

بالحادث . وذلك بأن تسلط عليها شعاعة من
الضوء تمتد فوق سور السجن فاذا اعترض
ظل السجين الفار تلك الشعاعة تأثرت توتاً
البصاصة الكهربية فتتم الدائرة الكهربية
في باطنها ومنها ينبعث التيار الكهربائي المتصل
بالمدفع فيسدد على قمة السور ويدق جرس التنبيه
في الحال والبصاصة هي البطارية الكهرو نورية

الساخن وتلصق بها الواح السيلوتكس بحيث
يترك بين كل لوح والاخر فراغ دقيق لا
يجارز اربعة مليمترات ، على ان يملأ هذا الفراغ
ايضاً بالزفت ويلصق فوقه شرطاً من البقعة
السمراء المعروفة باسم الدمسور او من الكنتان
عرضها عشرة سنتيمترات . ثم تغطى الواح
السيلو تكس بطبقة من الزفت ايضاً يلصق فوقها
نوع من الورق المشمع يسمى سينالكرافت
Sisalcraft وهو ورق متين جداً لا يمكن تمزيقه
ولا يخرقه الماء ولا الهواء ومعالج بطريقة
كيميائية تحول دون استهدافه للتسوس والتعفن
والقطر ويساوي المتر المربع منه ٢٥ مليماً .
وهو مؤلف من طبقتين ملصقتين بالقار . ويغطي
السينالكرافت بطبقة من الرمل يوضع فوقها بلاط
السقف المعتاد . وبهذه الوسيلة تصبح درجة حرارة
البيوت المسقفة بالسيلو تكس اقل من غيرها نحو
ست درجات سنتيغراد . وقد استعمل السيلو تكس
في الاسكندرية لوقاية سقف عدة مباني ومنها

جاء في احدث الانباء من اميركا ان
البصاصة الكهربية قد جربت لتحل محل
الحراس الذين يغدون ويروحون تجاه اسوار
السجون . وذلك انه متى حاول مجرم الهرب
بتسلق حائط السجن تطلق البصاصة عليه
توتاً مدفعاً فيجذله في مكانه . وفي الوقت
عينه تعلن البصاصة الكهربية ضباط السجن

هل تفعل الاعصاب فعل الفرد

وكان في مقدمة الباحثين هذه عالمة الالمانية الدكتور شارر . فكشفت عن خلايا اطلق عليها اسم الخلايا العصبية الغدية وثبت انها كثيرة الانتشار في الجهاز العصبي في الحيوانات الفقرية وفي السنوات الثلاث الاخيرة عيّنت الدكتور شارر يبحث هذا الموضوع من حيث علاقته بالحيوانات غير الفقرية كالديدان والحشرات والحمار وغيرها وكانت هذه الحيوانات تلتقط من اماكن متباعدة على سطح الكرة الارضية

وقد وجدت الخلايا العصبية المفردة في الانساج العصبية في جميع هذه الحيوانات هذه الخلايا لا تختلف على شريحة المكروسكوب عن سائر الخلايا العصبية ولكن عندما تعالج بالمواد الكيميائية يظهر حول نواها ما اطلقت عليه الدكتور شارر «قطرات الافراز» وهذا باب جديد في تركيب المادة الحية لا نعلم مدى ما يفضي اليه في المستقبل

الجهاز العصبي يفعل فعل الغدد كذلك والخلايا العصبية تفرز مواد لها فعل فسيولوجي قوي كما تفرز الخلايا التي في الغدد النخامية والدرقية والكظرين وغيرها

هذه حقائق كانت معروفة عند العلماء في حياة الحيوانات الفقرية ولكن بحث الدكتور برتا شارر وهي عالمة المانية يدل على انها تنطبق كذلك على الحيوانات غير الفقرية

كان العالم الالمانى كروول في مقدمة من وجه النظر الى وجود مفرزات شبيهة بالمفرزات الغدية في داخل الدماغ ثم جاء العالم الاميركي الدكتور باركر احد علماء جامعة هارفرد فأثبت وجود مفرزات في اطراف الاعصاب دعاها المائيات العصبية (نوروهورم)

وتلا ذلك بحث واسع النطاق عن الخلايا والانساج المفردة في المراكز العصبية نفسها . وقد امتد نطاق هذه البحوث حتى شمل بلدانا كاسبانيا واليابان

البصاصة الكهربائية

معوان لدرس المخاض

الكهربائية من هاتيك الآلات فينت التفاعلات الكيميائية الناشئة من ذلك التضخيم ويقوم بتسجيلها من تلقاء نفسه جهاز الالكتروكارديوغراف، وهو الراسم الكهربائي الذي يرسم حركات القلب البشري

توسل عالم من علماء جامعة يابل بطائفة من الآلات الكهربائية الى اثبات نظرية كون المواد العضوية المعروفة باسم المخاض ذات تأثير كيميائي مباشر في حل المواد التي تستعمل غذاء، وفي احداث تخميرها . وكانت البصاصة

اكتشاف قعر البحر بالراديو المبصر

الوعاء الحديدي الشبيه بالناقوس، ومن ثم تستحيل صور الاشياء التي في قعر اليم الملتقطة بالآلات الكشافة، نبضات كهربائية فتضخم وتجدد بسلك موصل الى جهاز من اجهزة الراديو المبصر المستقبل يوضع في حجرة « قرة » من الحجر التي على ظهر المركب حيث تؤلف الصور تأليفاً جديداً وتعرض من عدسة على ستار نصف شفاف للمشاهدة . وذلك بمساعدة مجموعة من المرايا المائلة . ثم يطبع من المشاهد المقولة بالراديو المبصر شريط ثابت مسجل وذلك بتصوير ستار المشاهدة بآلة تصوير السينما ويتوقع الخيرون بأن هذا الجهاز سيمنع اخطار الغوص ويقلل نفقات استكشاف الاعماق

اخترع عالم في ولاية آيوى بأميركا عيناً لاسلكية تكشف مكثونات قعر البحر، من سفن محطة وكنوز غريقة ثم تُنقل صورها الى آلة لاقطة توضع على ظهر باخرة الاستكشاف فتسهل أعمال مستكشفي أعماق البحار حيث يقوم المركب الرائد بسر اللجج . وتركب العين اللاسلكية في وعاء كشاف لا يدخله الماء وهو شبيه بشكل الناقوس « الجرس » ويتسنى توجيهه الى اية جهة وذلك بتحريك الاسلاك الاربعة الحاملة له . ويضاء قعر البحر بفوانيس كهربائية قوية ذات نوافذ كشيعة من البلور الصخري ينبعث نورها فيبين الاشياء جيداً بواسطة طائفتي العدسات الكشافة المثبتة في

كيف اخترعت شبكات المصابيح الغازية

عديم اللون وهو في حد ذاته غير صالح للاضاءة . ثم عقبه كارل فون فلزباخ فكان ذات مرة يجرب بعض التجارب الكيميائية في معمله فترك مخلولاً من الثوريوم والسيريوم وهما معدنان نادران يغليان بنار مشعلة بنسن على خشبة من حجر الفتيلا (اسبستوس او الكتان الحجري) فشاهد اطرافها البالية تبيض بياضاً ناصعاً . فضم فلزباخ مبدأ مشعلة بنسن الى تلك المعلومات التي اقتبسها اتفاقاً فكانت مصدراً لاختراعه رتاين المصابيح الغازية التي انتشر استعمالها في الافاق من ذينك الفلزين النادري الوجود

كان الحظ والمصادفة حليفين عظيمين ومعاونين كبيرين في اختراع شبكات مصابيح غاز الاستصباح . وذلك ان الغاز كان اولاً يشعل من طرف انبويه المفتوح على ان تسد الفتحة متى اريد اطفاء ضوئه بسدادة خاصة فاتفق ذات يوم ان ضاعت السدادة حينما وجب اطفاء الضياء فجاء امرؤ بمعدس مخرم فسد به فتحة انبوب الغاز المشار اليه . فكان ذلك الحدث منشأ اختراع الترمسة القديمة التي كانت تسبب انبساط لهيب الغاز عند اشتعاله . ثم نبغ العالم بنسن فاخترع مشعله المشهور الذي يجمع بين الغاز والهواء ليولد لهيباً ساخناً يكاد يكون

الفراء وصحة الاسنان

انذار طبيب

على مقاومة حفر الاسنان
ومما قاله ان نحو ٨ في المائة من الاطفال
يرثون اسناناً جيدة او ضعيفة او فيها ميل الى
هذا او ذاك . وان ٨ في المائة ايضاً لا يعلمون
العناية الوافية بالاسنان
وان ٩ في المائة تنخر اسنانهم او تبقى سليمة
لان غدهم سوية او مضطربة وان ١٠ في
المائة تؤثر حالة التمثيل الغذائي في اسنانهم
ولكن الأكثرية الكبرى وهي نحو
٦٤ في المائة من الذين يصابون بضعف الاسنان
ونخرها ترجع اصابهم الى سوء التغذية

ان مكافحة حفر الاسنان عمل يستغرق
الحياة كلها . ولا يقصد بالحياة مداها من ساعة
الولادة الى ساعة الوفاة بل يمتد هذا المدى
الى ما قبل الولادة عندما يكون الجنين في رحم الام
وقد اتى الدكتور كوجلحاس — وهو
متخصص في امراض الاطفال — محاضرة في
أكاديمية نيويورك الطبية قال فيها ان الغذاء
الموافق الذي يقي من حفر الاسنان يجب اولاً
ان يعطى للحامل . ثم يجب ان توجه عناية
عظيمة الى الجانب الاول من حياة الوليد اي
من ساعة ولادته الى سن البلوغ لتعزيز قوته

الصغير بيرد الضباب

تجربة عجيبه

وتفسيرها العلمي يرجع الى اكتشاف تم من
عهد غير قريب وهو انه اذا رشت برادة
الحديد على لوح مسطح وأحدث في جوارها
صوت من نغم معين اهتزت دقائق البرادة
وتجمعت اشكالا وانماطاً معينة على سطح اللوح
والغالب ان يكون تجمعها حول نقط تصطدم
فيها امواج الصوت بعضها ببعض فيلاشي بعضها
بعضاً فتكون تلك النقط خالية من تأثير الامواج
الذي يهز الدقائق

وعلى مثال ذلك تهتز الدقائق التي يتألف منها
الضباب فتتجمع كما تتجمع دقائق البرادة ولكنها
لا تجد سطحاً تستقر عليها فتسقط الى قعر الاناء

رأينا على لوحة الصور المتحركة من
اسابيع صورة عالم اميركي يدعى سانت كلير
وقد صنع في انبوب ضخ من انايب التجارب
ضباباً ثم جعل صفارة تصفر في زاوية بعيدة
من الحجرة التي جربت فيها التجربة فاذا
بالضباب في الانبوب يتبدد رويداً رويداً
بتكون كتل صغيرة تهبط الى قعره ثم يصفو
فضاؤه مما يشوبه

وهذه التجربة على اقتصارها الآن على
انبوب البحث العلمي قد تكون سبيلاً في المستقبل
الى تطبيقها تطبيقاً واسع النطاق في المدن
الصناعية التي يكثر الضباب في جوها

عصير الباباز في القوارير

وشيوع هذا الثمر في مصر

(وذلك بمناسبة عطلة المقطف الصيفية في السنة الماضية) فآثرنا إعادة نشر المقال المشار إليه آتياً لفائدة قراء المقطف واليك البيان : — ما كنت ادري حينما كتبت مقالي على الباباز في مقطف يونيه سنة ١٩٣٥ ان ذلك الشجر العجيب يزرع في بعض بلادنا المصرية العربية في الزراعة . بيد ان زارعي الباباز وآكليهم قلما يعرفون جميع مزاياه الرائعة التي افضنا في سردها في ذلك الجزء من المقطف حتى اقيم معرضنا الزراعي الصناعي الحديث في الجزيرة بأرباض القاهرة ، فرأيت لزمامي ان اطوف بأرجائه باحثاً في معروضات بلادنا الزراعية لعلي اعثر على ثمر الباباز ، وهو ضالتي المنشودة ، اذ تذكرت اني كنت قد شاهدت الثمر نفسه في المعرض السابق ، بين معروضات السودان التي عرضها حينئذ المرحوم الشاهد باشا

فتمحقق ظني اذ وجدت الفاكهة المبتغاة بين معروضات مدرسة دمنهور الزراعية المتوسطة فقط ، حيث رأيت ثلاث ثمرات من الباباز معروضة في طبق . فكانت مفاجأة لطيفة قوت عزمي على مواصلة البحث والاستقراء افادة لقرائي الاعزاء . فسألت مندوب المدرسة الزراعية المذكورة آنفاً ، وهو احد المستخدمين في حقولها : ما اسم هذا الثمر ؟ فقال « باباز » وهو يؤكل ناضجاً كالقارون

الباباز شجر شبيه بالنخل ، ينمو في امريكا الجنوبية . وهو ذو ثمر وسيقان واوراق تحتوي على عصارة لبنية تسمى اللحوم التارزة اذا ما دُهنت بها قبيل ظهورها

وقد جاءنا في احدث الانباء من امريكا أنه سيعم استعمال تلك العصارة في الولايات المتحدة وغيرها . وذلك ان احدى الشركات في مدينة سينسيناتي بولاية أوهيو قد شرعت في خزن عصير الباباز في زجاجات معتدلة الاحجام لتوزيعها على ربات البيوت ليستعملنها في تحضير شرائح اللحوم القاسية تسهلاً لنضجها ومضغها وهضمها

والمشهور عن عصارة الباباز أن أهالي جزائر المحيط الهادي مبرحوا من قدم يتوسلون بها لتلمين اللحم القصيد قبل طبخه وهم لا يفقهون خصائص تلك العصارة المدهشة اذ تحتوي على مادة البابين وهي عنصر نباتي معادل للبسين pepsin الهاضم للبروتين . والبابين معروف عند الصيادلة بأنه من العناصر الاصلية لتركيب الادوية الشافية للتخمة

وقد زرعت أشجار الباباز في ولايتي فلوريدا وكليفورنيا منذ بضع سنين من اجل ثمارها اللذيذة ، وهي رائجة في اسواق الولايات الشمالية

ويزرع الباباز في مملكتنا المصرية وقد بحثنا في شؤونهِ ثم نشرنا نتيجة بحثنا في المقطع

حيث تشرفت بلقاء بعض حضرات الاساتذة وكاشفهم بأمني، فاحتفوا بي وفضلوا قسمي حوا لي بزيارة مشتل مدرستهم الذي يزرع فيه الباباز فيممت شطره مع مندوب من قبل حضرة الفاضل ضابط المدرسة

ولقيت في المشتل حضرة ابراهيم افندي صالح، رئيسه، فصارحته بمهمتي، فأحسن استقبالي وزودني بالمعلومات الاتية فاذكرها اتاماً لفائدة القراء: —

يشمر الباباز على مدار السنة متى بلغت شجرته ثلاث سنين من عمرها. وتنبت أشجاره من البذور الناضجة الغضة وهي سوداء، وتكون ملتصقة بلب الثمر وتكاد تشبه حب الفلفل الاسود، غير انها ذات غشاء زلالي. وتبذر البذور في مكان ظليل بذراً خفيفاً في الاصح أو في مواجير البذرة. وذلك في تربة مؤلفة من رمل أبيض ناعم بمقدار الثلث، ويجعل ثلثها الباقيان من طمي النيل، مخلوطاً بقليل من روث الخيل، المتعفن (السبلة القديمة) وتغطي البذور بالمخلوط السمادي نفسه بطبقة تواري حجم البذور أي بمخانة نصف سنتيمتر. وتتعهد بالري طبقاً للاحوال الجوية. وتزرع البذور ابتداء من شهر مارس الى آخر شهر اكتوبر ويمكن استفراد النباتات بعد بلوغ طولها من ١٠ سنتيمترات الى ١٥ سنتيمتراً.

ومتى نمت في الاصح، وضافت بها، تتقل الى مكانها الدائم. وتصلحها الاراضي الرملية فتزكو فيها. وينجم من البذور ذكور وإناث

والشمام. فاستدركت عليه قائلاً « بل هو قاوون الشجر » ثم استردته ايضاحاً فأجاب « عليك يا سيدي زيارة مشتل المدرسة في دمنهور فتظفر بغيثك »

فاكتفيت بذلك وانصرفت، عاقداً النية على السفر الى دمنهور متى حانت الفرصة. ومضت اسابيع بعد ذلك قصدت في خلالها، بحراً، ذات يوم، الى متزهات القناطر الخيرية، فالفيت في اثناء الرحلة بالدرجة الاولى بياخرة سكة الحديد، التي اقلتنا الى تلك الضاحية الجميلة، راكباً فلسطينياً كهلاً، توسمت فيه الفضل والنبل فتعرفت به، فاذا هو (علي افندي المستقيم) من كبار اصحاب البساتين وبجار الفاكهة بغير يافا. وساقنا الحديث، وهو ذو شجون، الى ذكر الباباز، فسألته رأيه فيه، فقال: زرعت في بستاني بيافا ولم أجن منه ربحاً يذكر لان اهل فلسطين لا يقدرونه حق قدره. وهو يزرع بكثرة في (ريحا) فلاحظت عليه قائلاً — لعلك تقصد مدينة أريحا المشهورة. فقال: نعم — لان أريحا بلد رملي حار يصلح لزراع الباباز، فشجعتني على الاكثار من زراعته ذاكرآ له منافعه التي اسهبت في ايضاحها في المقتطف، فأثني على مجهودات هذا الكاتب الضعيف واستبشر خيراً

وأتيحت لي فرصة فاغتنمتها وسافرت الى دمنهور ابتغاء زيارة مشتل مدرستها الزراعية،

من الاشجار . ويمكن تمييز بعضها من بعض عند بدء الاثمار . ومنفعة الذكور انها تقوم بتلقيح إناثها ، على ان تكون قريبة منها بحيث لا تبعد ، عنها أكثر من ثلاثة أمتار

والباباز يحمل ثماره تحت آباط الاوراق . وبعضها يحمل ثمرة واحدة في حامل زهري ومنها ما يحمل ثمرتين او ثلاث ثمرات . وهذه الحوامل لا يزيد طولها في الاناث على خمسة سنتيمترات . اما في الذكور فتبلغ احياناً متراً او متراً ونصف متر . واعناق الاوراق جوفاء . ومتى نضجت الثمرة جفت الاوراق التي تحتها ، فتذبل وتسقط بنفسها . والذكور لا تحمل ثماراً الا نادراً . وتكون ثمارها خالية من البذور . وطعم لبها شحمي ، وهو أقل جودة من ثمر الاناث وأصغر منها حجماً

ويزرع الباباز بكثرة في بلدة فاقوس بمديرية الشرقية « واول من زرعه هناك المرحوم امام بك محمد اسماعيل ، جد حضرة الاستاذ ابراهيم افندي صالح » الذي اقتبسنا منه هذه المعلومات

وبيع الباباز في تلك البلدة بسعر نصف قرش للثمرة الواحدة . واذا قطفت البابازة من شجرتها خضراء قبيل نضجها وجب عليك حفظها في النخالة اسبوعاً حتى يتم نضجها . واما اذا تركت على شجرتها حتى تستوي ،

اصفر لونها وصارت الذّ طعماً . ويوجد الباباز في قسم البساتين التابع لوزارة الزراعة . وقد اخبرني حضرة مرشدي ايضاً انه هو اول من زرع الباباز في مشتل دمنهور فزرع منه ثلاث شجرات فأثمرت وهي التي شاهدها انا وتناولت منها ثمرة

والاشجار التي رأيتها في مشتل دمنهور لا يزيد طولها على ثلاثة أمتار . واذا خدشتها هي او ثمارها ، سال لبها وهو كلبن الجيز اللزج ، النافع لعلاج الاكربيا ، كما ذكرنا في مقالنا السابق بالمقتطف

وعلمت ان الباباز يزرع في جزيرة المتانية ببستان السيدة الفاضلة هدى هانم شعراوي ، وفي جهات أخرى من المملكة المصرية . ويزرع ايضاً في بستان المنشاوي باشافي القرشية وقد اشرت على حضرة محمد افندي امين فؤاد (الفلاح المصري) تاجر البذور المعروف (بشارع طاهر بميدان ابراهيم باشا بالقاهرة) بزراعة الباباز فزرعه في بستانه في نوى بمركز قليوب

ولا يسعني قبل ختم هذه العجالة الاّ الشاء المستطاب على حضرات معلمي مدرسة دمنهور الزراعية المتوسطة الذين تشرفت بلمقامهم في المشتل ولا سيما حضرة ابراهيم افندي صالح الذي رحّب بي كثيراً واسدى اليّ المساعدة الواجبة خدمة للعلم عوض جندي

مكتبة المقتطف

في عالم السدود والقيود

تأليف الاستاذ عباس محمود العقاد — ٢١٩ صفحة من ورق مصقول حجم وسط

منزلة نشره مكتبة النهضة بمصر

أصدر هذا المؤلف النفيس الكاتب الشاعر الاستاذ العقاد فأتحف العربية بذخ من انفس الذخائر الأدبية الحديثة ، كما اظهرنا على ناحية جديدة من أدبه الرائع وصورة من تفكيره العالي المتسم بنفاذ النظرة وصدق التعبير ، وقد تناول العقاد في كتابه هذا فترة شاحية من الفترات الخالدة في الحياة التي مر أشباهها قديماً ببعض الفلاسفة والعلماء والشعراء فأنطقتهم باللغات الفريدة ، وأطلعتهم على أبعاد أسرار النفس وأطلقت خواطرهم بأسمى المعاني واجرت ألسنتهم بأيات الحكمة . وانك لتلمس في سطور الكتاب روحاً مبدعاً من التهكم الرفيق وتقرأ في فصوله تحليلاً عميقاً للنفس البشرية ، ونوازعها ، واستقراء واسع الاحاطة بالجرمة ودوافعها ، كل هذا في استطراد بديع ممتع واسلوب رائع شائق تشيع فيه الطلاقة والعدوبة والجمال والبساطة . وتلك خصائص يمتاز بها أدب العقاد ، ولكنها في كتابه هذا ممثلة أجمل تمثيل من بدئه الى منتهاه . وأحب ان أقول انه قلما يتاح لمن عبر عالم السدود والقيود من الكتاب والشعراء ان يوفقوا توفيق المؤلف في استكناه اسراره وطلاسمه وأعاجيبه ، في فترة مداها أيام او شهور ، من مرض غير رقيق ، وضيق نفس شاعرة تضيق بنظرتها آفاق الدنيا الرحبة المترامية . ولكن الومضات الخاطفة التي تنطلق من العقول المتألقة تغني عن إدمان النظر في الضحوة الساطعة ، للوصول الى حقائق الحياة وطبائع النفوس . والاستاذ العقاد هو القائل

أنا المفرد الزاري على الكون كله تبسم حال أو تجهم كالح
فهو على ما وصف به نفسه ، وما هو منبث في تضاعيف كتبه وأشعاره ، رجل متمرد متوفز الشعور مرهف الحس ، لا يطبق الحدود ولا يأبى به للقيود ، فاذا اضطربت روحه بالأم والنقمة على هذا العالم الذي قدر له ان يعبره فلاغربة في ذلك ولا عجب ، والمفكرون الجديرون بهذا الاسم متمردون بطبائعهم على الحياة روعان القص والفساد شائعاً في أشكالها وأوضاعها حيث لا يرى الآخرون غير الصواب والتمام فيها . ولكن الجانب الانساني المركب في نفس العقاد كشاعر قضى على هذه الحواجز ، التي تقوم دائماً بين البيئات البعيدة التنافر والتناقض ووصل ما بينه وبين هؤلاء الذين يعيشون في عالم القيود والسدود فأنس فيهم مراداً لتأملاته وأفقاً جديداً لخطرات نفسه ، فعاد المتمرد الزاري على الاشباح الهائمة في عالم الحرية والطلاقة ، حانياً عطوفاً على هذه المخلوقات الجائمة في عالم القيود والسدود ، يستروح متعة العقل والنفس في أحاديثهم وسمرحهم وغنائهم ومجونهم وطبعتهم وخبثهم . وفي الكتاب شواهد على ما اسلفنا تطالعك في كل فصل بل في كل صفحة من صفحات الكتاب

علي محمود طه

اسماعيل المفترى عليه

لا شك في ان الحديو اسماعيل هو أول بان لمصر الحديثة ، مصر الاوربية في مظاهرها . فلقد كان طموحاً كل الطموح الى ان يجعل مقر سلطانه بعيداً البعد كله عن أن يعتبر جزءاً من القارة المظلمة افريقيا ، ولم يقصر في هذا السبيل ، ولم يضمن على اخراج فكرته بالتمين ولقد اجتمعت في هذا الرجل العظيم صفات بارزة من الشخصية القوية والعزم المتين والفكر السديد مما ضمن له السير بحكمة بين تيارات مختلفة من رغبات متباينة تثيرها فرنسا من ناحية وانجلترا من ناحية ثانية وتركيا من ناحية ثالثة

مني اسماعيل عند توليه العرش بتركة ثقيلة أورثها اياه سلفه فوجد من الحكمة أن يقف حيال اطماع فرنسا التي رسمتها لنفسها عند التفكير في حفر قناة السويس فيحوّلها عن وجهتها وبذلك حفظ لمصر سيادتها على أراضيها وأبعد عنها الاستعمار الاجنبي — وقتذاك — وحافظ لها على مرافقها العامة بحرماته شركة ترعة السويس امتيازاً يعتبر الآن من حق الدولة وهو ترعة المياة العذبة ولقد كانت بصيرته النافذة الى صميم السياسة الاستعمارية سبباً فيما لقي من عنت أوربا ومحاولاتها الاساءة اليه والتشهير به فاندفع كثير من رجال السياسة الى تشويه وجه التاريخ في صفحات هذا الرجل ، ولصعوبة مهمة الاسراف والتبذير على ملاذه وتحميل بلاده الدين القادح في هذا السبيل ارتدت مصر بعد اليقظة الاولى التي تنبّهت فيها في عهد محمد علي الى رقدة طويلة وخمول عميق حتى آخر عهد سعيد فأراد اسماعيل ان يوقظها على فجر جديد . وطبيعي ان مثل هذه اليقظة تحتاج الى البذل في نواح شتى لبعث الحركة والنهوض في كيان هذا البلد . ونحن الآن في الوقت الذي اتصلت مصر بالعالم الأوربي وأوثق اتصال لا يزال نبذل آلاف الجنيهات في الدعاية كل عام بين طبع النشرات واستضافة الصحفيين الاجانب وعقد المؤتمرات الى غير ذلك من ضروب الاعلان عن مكانة مصر الادبية والاجتماعية ورفعها الى المستوى اللائق بها بين أمم العالم . اذا كانت هذه حالنا الآن فما بالنا بمصر منذ سبعين عاماً ، ألم تكن وقتذاك بأشد حاجة منها في وقتنا الحاضر الى الدعاية الطويلة والعريضة معاً وهي في دور التكوين والخلق في كل نواحيها ؟ ! لقد أراد اسماعيل إيقاظ مصر ولكن تلك اليقظة غالية الثمن فهل يضمن عليها بذلك ؟ ان نفسه العظيمة الفياضة بالطموح لتستصغر كل شيء وتسترخص كل غال . غير ان الحاجة الى المال ألجأته الى معاملة شر المراهبين الدوليين فكانت النتيجة القاسية ، ولكنها اذا قيست بما أسدى للبلد من ضروب الاصلاح في مرافقها العامة مع مقابلة ذلك بما تفعله دول العالم في هذا السبيل لهانت تلك النتيجة شيئاً ما

تاريخ اسماعيل صفحة شوهتها الاغاليط حتى أصبح صاحبها في نظر المصريين قبل الاجاب المبذر المتلاف الشهواني ذا الرغبات الذاتية . وأصبح كل مؤرخ لعصره يستجمع أقوال كرومر وملنر وكولفن واضرابهم ويستعرضها في بحثه ويرجع اليها كقضايا مسلم بها على فساد التدبير في حكم هذا العاهل

ولكن الحق هو الحق ، وان طال على ججوده الزمن ، فلقد أتيج بعد نصف قرن لهذا الرجل

العظيم مؤرخ قانوني نافذ البصيرة نقادها ، يتبع الحجة بالحجة حتى تتكشف له من بين ثنايا السطور التي خطها هؤلاء الساسة عن حجاج قوية في مصلحة قضية اسماعيل المفترى عليه ذلك هو القاضي الامير كي مير كراييتيس الذي تصدى لانقاذ سمعة الحاكم المصري فاستطاع ان يخرج لنا صفحة نقية بدلت وجه التاريخ المصري في ذلك العهد . من ذلك انه اضعف الدعوى الشائعة عن اسماعيل الشهبواني الفارق في لذاته فأثبت ان اللذة والاستمتاع وليدنا الكسل ، وكان الكسل أبعد الصفات عن هذا الرجل الذي كان يقضي كل يوم من اثنتي عشرة الى اربع عشرة ساعة في القيام بأعمال الدولة ، ولو فرض انه استطاع ان يترك العنان لنفسه في الملذات لأثر ذلك بمرور الأيام على ذاكرته التي شهد مورلي بل بقوتها ومن ذلك ايضاً انه رفع عن عاتق اسماعيل تبعة عدم ملكية مصر اليوم حصتها في أسهم القناة بفقره من دائرة المعارف البريطانية تثبت ان حصته في ارباح الشركة التي بيعت بعد نزول اسماعيل عن عرشه تمت صفقتها حين كان لورد كرومر صاحب السلطان المطلق في الرقابة الثنائية ، وكان في وسعه ان يعقد بكل سهولة قرضاً بضمان تلك الحصبة لو انه ادرك ما في بيعها من الخطر العظيم . وعرض المؤلف امامنا بعضاً من محامد اسماعيل في مقدمتها استنقاذه من الشركة الفرنسية ستين الف هكتار من الارض تساوي الآن اضعاف قيمتها التي قدرها نوليون الثالث في سنة ١٨٦٤ مليون ومائتي الف من الجنيهات وكذلك استعادته لامتياز رعة المياه العذبة وأطلعنا بالبيانات والارقام الثابتة ما لا فته مصر من ضروب الاصلاح في المرافق العامة في عصر اسماعيل كحفر الترع ومد السكك الحديدية والاكثر من دور التعليم الى غير ذلك مع مقابلتها بمبيلاتا حتى آخر عهد سعيد . وهذا غير ما قام به من مساعدات جمّة لبيكر وامثاله من رجال الاستكشاف العلمي في مجاهل افريقيا ومحاربه للنخاسة في السودان وبذله في هذه السبل ما اثقل ديونه فأسدى الى العلم يداً جلييلة

وصور لنا المؤلف في فصول مختلفة كتبها بروح قصصية جذابة ما كان يتبعه رسل السلطان العثماني مع اسماعيل مما دعا الى تقديم هدايا ورشاو كلفته اموالا طائلة ، كانت سبباً في اتهامه بالتبذير فيما لا يجدي . وقد دلل المؤلف على ان هذه الهدايا والرشاوى وان بلغت قيمتها ما بلغت يومذاك فانها لا تساوي ما كان يصرفه اسماعيل لو انه حارب تركيا ، فكانت هذه الهدايا والرشاوى سبباً في خطب ود السلطان وحقن الدماء وايقاف خطر مالي جسيم والفوز بالاصلاح القضائي والاستقلال الذاتي . وقد أورد المؤلف ما كان يعتمد اليه بعض الوكلاء الديبلوماسيين الاجانب في استعمال نفوذهم لينزعوا ما لا يتوفى اوقح المطالب واستشهد على ذلك بما ورد في كتاب لورد ملنز « إنجلترا في مصر » من حوادث هؤلاء الوكلاء مما يبعث الدهشة ويدعو الى الضحك والسخرية . وهذا قليل بالقياس الى ما اتفق على اشباع السلطان هذه لمحة سريعة الى هذا الكتاب النفيس الذي غير صفحات التاريخ المصري الحديث حياة عاهل مصر المفترى عليه وكشف عن نواح خفية جديرة بالاطلاع وجديرة بالدرس على ضوء الحجج التي اثار بها كراييتيس السبل على الباحثين ومهددا لهم حسن كامل الصيرفي

مشكلة السكان في مصر

The Population Problem in Egypt, by Wendell Cleland, 1936

يجد القارئ في مكان آخر من هذا الجزء من المقتطف مقالاً في عدد سكان مصر من العصور القديمة الى ما بعد الفتح العربي في القرن السابع الميلادي . وهذا المقال ملخص عن كتاب الدكتور وندل كليند « مشكلة السكان في مصر » . ولا يظن القارئ ان هذا الكتاب يعنى بالموضوع من ناحيته التاريخية فقط ، لأن جميع فصوله ما عدا الفصل الأول وقف على دراسة مشكلة السكان من نواحيها المختلفة في مصر الحديثة . فهو يعالج مسائل حيوية ، بدأنا ندرك شيئاً من خطرها منذ شرعنا نعالج بشيء من الصراحة موضوع تحديد النسل في الشهور الأخيرة . ومن محاسن الصدف ان يصدر هذا الكتاب والعقول متنبهة للموضوع الذي يعالجه بوقوع الاحصاء العام في بدء هذه السنة واهتمام الصحف والجمعية الطبية وعلماء الاجتماع ببحث مشكلة تحديد النسل التي صدر في صدها فتوى شرعية

والدكتور كليند ، أهلٌ لمعالجة الموضوع . فقد تدرب على اساليب هذا البحث الاجتماعي البيولوجي الاحصائي ، في خيرة معاهد اميركا . وهو يقيم في مصر من عشرين سنة استاذاً في جامعة القاهرة الاميركية فديراً لقسم الخدمة العامة فيها وقد اتصل في خلالها بممثلي جميع طبقات الشعب المصري من كبار رجال الحكومة والتربية الى صغار الفلاحين واولاد الفقراء والمعوزين في مراكز رعاية الطفل . فاتجهت عنايته الى دراسة موضوع السكان دراسة علمية عملية منظمة ، كان حادثة عليها ما شعر به من العطف على الفقراء واولادهم وما يعانونه من الفاقة والمرض ، وغرضه فهم هذه المشكلات الاجتماعية الخطيرة بغية الوصول الى ما قد ينير الطريق الى حلها

ان عدد سكان مصر قد زاد زيادة سريعة في نصف القرن الماضي حتى بلغت الزيادة بين سنتي ١٨٩٧ و ١٩٢٧ - ٤٧ في المائة والازدحام في سنة ١٩٢٧ بلغ ١٠٤٥ في الميل المربع من الاراضي المزروعة ، ومع ان مساحة الاراضي المزروعة لم تزد في المدة عنها الا ٨ في المائة فان تحسين وسائل الري جعلت الزيادة في مقدار المحاصيل ٢٨ في المائة . ولذلك زاد ازدحام السكان في ١٦٩ في سنة ١٨٩٧ الى ٢٢٦ في سنة ١٩٢٧ اي ان زيادة الازدحام بلغت ٣٧ في المائة . فمن الواضح ان الزيادة في مقدار الحاصلات الزراعية كان اقل من الزيادة في نمو السكان وازدحامهم

ولما كان ثمانون في المائة من اهل البلاد يشتغلون بالزراعة ، والحاصلات الزراعية هي مورد الثروة الاول ، فمن الواضح ان زيادة نمو السكان على نمو ما يجني من الارض ، لا بد ان تقضي الى خفض مستوى المعيشة ، وهو ليس بالمستوى العالي على كل حال . ثم ان توسيع نطاق الاساليب الحديثة في الري ، افضى الى زيادة انتشار البلهارسيا والانكستوما فأضعف انتشارها من حيوية

الفلاحين . ونشاطهم . فالزيادة في عدد السكان قد قابلها هبوط في مستوى المعيشة من الناحيتين الاقتصادية والصحية

هذا هو قلب مشكلة السكان التي تعانها مصر ، ولما يتكرر لها حل . وغرض هذا الكتاب توجيه النظر اليها ، وبحث العوامل الاساسية فيها

لخصنا في غير هذا المكان بعض ما جاء في الفصل الاول وهو عرض تاريخي . ولكن الفصول الباقية وهي ثمانية تقسم بوجه عام الى قسمين . فالقسم الاول يعالج مشكلة السكان من الناحية العددية او الاحصائية ، وهو يشتمل على الفصل الثاني وفيه بحث في المصادر التي يصح الاعتماد عليها ونقدها والفصل الثالث وهو يتناول ازدحام السكان والرابع وهو يتناول المواليد والخامس وهو يتناول الوفيات . اما القسم الثاني فيعالج مستوى المعيشة من حيث الملابس والمأوى والغذاء والثقافة العامة (الفصل ٦) والصحة العامة وصلتها بنظام الري (الفصل ٧) وهل سكان مصر اكثر مما تتسع لهم اراضيها (الفصل ٨)

وقد وقف الفصل التاسع على الاحكام العامة التي خلص اليها من بحثه

مصطفى النحاس أو الزعامة والزعيم

درس بحث وتحليل

صفحاته ٥٤٣ من القطع الكبير طبع في مطبعة مصر

هذا كتاب نفيس أصدره الاستاذ عباس حافظ من اشهر كتاب العربية واطولهم باعاً في ضروب البلاغة والفصاحة تناول فيه زعامة حضرة صاحب المقام الرفيع دولة الرئيس الجليل مصطفى النحاس باشا ذي الرآسات الكثيرة بالتحليل والشرح فوضع بكتابيه دروساً في الوطنية اقتبست من سيرة زعيم البلاد الكبير وأوحت بها فعالة الغر الميامين . ولقد ادى المؤلف الفاضل على تاريخ نهضة مصر في عهدها الاخيرة باسهاب وشرح ما استلزمه البحث من سير النهضات المجاورة لمصر فتكلم عن نهضة ايطاليا بزعامة السنيور موسوليني ونهضة الهند بزعامة مهاتما غاندي وغيرها شرح المؤلف كثيراً من خصائص صاحب المقام الرفيع عند ما كان جندياً في ميدان الجهاد الوطني وهو قاض وكيف كان يحمل المنشورات الوطنية ويوزعها على نقابة المحامين ويزود المحامين بالادامر واسهب في فضل نشأته الدينية وطهارته الخلقية والنفسية وقوة ارادته وعمله الجليل في رفعة شأن البلاد ووظفه بمحاربة خصمه القوي الشديد وحسب القارىء الكريم أن يطلع على بعض الموضوعات التي درسها الكتاب ليعلم ما وراءها وما نحن نذكر منها شيئاً : —

«سر الزعامة والعوامل والمؤثرات في نشأتها والصفات والخواص المشاهدة في الزعامة والزعماء والشخصية البارزة وصفاتها ومختلف مظاهرها وقوة الارادة وضبط النفس واللباقة والروح المرحية والأسلوب والتنظيم وحاجة الزعامة اليهما واططار الزعامة والعوامل السيئة التي تتأثر بها والزعامة والزعماء في النظام الديموقراطي والمروءة والزعامة في الشرق وظهور غاندي والثورة المصرية في أدوارها الأولى وسعد زغلول في دور التكوين وزعامة سعد وظهور مصطفى النحاس ونشأته وتكوينه وحياته العملية وفي عهد الثورة وسعد ومصطفى بينان الديمقراطية والدستور ومصطفى النحاس زعيم الامة وقائد الشعب وفي الكفاح للدستور والاستقلال وتوافر صفات الزعامة فيه». فمن هذه الموضوعات يتبين القارئ النواحي التي درسها المؤلف الفاضل بأسلوبه الشامل وعقله المفكر وسعة معلوماته ودقيق اطلاعه فجاء كتابه درساً مفيداً للجيل الحاضر والايال القادمة

وقد حلل المؤلف نفسية دولة الرئيس الجليل فبين ما فطرت عليه من فضائل وحب الخير وبين قوتها وعزتها وصلتها بالله العلي العظيم واثار الزعيم الديني وفوزه في معترك الحياة لانه يستمد ايمانه وثقته من الله وطهارة ذمته وقوة ارادته وحصافة رأيه وكيف اذعن الجميع لزعامته ونظم كلمتها بهذه الجملة نفتبسها من قول المؤلف قال حضرته في صفحة ٥٤٠ مايلي : —

« ولقد اتاح الله لنا في مصطفى النحاس زعيماً مؤمناً ورئيساً وطنياً به دائماً . وفي ذلك قوة اخرى بجانب قوات جهادنا ومناعة من اليأس والوهن تجتمع الى مناعتنا كأمة شابة مستبسلة وحصانتنا . . . وبفضل ايمان زعيمنا نجونا من تجربة اعدائنا وظللنا نكافح الى الآن بثباتنا وثقتنا بالله وقوة صبرنا ومراسنا . وما دمنا مع مصطفى النحاس ، وما دام هو المستلهم السماء من اجله ومن اجلنا فلن يقهرنا خصومنا ، ولن تغلب على امرنا مهما تألبت علينا جموع الاعداء والمحاربين » ولقد تقدم بنا في الجهاد على لحن ايمانه ، وساق بنا الى النصر على حذاء وجدانه ففاز في كل خطوة خطاها بمعنى جديد من معانيه ، كلما اشتدت الحلكة على طريقه لتغريه بالعدول عن مسيره والرجوع عن وجهه ، انبثق الضياء فبدد الظلام ودياجيته ، وكشف عن جديد من فضاء خصبه ومحاذيه وكلما وسوس الامل في صدر اعدائه انهم قد تمكنوا منه او كادوا يتغلبون عليه ، دهمتهم داهمة من القدر ، وفاجأهم مفاجأة جديدة من السماء فانقلبوا من بعد الامل يائسين »

والكتاب مطبوع طبعاً متقناً في مطبعة مصر ومزدان بصور الزعماء فهو درس مفيد في باب الوطنية المصرية

شوقي أو صداقة أربعين سنة

تأليف الأمير شكيب ارسلان — صفحاته ٣٥٤ قطع المقتطف — مطبعة عيسى الباني الحلبي

كلُّ ما يكتبهُ الأمير شكيب ارسلان جدير بالاهتمام وانعام النظر لان فيه متعة للخاطر وغذاء للذهن، ولا بدع في ذلك فالامير شكيب سريُّ النسب سريُّ الفكر سريُّ القلم وقد اتصل برجال الشرف العربي وسائر العالم الاسلامي بصلات ودية واحترام متبادلة، واشترك في اعمال النهضة الادبية والحركة السياسية خلال الاربعين السنة الماضية اشتراكاً فعالاً، هياً له معرفة كثير مما انطوى بانطواء صحف الاقطاب الذين لازمهم وصاحبهم وراسلهم. ففي جعبته سوانة اعتمد على الذاكرة ام رجع الى اوراقه، حوادث ونوادير هي في الطبقة الاولى متعة ومقاماً عند ما يحين الوقت لكتابة تاريخ هذه النهضة

وحبذا الحال لو اتيج للامير ان يتفرغ لكتابة ذكرياته الادبية والسياسية، فان اقطاب الغرب جروا على كتابتها في مجلّدات هي من انفس ما ينشر على الناس وهذا الكتاب الذي نحن في صدده اليوم خاص في قسمه الاول بما لايزال عالماً بذهنه عن صداقته لشوقي، وقد بدأت من نحو أربعين سنة، واتصلت خلالها اوثق اتصال، ويحتوي في قسمه الثاني، على دراسات ادبية يباينة في امهات قصائد شوقي ويميزاتها

يروي الامير انه جاء مصر اولاً سنة ١٨٩٠ وكان حينئذ بين العشرين والواحدة والعشرين فكث شهرراً في الاسكندرية ثم جاء القاهرة وانضم الى الرهط الملتف حول الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده، ولم يكن احد قد سمع حينئذ « بشخص » يقال له شوقي ولا احسبنا له ركزاً »

ثم غادر مصر في تلك السنة ولم يسمع بشوقي، وكان حينئذ يرسل الاهرام، فكانت تصله اعدادها فوق في احد الايام على ايات لامية في مدح الخديو توفيق من نظم « احمد افندي شوقي ». قال الامير « ولما كان الناظم مجهولاً عندي لم اشأ ان اضيع وقتي بقراءة الايات » ولكنه لم يطل الامر حتى رأى اياتاً اخرى لاحد افندي شوقي فخرّب ان يطالها فلم يمجها ووضع حينئذ في طبقة الشعراء الذين يقال فيهم « من حقّه ان تسمعه ». وبعد قليل قرأ له قصيدة ثالثة وهي التي مطلعها

ان الوشاة وان لم احصهم عدداً تعلموا الكيد من عينيك والفندا
فطرب لها وأعاد قراءتها وعلم ان هناك شاعراً مطبوعاً وأصبح كلما رأى شعراً لأحمد شوقي

يتهاوت عليه «تهافت الظآن على نير الماء لا نرى رأيت الشاعرية بجميع شروطها : النسج الرقيق المتين والأسلوب الرشيق الرصين ، اللغة العربية الفصحى التي لا تؤنى من جهة ، والمعنى المتناهي في الدقة اللابس من اللفظ أجل حلة والانسجام المطرد من الأول الى الآخر في سكب واحد وسبك متوارد »

ولكن الأمير وشوقي لم يجتمعا إلا سنة ١٨٩٢ في باريس وكان الأمير قد ذهب إليها مستشفياً ، وشوقي جاءها من موندلبيه حيث كان يتلقى علم الحقوق . وتم الاجتماع في الحى اللاتيني ولكن الأمير نسي كيف تعارفا «ولكن لم يجتمع حتى صرنا كاخوين» وكان ماثبهما مقهى داركور « وفي أثناء لقائنا الأول كنا ننذاكر حول أمور كثيرة ولكن أهم حديث كنا نخوض فيه هو حديث الشعر وكان مع شوقي ديوان المتنبي . . . » وروي الأمير أنه الذي أشار على شوقي حينئذ بأن يجمع قصائده ويجعل منها ديواناً فلما سأله وأي اسم أعطيه قال الأمير : سمى الشوقيات فنسبة هذا الشعر اليك هي عندي كافية . وقد ذكر شوقي هذه القصة في ديوانه الطبعة الأولى سنة ١٨٩٨

ومن التوارد اللطيفة التي جرت لهما ان شوقي ذهب الى لبنان ووصل عاليه وكان الأمير مصطافاً في صوفر فقيل له ان شوقي في عاليه وأنه يريد مشاهدته . وكان الأمير متوعداً فبعث الى شوقي ان ينتظره وأنه يكون في الغد عنده . وبكر اليه في اليوم الثاني وذكر له سبب تأخره فقال شوقي على الفور : رجوت ان تكون كاذباً ولا تكون مريضاً . فقال الأمير : المرض احب الي من الكذب

وكان آخر اجتماع لهما عند عودة الأمير شبيب من الحج ، سنة ١٣٤٧ هـ ، فذهب شوقي الى مقابلته فيها ، وكانت قصيدة شوقي في دمشق ذاعت على اللسان ومن ابياتها في بني معروف واليهم ينسب الأمير

لكل لبوءة ولكل شبل نضال دون غابته ورشق

قال الأمير وقد جرتنا الحديث الى هذه القرية فقلت له : عندما بدأت بقولك (لكل لبوءة ولكل شبل) خفت ان يكون جواب هذه الجملة (نضال عن مغارته ورشق) فقال لي (وهي ايه) قلت له هي : (نضال دون غابته ورشق) والغابة هي والمغارة كلتاها مأوى للأسد ولكن الغابة اخف وقعا على السمع واقرب الى اللسان رحم الله شوقي ومد في عمر الأمير ونفعنا بعلمه وفضله

تاريخ الفلسفة اليونانية

تأليف يوسف كرم — مدرس بكلية الآداب بالجامعة المصرية — صفحاته ٣٠١ قطع المقتطف
اصدرته لجنة التأليف والترجمة والنشر وقد طبع بمطبعها

هذا كتاب مدرسي متقن في تاريخ الفلسفة اليونانية . ومقام الفلسفة اليونانية في تاريخ الفكر لا يحتاج الى شرح او بيان . ويكفي ان يذكر القراء اسماء اعلام كهرقليطس وفيثاغوراس وانكساغوراس ولوقيبوس وزينون الايلي وسقراط وانبادقليس وديموقريطس وأفلاطون وأرسطوطاليس وأرسطبس القوريني ودوجنوس وزينون الكلبي ليعلم اي ذرى بلغتها الفلسفة اليونانية ، في تعاليم هؤلاء الرجال وأحكامهم . والفلسفة اليونانية هي على ما قال المؤلف « فلسفة الشرق الادنى منذ فتوح الاسكندر ، وفلسفة الغرب منذ استولى الرومان على بلاد اليونان في منتصف القرن الثاني قبل الميلاد اصطنع المفكرون المسيحيون هذه الفلسفة ثم اصطنعها المفكرون المسلمون ، ودخلت المدارس في الشرق والغرب فكانت العقول وهيمت على وضع العلوم » ليس ثمة مسألة من مسائل الفلسفة لم يعالجها اليونان ، ولم يتحدث اثر ما قالوه فيها الى العصر الحديث . « فقد نظروا في اسمى المسائل مثل الوجود والتغير والخير والشر والاصل والمصير » فكانوا « اساتذة الانسانية »

« وقد اجتازت الفلسفة اليونانية ثلاثة ادوار هي دور النشوء ودور النضوج ودور الذبول والدور الاول فيه وقتان : الوقت المسمى بما قبل سقراط وهو يمتاز باتحاد وثيق بين العلم الطبيعي والفلسفة . ووقت السوفسطائيين وسقراط يمتاز بتوجه الفكر الى مسائل المعرفة والاخلاق » والدور الثاني يملأه أفلاطون وارسطو . اشتغل افلاطون بالمسائل الفلسفية كلها وجهده نفسه في تمحيصها ولكنه مزج الحقيقة بالخيال والبرهان بالقصة ، حتى اذا ما جاء ارسطو عالجها بالعقل الصرف ووفق الى وضعها الوضع النهائي

« الدور الثالث يمتاز بتجديد المذاهب القديمة وبالعود الى الاخلاق والتأثر بالشرق والميل الى التصوف مع العناية بالعلوم الواقعية »

وهذا الكتاب من أوّله الى آخره شرح لهذا الایجاز

هنا اقطاب الفلسفة اليونانية ، في ابواب وفصول فقرات مرتبة منسقة على خير ما تروم من ترتيب وتنسيق ، نبذ موجزة في سيرهم متى ولدوا واين نشأوا وعلى من تلقوا العلم والفلسفة هنا آراؤهم الفلسفية مبسطة في دقة ، يسبغها قارىء لم يدخل صروح الفلسفة من أبوابها ، ويرضى عنها الاستاذ ، وهذا عمل شاق لا يتاح النجاح فيه الا لمن كان كمؤلف هذا الكتاب

أخذ الفلسفة عن أساطينها ثم قضى العمر بعد الاجازة في درسها وتدريسها
معظم الفلاسفة مجتمع طوائف طوائف في هذا الكتاب وفقاً للرأي الفلسفي الذي يؤلف
بينهم . فالطبيعيون الأولون هم طاليس وانكسيندريس وانكسيانس وهرقليطس . الأول
يقول ان الماء اصل الاشياء والثاني يفسر تكوين الاشياء تكويناً آلياً اي بمجرد اجتماع عناصر
مادية وافتراقها بتأثير الحركة والثالث ان الهواء اصل الاشياء والرابع ان النار اصل الاشياء
وكذلك فعل المؤلف بسائر الفلاسفة . اما افلاطون وارسطوطاليس فقد افرد لكل منهما
باباً خاصاً به وفصل آراءهما الفلسفية وحلل اشهر مؤلفاتهما

ولعل القارئ يطلب من بعد وصف الكتاب وتبويبه مثلاً على اسلوب المؤلف وهو
اسلوب جمع بين القصد والابانة ، فاليه نسوق الفقرة التالية وقد فتحنا الكتاب اتفاقاً لنقل
شيء منه فاذا هي امامنا، وموضوعها «الفضيلة» وهي في سياق الكلام على افلاطون صفحة ١١٨
ا — الفضائل ثلاث تدبر قوى النفس الثلاث : الحكمة فضيلة العقل تكمله بالحق — والعفة
فضيلة القوة الشهوانية تلطف الأهواء فتترك النفس هادئة والعقل حراً — ويتوسط هذين
الطرفين الشجاعة وهي فضيلة القوة الغضبية تساعد العقل على الشهوانية فتقاوم إغراء اللذة وخافة
الآلم . والحكمة أولى الفضائل ومبدؤها فلولاً الحكمة لجرت الشهوانية على خيليتها وانقادت لها
الغضبية ولو لم تكن العفة والشجاعة شرطين للحكمة تمهدان لها السبيل وتشرفان بخدمتها لما خرجنا
من دائرة المنفعة الى دائرة الفضيلة اذ « ما الهرب من لذة لنيل لذة اعظم سوى عفة مصدرها
الشهه ، وما خوض الخطر لاجتناب خطر آخر سوى شجاعة مصدرها الخوف . ليست الفضيلة
هذه الحسبة النفعية التي تستبدل لذات بلذات وأحزاناً بأحزان ومخاوف بمخاوف كما تستبدل
قطعة من النقد بأخرى فان النقد الجيد الوحيد الذي يجب ان يستبدل بسائر الاشياء هو الحكمة
بها نشترى كل شيء ونحصل على كل الفضائل ، اما الفضيلة الخالية من الحكمة والناشئة عن
التوفيق بين الشهوات فهي فضيلة عبدة » . فالفضيلة اذن من جنس العقل والنفس ولا
يسوغ ان نذكرها الاً بالإضافة اليهما ، والحياة الفاضلة لا تستمد قيمتها من لذتها او منفعتها بل
من هذه الاضافة ، ويستحيل على من يفكر النفس والعقل ان يبلغ الى معنى الفضيلة

ب — واذا ما حصلت هذه الفضائل الثلاث للنفس فخصعت الشهوانية للغضبية والفضيلة للعقل
تحقق في النفس النظام والتناسب . ويسمى افلاطون حالة التناسب هذه بالعدالة باعتبار ان العدالة
بوجه عام اعطاء كل شيء حقه . فليست العدالة عنده فضيلة خاصة ولكنها حال الصلاح والبر
الناشئة عن اجتماع الحكمة والشجاعة والعفة . اما العدالة الاجتماعية فهي تحقيق مثل هذا النظام
في علاقات الافراد

الزهاوي

٦١ تابع المنشور على الصفحة ٥٥٧

وهو في الشرق بحق — في هذا العصر — كنيته في الغرب تماماً إلا أن الثاني أي نيتشه رام المجد عن طريق الهجوم فحز على الحرب والكفاح والقوة فكان من مفاخر شعره الحرب الكبرى بالامس ، واليوم نظرية الاجناس الشائعة في المانيا ودعوة النازية المتعصبة وطرده اليهود واضطهادهم والقوة السارية في سرايين الامة كالكهربائية والتحفز للوثوب بقية المجد والامل والنضال . أما الاول — اي انزهاوي — فقد رام المجد عن طريق الدفاع . الدفاع عن الشرق المبهض الجناح ، الشرق الذي يترصد له الغرب ويسد عليه السبل ويغني أن يجعله لقمة سائغة في جوفه الواسع الذي لا يشبع . ولم يغفل الزهاوي في يوم ما احياء الهمم الراكدة واذكاء روح القوة في النفوس الحامدة وتذكيرنا بماضيها المجيد غير ان ضعف اسلوبه لم يجعل لاناشيده تلك العذوبة التي يستسيغها كل لسان وتشبع بين الناس كالأمثال . اما تمرده فقد كان في بعض الاحيان ينصب على رجال الدين ، وذلك يرجع لتأثره بتعاليم استاذه المعري ولأن كلا الرجلين لاقى الامر من تعصب رجال الدين الذين لا يتبعون خطوات العلم ويوقفون بينه وبين الدين

وعلى الرغم من ان بعض المدارس الادبية تظن تمرده هذا انما هو تمرد على الدين نفسه ، فان اناشيده الثورية التي نادى بها يستفز الهمم ويوقد نار الوطنية في الصدور ويشعرنا بكرامتنا المهدورة وحقنا المضاع ووحدتنا المتفرقة مستبسلًا في دعواته الاصلاحية التجديدية فينة بتردادها السنة الشباب ، شباب الشرق العربي اولئك الدعاة الجدد الذين يحملون اليوم عبء المجد الثقيل انظر الى قصيدته « حتى على الاقدار » التي وجهها الى الطلبة الشرقيين والتي بدأها بقوله :

بثوا بألسنة لكم من نار ما في جماجمكم من الافكار
سيروا الى غاياتكم في جراءة كالسيل هداراً وكالاعصار
ثوروا على العادات ثورة حانق وتمردوا حتى على الاقدار !
كونوا جميعاً سادة لنفوسكم فالعصر هذا سيد الاعصار

الى ان يقول وهذا ما لا نقره عليه بعض الشيء :

لا تقبلوا في الدين ما يروونه إلا اذا ما صح في الانظار
الى ان يقول : وبحرروا من قيد كل عقيدة سوداء ما فيها هدى للساري
أمن اكفي بخرافة هو مؤمن ومن امترى فيها من الكفار ؟
وهذا دستورنا نحن الشباب ، لكنه عند قوله :

انضوا القديم وبالجديد توشحوا حتام تحتالون في الاطمار

حكم خاطيء ، وان كان يهتدي بهدى المنطق العلمي المنطلق من عقالة — على حد زعمه — فما كل جديد بصحيح وما كل قديم بزائف كما اسلفنا القول من قبل « للحديث بقية »

فهرس الجزء الخامس من المجلد التسعين

الفيتامينات وأثرها في الصحة والمرض والنمو	٥٢٧
الجباية في الاسلام : لفارس بك الخوري	٥٣٦
الجغرافية الحديثة : لمصطفى طامس	٥٤٢
أهذا دم بشري؟	٥٤٨
الزهاوي : لاجد محمد عيش	٥٥١
أتدري (قصيدة) : لمحمد فهمي	٥٥٨
سر « الفيروس » وصلته بسر الحياة	٥٥٩
تبادل الاحساس : لابرهم مطر	٥٦٤
الخزف الفاطمي : للدكتور كارل جوهان لام	٥٦٧
عمر بن أبي ربيعة : لجبرائيل جبور	٥٧٥
العقلي والمادي : لفليمون خوري	٥٨١
أثر نيتشه : لابرهم ابراهيم يوسف	٥٨٥
المعطف : للكاتب الروسي جوجل : نقلها كامل محمود حبيب	٥٩٠
فوست العصرية : لرسالن عبد الغني البني	٥٩٩
سكان مصر من أقدم العصور الى ما بعد الفتح الاسلامي	٦٠٥
حديقة المقتطف * بيير لوتي وناحية من ذكرياته . ليوسف البعيني . لمن (قصيدة) :	٦٠٧
لعمر أبو ريشة . العرس الاسود (قصيدة) : لفؤاد سليمان	
سير الزمان * الامتيازات الاجنبية ومؤتمر مونترو . امتيازات الملوك : لامين الغريب	٦١٥
المراسلة والمناظرة * مختار الصحاح : للاب أنستاس ماري الكرملي	٦٢٨

الاخبار العلمية * السيوتكس . البصاصة الكهربائية تحرس السجون بدلا من حراسها . هل تفعل الاعصاب فعل الغدد . البصاصة الكهربائية معوان لدرس الحائر . اكتشاف قصر اليم بالراديو المبصر . كيف اخترعت شبكات المصاييح الغازية . الغذاء وصحة الاسنان . الصغير بيد الضباب . عصر البازار في القوارير (لعوض جندي)	٦٣٥
مكتبة المقتطف * في عالم السدود والقيود . اسماعيل المفترى عليه . مشكلة السكان في مصر . مصطفى النحاس باشا او الزعامة والزعيم . شوقي او صداقة اربعين سنة . تاريخ الفلسفة اليونانية	٦٤٣